مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب
بدمشق

العدد 103 صيف 2000 السنة الخامسة و العشرون

الافتتاحية

إلـــــى اللقـــــاء

■ د.بثينة شعبان■

بهذا العدد تختتم مجلة الآداب الأجنبية فصلاً آخر مشرقاً تواصلت به مع قرائها في مختلف أنحاء الوطن العربي، وحاولت جاهدة أن تقدّم ما ارتأته مفيداً ومغنياً وتنويرياً من إنتاج عقول في لغات أخرى قد لا يتقنها القارئ العربيّ كما حاولت أن تلامس وتعكس آخر اهتمامات النقد الأدبي والقصة والمقال والشعر وإلى حدّ ما المسرح بين الفنية والأخرى. واستناداً إلى المساهمات التي تصلنا من أقطار عربية شقيقة والتي ازدادت كماً ونوعاً في السنوات الأخيرة يمكن لنا أن نقول أن مجلة الآداب الأجنبية تؤدي دوراً هاماً اليوم على الساحة العربية وتعتبر قناة تواصل رئيسة بين المترجمين والمهتمين في الترجمة في الجامعات العربية وعلى امتداد الساحة الثقافية العربية. ولكنّ هذا لا يعني طبعاً أن المجلة لا تعاني مما يعاني منه الكتاب العربي من قطرية خانقة غير أن جهود الاتحاد في إيصال المجلة إلى الأقطار العربية رغم كل الصعوبات جهود مشكورة بالفعل ولمسنا نتائجها الإيجابية والمثمرة منذ حين.

يساهم اليوم في الترجمة للمجلة أساتذة من الجامعات العربية من العراق إلى الجزائر والمغرب نعتّز بمساهماتهم ونسعد لتواصلنا معهم وتواصلهم مع جماهير القراء على الساحة العربية ونوّد لو تتسع رقعة التواصل لتشمل معظم الجامعات العربية والأقسام المهتمة بالترجمة والمترجمين العرب في الساحة الثقافية العربية.

كما نتمنى أن تصبح المجلة في السنوات المقبلة منبراً حقيقياً ليس فقط لنقل ما تيسر من الآداب الأخرى وإنما أيضاً لوضع استراتيجيات عربية للترجمة ومناقشة وضع المترجم وأوضاع الترجمة وإيجاد الحلول اللائقة ورفد وزارات الثقافة والهيئات المعنية بالترجمة بالمقترحات والأفكار في كافة أنحاء الوطن العربي من أجل النهوض بالترجمة نهوضاً حقيقياً وعدم إضافة الجهود بين قطر وآخر وجامعة وأخرى نتيجة عدم التنسيق وعدم وجود خطة عربية واحدة ومتكاملة للترجمة في الوطن العربي. إنه لمن المنطقي جداً أن ينسق شعب يتكلم لغة واحدة خطط الترجمة من وإلى هذه اللغة رغم اختلاف أقطاره ومؤسساته وجامعاته وإنه من غير المعقول أن يتخبط كل قطر بقوائم عشوائية للترجمة قد تتكرر هنا أو هناك أو لا تصل إلى القراء في بعض الأصقاع فتهدر الجهود وتضيع الموارد وينعكس هذا سلباً على الأداء وعلى قدرة حركة الترجمة العربية على المنافسة والصمود بين حركات الترجمة في العالم.

إنني وفي هذا العدد الذي يشكل نهاية مرحلة من تاريخ مجلة عزيزة على قلبي ووجداني أناشد الجامعات العربية والهيئات الثقافية العربية أن تؤسس هيئة عليا للترجمة في الوطن العربي تقوم بدراسة العناوين المزمع ترجمتها وتصدر نشرة دورية بالأعمال التي هي قيد الترجمة توزع على كل الجهات المعنية ويتم التعامل مع الترجمة والمترجمين بغاية الجدية والمسؤولية وتعمل هذه الهيئة على توزيع الأعمال المترجمة في جميع

أنحاء الوطن العربي كي يكون الجهد ناجعاً وكي تعمّ الفائدة على الجميع.

رغم المفهوم الشائع والذي يعتبر الترجمة إبداعاً من الدرجة الثانية فإن الترجمة عمل غيري يعبّر عن روح إيثارية تكرس وقتها وجهدها لنشر أفكار وآراء الآخر وأدبه وهي أيضاً عمل صعب يتطلب درجة عالية من الإتقان والدقة ولذلك يجب تدريب المترجمين وتوفير المستوى المعيشي اللائق الذي يساعدهم على التفرغ وبذل الجهد والوقت اللذين يتطلبهما مثل هذا العمل.

في هذا العدد الذي يسبق المؤتمر العام لاتحاد الكتاب العرب نلقي نظرة وداع على مرحلة عشناها بفكرنا وقلوبنا ومشاعرنا، مرحلة كان العمل بها تمريناً ذهنياً رائعاً بالإضافة إلى علاقات الزمالة والصداقة التي نمت وترعرعت في كنف هذه المجلة. فقد أصبحت أمينة لتحرير مجلة الآداب الأجنبية حين كان رئيس تحريرها المغفور له الأستاذ عدنان بغجاتي في أواخر الثمانينات وأمضيت معه فترة عذبة من العمل والتشاور والتعاون. فقد كان المرحوم أديباً دمثاً متواضعاً محباً بصمت وكان العمل معه متعة أيما متعة. ومن ثم انتقلت رئاسة التحرير إلى الأستاذ أنطون مقدسي والذي أغنى المجلة وأتحفها بمساهماته ومتابعته وأفكاره. وكانت أدراجه لا تخل من أعمال درسها وأخرى قيد الدرس وخطة نفذها وأخرى قيد الدراسة. أسعدت بالعمل معه واغتنيت من معين خبرته وفكره وعطائه. ومن ثم انتقلت رئاسة التحرير إلى السيدة قمر كيلاني والتي اعتبرتني بمثابة ابنةٍ لها ولم تخرج علاقتنا عن هذا الإطار الجميل، كانت معطاءة ومحبة ومتابعة وكنت أتألم حين يثنيها المرض أو الألم عن إسعادنا بحضورها المشع.

واليوم ونحن نودع حقبة كاملة من عمر مجلة عريقة عربية في

الهدف والتوجه نتطلع أن تزداد هذه المجلة في الألفية الثالثة ألقاً وأن ترسم لها الخطط كي تدخل كل بيت وتصبح غذاء حتمياً لاكتمال ثقافة العربي وليكن العقد الأول من القرن الواحد والعشرين عقد استراتيجية موحدة للترجمة العربية ولتزاد الآداب الأجنبية ألقاً وأهمية وفائدة في الحياة الثقافية العربية وإلى اللقاء في أي زمان وأي مكان وعلى أي منبر ننهض به بعمل عربي مشترك لأن هذا هو الطريق إلى حرية العرب ومستقبلهم ولا طريق سواه.

❑❑❑

نحو استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي

-الترجمة عامل توحيد قوي-

■ اسماعيل أبو البندوره ■

مقدمة:

التفكير في الترجمة باعتبارها عامل توحيد قوي يتطلب إعادة واستئناف النظر في القضايا التي تشكل العناصر الجوهرية لهذه الفرضية وهي الترجمة باعتبارها عملية ثقافية كبرى تجري في السياق العام للثقافة العربية وتشكل نسقاً أساسياً من أنساقها، والثقافة العربية باعتبارها الإطار الكلّي الذي يتوزع على مجموعة أنساق تتآزر -لكي تكون إثراءً لهذه الثقافة أو توليداً لإشكالياتها. وموضوعة الوحدة والتوحيد القومي وكل مايمكن اعتباره مرتكزاً أو محوراً يمكن البناء والتأسيس عليه لرسم الصورة الجديدة للأمة العربية الواحدة وكل مايمثل دفعاً لعملية التوحيد القومي.

وبناءً على ماتقدم يصبح المطلوب التفكير في الترجمة باعتبارها الأداة – الموضوع الذي يتم من خلاله التواصل مع الثقافات الأخرى وهي بهذه المثابة تعتبر عنصراً جوهرياً في فهم الآخر واستيعاب ثقافته واستلهام إبداعاته وتوظيف ذلك في عملية المعرفة والنهضة القومية.

إننا إذن نجدد النظر في أطروحة توظيف عملية الترجمة في التوحيد القومي

ونجد الحديث عنها باعتبارها تشكل مسألة أساسية في تجديد الفكر العربي وإثرائه وذلك لأسباب وجيهة ومتعددة أصبحت موضوعاً جوهرياً في الحوارات الراهنة حول واقع ومستقبل الثقافة العربية وارتباط ذلك بالنهضة وسبل مقاومة الغزو الثقافي والاختراقات المتنوعة ودور الثقافة العربية في إعادة الاستقرار والتوازن للإنسان والعقل العربي حتى يبدو مؤهلاً لمواجهة تحديات المرحلة القادمة.

إشكالية الترجمة

لعبت الترجمة وما ارتبط بها من بحث وتعريب ومثاقفة وإعادة تكوين للفكر العربي دوراً بارزاً في مجال الثقافة العربية، وأنشأت لها مكانة مميزة داخل هذه الثقافة بحيث ساعدت على تشكيل الفكر العربي تشكيلاً عقلانياً وحداثياً عندما ارتبطت الترجمة بعملية نهضة علمية –معرفية كبرى ولم تكن مجرد عملية ثقافية مجردة كما أنه تم الإقدام عليها باعتبارها خياراً حضارياً وقراءة وتحدياً للآخر ومحاولة عقلانية لاختراق فكره ومعطياته المعرفية والعلمية بغية فهمها وتجاوزها أو على الأقل التحاور المتكافئ معها.

ولابد من التفريق بداية "ونحن نتحدث عن توظيف جديد للترجمة في خدمة التوحيد القومي" بين حركة ترجمة أقدم عليها العرب وهم في لحظة تفوق وتقدم علمي وحضاري وكانت بهذه المثابة خياراً نهضوياً مسؤولاً وبين حركة ترجمة في لحظة وعي بالتأخر وأصبحت تشكل ضرورة معرفية وقومية وفي مدار من التراجع والانحدار والتبعية السياسية والثقافية والاستسلام أمام معطيات الحضارة الغربية. كما لابد من الإشارة إلى أن الوعي بأهمية الترجمة قد ظهر في مراحل مختلفة من مراحل التطور الثقافي العربي وكانت هناك محاولات ودعوات لرسم استراتيجية قومية للترجمة إلا أن عوامل مختلفة وضاغطة وتشوهات ثقافية كثيرة برزت في الأفق الثقافي العربي "في لحظة انسداده" وعطلت هذه المحاولات أو جعلتها تبقى أسيرة المؤتمرات والندوات المغلقة ولم تؤسس فعلاً ثقافياً قومياً تراكمياً يتيح المجال للبناء عليه وتطويره.

في اللحظة الثقافية العربية الراهنة التي تتلبد في أفقها غيوم التحديات لابد للترجمة أن تكون نسقاً بارزاً من أنساق تطوير الثقافة العربية وتجديدها ولن يتسنى

لها احتلال مثل هذا الدور إلا بارتباطها باستراتيجيات ثقافية قومية ولابد أن تنبثق عنها باعتبارها أداة مثاقفة وحوار مع الآخر وثقافته لكي تشكل في محاولة تجديد حضورها ووظيفتها إجراءً معرفياً جديداً للثقافة العربية أو انطلاقة جديدة لها تعيد بناء وتوحيد كافة الخيارات الثقافية المتاحة لحماية ذاتها ودورها ومعطياتها التوحيدية والوقوف بوجه محاولات تهميشها وشرذمتها أو تقليص دورها في استنهاض الموقف القومي والإشارة إلى وجوده واستمراره.

فالترجمة لابد أن ترتبط بحالة ودائع نهضوي وبوظيفة قومية استنهاضية توحيدية باعتبارها عملية ثقافية كبرى ارتبطت في تاريخ العرب بتحدي الآخر ومحاولة فهمه وقراءة ثقافته وفكره في هذه المثابة كانت ولاتزال أداة لحوار الثقافات وتعميق الأبعاد الحضارية للفكر العربي.

إلى هنا نتوقف لكي لا نكرر الكلام حول أهمية الترجمة قديماً وحديثاً أو لكي لانعيد إنتاج مقولات مكررة ومكرسة وجرى الحديث عنها في كتابات وندوات سابقة لكي نصل إلى قضية جوهرية قوامها:

أن هناك فجوة هائلة بين ماتنتجه ثقافتنا العربية وثقافة الغرب بحيث أن الأمر أصبح يتطلب تفكيراً جدياً ومسؤولاً في هذه المسألة المعرفية الهامة وحيث أن ذلك يستدعي ترجمة آلاف الكتب في مجالات المعرفة المختلفة والتي شكلت القطيعات الكبرى في مجال الفكر الغربي وتمتد على مدار مئتي عام حتى تستطيع ثقافتنا أن تقف وثقافة الغرب على صعيد متكافئ وحتى نتمكن من الإعلان عن اندماجنا في مسائل العصر وإشكالياته.

هذا التخلف الثقافي وتحديداً في مجال ترجمة الأفكار التي أصبحت تشكل الفضاء الذي تحرك فيه الفكر طوال القرن العشرين، لايمكن تجاوزه إلا من خلال تفكير استراتيجي قومي يحدد المجالات التي يجب على الثقافة العربية أن تترجمها وتستوعبها حتى تخرج من إعاقتها المعرفية وتعانق قضايا العصر.

إن كل ماتقدم يقدم الإيحاءات الضرورية لكي تبدأ فينا عملية مراجعة نقدية كبرى لمسألة الترجمة في الوطن العربي وتجديد الحديث عن دوافعها القديمة وإسهامها في تكوين الفكر العربي والتركيز على سياقات الترجمة التي جاءت بدوافع جمالية حيناً أو أيديولوجية حيناً آخر والقصور الكبير في الترجمة التي انطلقت من

دافع معرفي ونهضوي، وتجديد وظيفتها وربطها بغايات توحيدية -نهضوية-

وأي مراجعة لواقع الترجمة لابد أن تقودنا للحديث عن قضية فوضى الترجمة في الوطن العربي وتأثيراتها السلبية على مجمل الثقافة العربية.

وموضوع فوضى الترجمة يوقفنا بالضرورة أمام مسألة الاستباحة القطرية للثقافة وضعف التوجه والبعد القومي فيها والذي جاء نتاجاً طبيعياً للسياسات القطرية التي استسلمت تماماً لمعطيات الحاضر الراهن وابتعدت حكماً وخياراً عن الربط بين التوجهات الثقافية للقطر ومحددات الثقافة القومية وضروراتها.

والفوضى في مجال الترجمة يمكن تناولها من عدة زوايا وعلى مستويات مختلفة للحد من آثارها ووقف تأثيراتها السلبية على الثقافة القومية ويمكن البدء بـ:

-التنسيق العربي الثنائي والجماعي في مجال الترجمة.

-وضع خطة عمل لنقد وإصلاح واقع الترجمة في الوطن العربي.

-الوصول إلى استراتيجية قومية للترجمة في الوطن العربي.

وهذا التدرج يمليه الواقع القطري الراهن الذي أصبح لايقبل على التوجهات القومية بصيغتها الشمولية والجذرية ويقبل دفعاً للحرج بإجراءات وسيطة وأولية قد تصل إلى مآلها النهائي إلى صيغ استراتيجية شمولية.

نقول ذلك ونحن نفكر بالنداءات والندوات السابقة التي لم توفق في تحقيق نجاحات لافتة على صعيد التنسيق ووقف الفوضى واستنهاض حالة معرفية جديدة في مجال الترجمة ومن خلالها:

إذن لابد على هذا الصعيد من تحقيق الأمور التالية:

1-نقد وتحليل واقع الترجمة في الوطن العربي.

2-قراءة الخارطة العالمية للفكر لتحديد الحلقات الضرورية التي يجب ترجمتها بغية تشكيل الفكر العربي المعاصر عقلانياً وحداثياً ولردم الهوة بين فكرنا وفكر الآخرين.

3-إيجاد نمط من التنسيق بين مراكز الترجمة في الوطن العربي لوقف فوضى الترجمة.

4-وضع استراتيجية عقلانية للترجمة بحيث تضع أمام المترجمين العرب الأهداف القومية والمعرفية الضرورية لعملية الترجمة ومايجب أن يشكل غاية نهضوية للترجمة.

5-وضع قضية الترجمة في مدارها الثقافي الحقيقي باعتبارها أداة وعنصراً من العناصر الهامة لتجديد الثقافة واللغة العربية والحوار مع الثقافات.

ب-واقع الثقافة العربية والتحديات التي تواجهها

إننا نتحدث عن الترجمة باعتبارها نسقاً أو سياقاً من سياقات الثقافة العربية، ولذلك فإن حديثنا عن إشكاليات الترجمة يصبح مجزوءاً إذا عزلناه عن أزمة الثقافة العربية وتعاملنا بانفصال عنها، فالترجمة بهذه المثابة تمثل انعكاساً لواقع الثقافة العربية الراهن ولا تشكل مجالاً خاصاً يمكن تناوله بمعزل عن هذه الثقافة فهي (أي الترجمة) عملية ثقافية كبرى في سياق الثقافة العربية.

الثقافة العربية بواقعها الراهن تواجه تحديات متعددة خارجية وداخلية.

التحديات الداخلية تتمثل بـ:

-الأمية.

-الاستباحية القطرية.

-القصور الذاتي.

الأمية:

نصف أبناء الأمة العربية أميون (مع ملاحظة أنماط جديدة من الأمية لدى بعض قطاعات الشعب العربي الذي تعرض للحروب والحصار).

فكيف يمكن أن نتحدث عن ثقافة عربية قومية في مناخ من الانقطاع والعطالة الفكرية والأمية والجهل؟ إنها مسألة يجب أن تبدأ منها البدايات إذا أردنا التفكير بالثقافة باعتبارها عاملاً قومياً معنوياً هاماً للتوحيد وصياغة العقل والوجدان القومي الموحد.

الأمية بإمكاناتها السلبية النابذة تقلص مجال تأثير الثقافة والتواصل الثقافي لابل إنها تنتج جمهوراً مؤهلاً لالتقاط هجمة الغزو والاحتراق الثقافي، وهي أمية كما نرى تكبر وتتضاعف ولا تتقلص. هذا إذا اقتصرنا الحديث على الأمية التقليدية دون

الأمية الأكاديمية والتعليمية السائدة والشائعة.

فلا ثقافة قومية (ولا أمة ثقافية) بدون مناخ ثقافي مؤهلا لالتقاط صبوات ونداءات هذه الثقافة القومية والأمية تصبح بهذه المثابة صحراء الثقافة التي ستتحول إلى بريّة موحشة لايسمح فيها نداء الثقافة القومية الواحدة. إذن علينا إبراز مسألة الأمية وإدراجها ضمن الأجندات الاستراتيجية الكبرى لثقافتنا القومية الطامحة إلى التوحيد السياسي.

الاستباحة القطرية:

في عملية أو محاولة "تقوضها" أصبحت الدارة القطرية تجذر بعض معطياتها الثقافية الوهمية أو الموهومة باصطناع تاريخ ثقافي "انفصالي" حتى تقدم إيحاءات بالاستقلال والاكتمال في آن واحد.

وأدت هذه العملية إلى استباحة مجالات مختلفة من مجالات الثقافة وتحديداً في مجال الترجمة عندما تطلبت احتياجاتها الذاتية أن تترجم أو تدخل في فوضى ترجمة عنوانها البحث عن الذات ولا علاقة لها بالخيارات الثقافية الاستراتيجية للأمة وإنما كانت عنصراً من عناصر إيمانها بوجودها المتضخم فتبدت لها عملية الترجمة انحيازاً للموقف التجزيئي القطري وتأكيداً له وربطت ذلك بخياراتها التبعية للثقافة الامبريالية وحولت بذلك عملية المثاقفة إلى عملية اختراق واستتباع وقبول بفكر الآخر دون تمحيص.

النفي القطري للثقافة العربية الواحدة أصبح يتمظهر بعدة صور وأشكال:

- *إنشاء مناخ تفكير انعزالي محدود بحدود القطر.*
- *إضعاف التوجه النقابي القومي بإشاعة ثقافة قطرية.*
- *تقليص مساحة التفاعل الثقافي والتنسيق بين أقطار الوطن العربي.*
- *تقوض الدولة القطرية بأطروحات خاصة تؤكد الاكتمال السياسي والمشروعية الدولانية.*
- *الاندغام في الدعوات العالمية الجديدة الداعية إلى تقليص دور الثقافات الطرفية.*
- *الخضوع المطلق في المجال الثقافي للمعطيات الدولية الجديدة الداعية إلى*

الانسحاق والتبعية.

-الانطلاق من الواقع القومي الانحطاطي الراهن باعتباره نهائياً ومغلقاً ولايجوز التفكير بتجاوزه وتغييره.

-تقديم فكر القطر على فكر الأمة.

-عدم الاتساق بين المزاعم القومية والسلوك القطري ذلك أن الزعم بأن القطر جزء من الأمة العربية يستدعي سلوكاً سياسياً وثقافياً يقدم الكل على الجزء أو يجعل الكلي ضابطاً للجزء ومحدداً لحركته.

القصور الذاتي

وهو يتمثل الآن بتأثير الثورات الإعلامية والمفاهيمية على الثقافات الكونية وعدم الانشباك مع هذه التحولات في هذه المجالات وبالتالي الوقوع في براثن هذه الاندفاعات الثقافية الكبرى من خلال: الرفض العدمي لها أو الاستسلام الكامل لمعطياتها بحيث يتحول الأمر إلى قبول بالتبعية والغزو وتكريسه وعدم الوقوف بوجه اندفاعاته.

إن ذلك يجعل الثقافة العربية إما أن تكون مستقبلة ومتلقية أو يجعلها تعيد إنتاج معطياتها واجترار محاولات وطرح إشكاليات زائغة هدفها تأكيد الذات وليس وعي الذات وهذا بدوره يؤدي بالثقافة إلى الانسداد والتأخر عن إدراك أسئلة العصر.

فإذا كانت ثقافة الصورة التي تطرحها الثقافة الغربية راهناً وتقتحم وتهيمن من خلالها على فكر العالم وعقله تطرح تحديات حقيقية على ثقافتنا فما الذي تقوم به الثقافة العربية راهناً لمواجهة مثل هذا التحدي ووقف إثارة السلبية على تشكيل فكرنا العربي المعاصر.

إن ذلك يشير إلى اختلال في موازين القوى الثقافية بيننا وبينهم لكن ذلك لايمنع من اجتراح ممكنات نواجه بها مثل هذه الطوارئ والتحولات الثقافية بطريقة لاتجعلنا نضعف أمام وهجها ونفكر بمواجهة وتعطيل آثارها العنفية على ثقافتنا.

2-أما التحولات الخارجية فتتمثل بـ:

1-العولمة والهيمنة الثقافية.

2-الغزو الثقافي الصهيوني.

العولمة والهيمنة الثقافية:

وتقوم ادعاءاتها على:

-*إنشاء ثقافة كونية موحدة.*

-*توحيد الحوار العالمي من خلال توليفات فكرية مختلفة (نهاية التاريخ /صراع الحضارات /الطريق الثالث)*

-*عدم الاعتراف بالهويات الثقافية القومية.*

أما عملية مواجهة المؤثرات السلبية فإنها يمكن أن تتم في ثقافتنا العربية على النحو التالي:

-*في البدء رفض الأبعاد العدوانية لثقافة الهيمنة واعتبار ذلك عنف ثقافي لابد من مواجهته.*

-*الدعوة إلى حوار الثقافات بمواجهة صراع الثقافات.*

-*إبراز دور الثقافات القومية في صياغة الوعي العالمي وإثراء التنوع والتعددية والانتباه إلى استيقاظ القوميات في نهاية القرن الحالي وليس موتها.*

الغزو الثقافي الصهيوني:

وهو تحد كبير لثقافتنا في المرحلة الراهنة أصبح يحتل أهمية مميزة بعد توقيع معاهدات الإذعان معه وبعد أن جددت الصهيونية ذاتها بمعطيات "مابعد صهيونية" أسهمت في تضخم وتجدد المطالبة الصهيونية باختراق الثقافة العربية وثوابتها ومفاهيمها الراسخة والنافية للصهيونية فكراً وكياناً وواقعاً من خلال طرح مفاهيم جديدة في إطار الثقافة العربية وإزالة كل آثار العدوان الصهيوني على الثقافة العربية قديمها وحديثها.

وأصبح ذلك يستدعي في الأطر الثقافية إخراج الكيان الصهيوني من دائرة الآخر الذي نسعى للحوار معه، واعتبار الكيان الصهيوني كياناً تأسس على الأسطورة اللاتاريخية -العدوانية- اللاإنسانية والنافية للآخرين.

-عدم تشويه الثقافة العربية بإدراج مفاهيم شاذة في سياقاتها المفهومية فالوطن العربي لايكون شرق أوسطاً والقومية هي الرابطة التي تربط الأمة والوطن العربي ولا تربطه الجغرافيا أو الاقتصاد مجرداً من الهوية القومية.

التوحيد القومي

أما التوحيد القومي فإن التفكير في عناصره يجب أن يقدم كافة المسائل وذلك لأن الوحدة هي إحدى حقائق الوجود العربي الهامة التي يجب أن تتمحور حولها الجهود والمحاولات. لكن التوحيد القومي أصبح يواجه حقائق وتحديات كبيرة الأمر الذي أصبح يستدعي نقد فكرته وتجديد رؤيته وتحويل التفكير فيه إلى برنامج عمل يمهد المسائل أمام الإنسان العربي وعقله من أجل الالتحام به وابتداء لحظة جديدة في تطوره التاريخي.

ونرى الآن مجدداً أن تعثر مشاريع التوحيد القومي كانت بسبب عمليات نفي متعددة خارجية وداخلية.

فالثابت أن النفي الخارجي المتمثل بالاستعمار ودعاته وفكره وفي كافة مراحله كان ولايزال عنصراً جوهرياً في تعطيل وحدة العرب لكنه لم يكن لينجح في مسعاه لولا توفر قابليات داخلية لتعطيل الوحدة.

والآن يأخذ النفي الخارجي للوحدة أطواراً جديدة فهو الآن قضية جوهرية في فكر الغرب وأمريكا وهو موضع استهداف بالإلغاء والإفتاء بإبراز مشاريع جديدة، وهكذا يجدد الخطاب الغربي نفيه للوحدة العربية بإلحاحات ومقولات جديدة تتمثل بالعولمة -وفوق القومية- وموت القومية العربية، واصطناع أطر جديدة لاتقوم على أساس قومي وإنما على أساس اقتصادي أو جغرافي مثل الشرق أوسطية.

وإزاء ذلك فإن أسلوب المواجهة والخطاب القومي لابد أن يأخذ ذلك في الحسبان وأن يطور نظريته وأدواته المعرفية حيث يؤكد حضور الفكر الوحدوي ويجعله عنصراً من عناصر الحضور في الفكر العالمي بالتأكيد على إنسانيته وديموقراطيته ورغبته في تكوين إنسانية جديدة نافية للهيمنة والأمركة.

وأما النفي الداخلي فهو الوجه الآخر للمسألة التي تعيق التوحيد القومي وهو يتمثل بالتجزئة وترسخ وتضخم الدولة القطرية وفشلها في آن واحد في تحقيق أهدافها في التنمية والاستقلال وقبولها بالتبعية والانسحاق بديلاً عن التفكير بالوحدة. وتحقيق التجزئة بهذا الشكل الشاذ والالتباسي أصبح التحدي الأكبر الذي لابد من مواجهته والتفكير في معطياته تفكيراً متجدداً ونقدياً.

التوحيد القومي في المرحلة الراهنة يطرح على الأمة عملية حضارية كبرى تنطوي على

الاجتهاد والتجديد والاستقلال ورفض الهيمنة والتجدد الحضاري وهو سؤال المرحلة الجوهري الذي قد يضعها أمام واقع جديد فيه نقد ونفي وإعادة فك وتركيب وبناء للسؤال القومي بشموله.

■■■

أثر اللغة العربية في اللغة الإسبانية المعاصرة

بقلم: وليم اليوت

ترجمة: الدكتور محمد علي داهش
■ زيدان مال الله محمود الهواس ■

لقد حكم المسلمون جزءاً مهماً من شبه جزيرة أيبريا منذ فتحها عام 711م، حتى سقوط غرناطة عام 1492م. وامتدت رقعة حكمهم لتشمل أراضي أسبانيا والبرتغال الحاليتين. إذ استطاع الحاجب المنصور في عام 997م. فتح (سانتياغو دي كومبتيلا) وهي أكثر المواقع قدسية في أوربا المسيحية. وكان لهذا الامتداد الإسلامي أثر فعال في مجرى تاريخ إسبانيا.وسنحاول في هذه الدراسة أن نلقي الضوء على إسهامات اللغة العربية في تطوير اللغة الإسبانية المعاصرة.

إن أولى تأثيرات اللغة العربية التي تركت بصماتها على اللغة الإسبانية المعاصرة تكمن في أسماء المناطق1-، التي حملت أسماء القادة العرب المسلمين الفاتحين فالجزيرة التي عسكرت فيها أول قوة استطلاعية إسلامية عام 710م سميت باسم قائد تلك الحملة (طريف بن مالك)، كما أطلق على الجبل الذي مرت به قوة الفتح الرئيسية التي دخلت إسبانيا عام 711م، بقيادة القائد العربي المسلم (طارق بن زياد) بقمة جبل طارق،وهكذا أطلقت أسماء عربية على كل الأراضي التي تم فتحها في ذلك الحين. فالأندلس هي الأصل العربي لكلمة أندلوسيا (Andaluci'a)2-. الإسبانية المعاصرة، وتمكن العرب المسلمون بعد معركة حاسمة امتدت سبعةأيام قرب نهر البرباط من بسط نفوذهم على إسبانية الغربية كلها، وفتحت المدن الإسبانية الأخرى أبوابها للعرب المسلمين دون مقاومة3-. وهكذا فإن معظم المدن الرومانية القديمة عاصرت الفتح الإسلامي على الرغم من تغيير أسمائها ويوضح الجدول

التالي التعريب الذي طرأ على بعض الأسماء اللاتينية التي كانت سائدة في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي:

3 . الاسم الإسباني المعاصر	2 . الاسم العربي بعد الفتح.	1 . الاسم اللاتيني قبل الفتح
Cordoba	قرطبة	Cortuba
Cartagena	قرطاجنة	Carthago Nova
Sevilla	أشبيلية	Hispali
Zaragoza	سرقسطة	Caesaraugusta
Valencia	بلنسية	Valetia

على حين بقيت العاصمة الغربية القديمة على اسمها القديم إلى حد ما وهو (Toletum) وهو تصغير للاسم العربي (طليطلة)، الذي أصبح فيما بعد (توليدو)، اسمها المعاصر. أما المدن والمناطق التي أقامها العرب المسلمون الفاتحون.فقد أطلقواعليه أسماءً عربية مثل (الجزيرة الخضراء)، التي اشتق منها الاسم الإسباني المعاصر (Algecirs) و(المرقب)، الذي اشتق منه الاسم الإسباني الحديث (Almeria). واتخذت الظواهر الطبيعية في إسبانيا. كالأنهار، الجبال، أسماءً عربية أيضاً (فالنهر الكبير لقرطبة وأشبيلية)، أطلق عليه بعد الفتح اسم (الوادي الكبير)، الذي اشتق منه الاسم الإسباني المعاصر (Guada lguivir) . وفضلاً عن ذلك فقد اتخذت مجموعة من المناطق أسماءها من أسماء سكانها الجدد من العرب والبربر. مثل (غامق Ghafiiq) في قرطبة و(مكناسة Miknasa)، في (الأرغون Aragon)، كما اتخذت أكثر المناطق في (بلنسية Valencia)، أسماءها من أسماء القبائل العربية التي تسبق عادة بكلمة (بني)، ومن الأمثلة المعاصرة على ذلك (بني دورم Benidorm).

وعامل العرب المسلمون الفاتحون الأندلسيين الذين كان تعدادهم آنذاك ستة ملايين نسمة 4-، معاملة حسنة 5-. ولم يصب الأندلسيين أي حيف ديني أو اقتصادي من جانب العرب الفاتحين. إذا ازدادت أرباح سكان الأندلس بصورة عامة واليهود منهم بصورة خاصة، أثناء الحكم العربي، عما كانت عليه إبان الحكم الغربي. كما كانت الحرية في تكلم اللغات في الأندلس واسعة جداً إبان الحكم العربي، على

الرغم من أن لغة البلاد الرسمية كانت اللغة العربية6-. فقد كانت البرابرة يتكلون لغة خاصة بهم تسمى (الجرابيا Algarabia)7-. على حين تكلم الرهبان المسيحيون اللغة اللاتينية. فانجذب الإسبانيون. بفعل تلك الظروف المرنة إلى الدين الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية، وتزاوج عدد هائل من الأندلسيين مع العرب المسلمين وبدأوا يتكلون اللغة العربية واعتنقوا الإسلام أيضاً.واستعملت كلمة (مولد) التي اشتقت منها كلمة (muladi) للدلالة على الإسباني الذي اعتنق الإسلام. وازداد عدد هؤلاء (المولدين muwalladu'm)، حتى أصبحوا الأغلبية الساحقة في إسبانيا. كذلك استخدمت كلمة (مستعرب)، التي اشتقت منها كلمة (mozarabe) الإسبانية للدلالة على المسيحيين المستعربين، الذين لم يعتنقوا الدين الإسلامي، إلا أنهم انجذبوا إلى النشاطات والمؤسسات الإسلامية. وعد أكثر هؤلاء عرباً.

أن أهم ما جنته إسبانيا من الفتح العربي الإسلامي هو تغيير النظام الإقطاعي الإسباني، على عكس ماكان عليه الحال في أوربا العصور الوسطى في هذا المجال. إذ عمل الاتجاه الإسلامي والسلطة العسكرية المركزية على إزالة أي دافع لدى الإسبانيين للعودة إلى النظام الإقطاعي في الجانب المالي والاقتصادي. وتوضح العبارات الآتية دور العرب المسلمين في تشجيع الزراعة في (أندلوسيا) الخصبة. وعملت هذه القاعدة الزراعية النشيطة على تنشيط الصناعة في المدن الأندلسية. فضلاً عن ازدهار تجارتها في حوض البحر المتوسط، فنزوع العرب لحياة المدن جاءت متساوقة مع رغبة الرومانيين المدنية في إسبانيا8-. وساعدت إسبانيا كثيراً في الابتعاد عن النظام الإقطاعي الأوروبي.

وظهر تأثير اللغة العربية في اللغة الإسبانية جلياً في المفردات اللغوية وأود أن أوضح في هذا المجال ملاحظة عامة، هي أن اللغات عادة تستعير المفردات اللغوية غير أنها لا تستعير قواعدهذه المفردات النحوية من اللغات الأخرى9-. فقد كانت اللغة الرومانية العامية هي السائدة في إسبانيا عام 711م، والتي قواعدها النحوية لاتينية إسبانية محورة، قبل وصول الإسلام إليها. وعمل الاتصال اللاحق بينها وبين اللغة العربية بصورةرئيسة في إغناء المفردات الإسبانية المعاصرة 10-. فالمفردات الإسبانية المعاصرة التي تبدأ بالحرف (a) خير مثال لتأثير اللغة العربية. فقد أوضحت الطبعة التاسعة عشرة لكتاب (Diccionario de la lengua Espanoea) على سبيل المثال، (600) مفردة إسبانية تبدأ بالحرف (a) والتي جاءت مباشرة من اللغة

العربيـة، علـى حين خصـص (دوزي Dozy) فـي كتابـه الموسـوم (Glossaire des Most Espagnol Set Portugais est de'l Arab) (221) صفحة من أصل 375 صـفحة للمفردات التـي تبدأ بـالحرف (a) وهنـاك توضـيح بسيط لهذا الكم الهائـل مـن المفردات التي تبدأ بالحرف (a).

وهو أن أداة التعريف (ال) العربية قد بقت في كثير من حـالات اللغة الإسبانية المعاصـرة. ويجـب أن لا يغيـب عـن بالنـا أن هـذه الأداة العربيـة تحـور عنـدما تـرتبط بكلمـة تبـدأ بحـرف شمسـي سـاكن.ومازال هـذا القـانون منعكسـاً فـي اسـتعارات اللغـة الإسبانية. وهكذا فمفردة (الربض)العربيـة قد انتقلت إلـى الإسبانية لتكون (arrabal) وليس (al rabal) على حين لم تتغير أداة التعريف العربيةالاعتيادية عندما استعملتها اللغـة الإسـبانية فمفـردة (المخـدة)، قـد أصـبحت فـي الإسـبانية (almohada) ولـيس (ammohada). حتـى أن أداة التعريـف العربيـة قد سـاعدت اللغـة الإسبانية فـي اتخـاذ أداة للتعريـف (فـي حالـة المـذكر فقـط). وهكـذا فقـد انتقلـت الأداة العربيـة (الـ)، إلـى الإسـبانية بطريقـة غيـر مباشـرة إلـى الأداة (el)، وهـذا التطـور فـي الأداة قـد جـاء مـن الأداة اللاتينيـة (ille) مـن خـلال تقويـة الأداة الإسـبانية (el) بوسـاطة الأداة العربيـة (الـ).

وبناءً على ما تقدم فقد اتخذت بعض الأسماء الإسبانية المذكورة أداتين من (الـ) التعريف مثل مفردة (al atarde) الإسبانية والتي تعني (العرض) العربية، وتعني لغوياً (العرض العسكري)، فالأداة الأولـى هـي المفردة الإسبانية تمثل الجانب النحوي علـى حين تستعمل الثانية لأصل المفردة وتاريخها (الاتيمولوجيا). ويقال الشـيء نفسه عن أداة التـذكير فـي اللغـة الإسـبانية مثـل (un alarde) التـي يمكـن أن تعنـي (العـرض العسـكري) أيضــاً... وإذا مــا تجاهلنــا هــذه التناقضــات الأكاديميــة، فــلا يوجـد أي اضطراب في اللغة الإسبانية المعاصرة.

يتضــح ممــا تقـدم أن الأغلبيــة العظمــى مـن المفـردات الإسـبانية المشـتقة أو المأخوذة من اللغة العربية، هي مفردات تبدأ بـالحرف (a) وهكذا فمن الضـروري ذكر هذه المجموعـة مـن المفردات الإسبانية التـي استعارتها من اللغـة العربيـة، فمـن بـين 640 مفردة إسبانية تبـدأ بـالحرف (a) فـإن التصـنيف التقريبـي للمفردات المشتقة هو كما يأتي:

1 . المصطلحات الزراعية /225/مفردة.

2 . المصطلحات العلمية /65/ مفردة.

3 . المصطلحات المعمارية /50/ مفردة.

4 . المصطلحات الرسمية والعسكرية /50/ مفردة.

أما ماتبقى من الاشتقاقات فيتعلق بشكل واسع بشؤون العادات الإسلامية، والدين، والتاريخ، والملابس، ومن الأمثلة هذه الاشتقاقات مفردة (adarme) الإسبانية التي تعني (الدرهم)، بالعربية، و(ajedrez) التي تعني (الشطرنج)، و(God) التي تعني (الله)، و(alborbola) التي تعني (الولولة)، والـ(albornoz) وتعني (البرنس)، والـ(alchuete) وتعني (القواد)، والـ(algoritmo)، وتعني الخوارزم ويعنون بها الرياضيات.

لقد كيّف الإسبانيون المسلمون أنفسهم للروح الأندلسية المحلية. واستمروا على حساسيتهم من الارتباط بالزراعة وازدهار الحياة المدنية.وهكذا فإن تشجيع العرب المسلمين للزراعة كان وراء هذا العدد الهائل من المصطلحات الزراعية العربية في اللغة الإسبانية، وبصورة خاصة في مجال الري وتطويره والاختراع المستمر في هذا المجال. ويوضح الجدول الآتي بعضاً من المفردات المتعلقة بالشؤون المختلفة في مجال الري:

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنكليزية
السانية	Acéna	Water – Wheel
الساقية	Acequia	Irrigation Canal
الدور على الماء	Ador	One's Turn for Water
الدّف.	Adufe	Sluice
الأصل العربي للمصطلح	**الاشتقاق الإسباني**	**المصطلح باللغة الإنكليزية**
البركة	Alberca	Depository for Water
البحيرة	Albuhera	Water reservoir
القادوس/ القادس(أنبوب الماء).	Arcaduz	Water pipe
الجب	Alchub or Aljibe	Well
الماء (الماء بالدور)	Alema	Water By turn

Rushing spring Water	Alfaguara	الفوارة (النافورة).
Canal	Almenara	(المنارة).
Drain Or Sewer	Atarjea	(الترعة). (محل تصريف الماء)
Dam With Water - Weel	Azud	السد

كانت المحاصيل الزراعية في إسبانيا كثيرة، إذ ازداد استهلاك النباتات النجيلية (الحبوب)، وحظي القمح من بينها بأهمية كبيرة. كما قد اتسعت زراعة الزيتون. الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم aceituna. بدرجة كبيرة. وسرعان ما ازدادت أهمية زيت الزيتون سواء للاستهلاك المحلي أو للتصدير الخارجي. وأخذت زراعة الكروم واستخراج الخمور بالاتساع متناسين تحريم القرآن الكريم لعملية استخراجها. وكذلك إدخال العرب زراعة الرز إلى إسبانيا، الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم (arroz) وزراعة قصب السكر 11-، وازدهرت زراعة هذين النباتين في إسبانيا نتيجة لأنظمة الري المتقدمة. كما زرع العرب المسلمون الزهور الجميلة التي تنتج الزعفران، الذي أطلق عليه الإسبانيون اسم (azafr'an) 12-. ونرى في مجال الاقتصاد الأندلسي أن الصناعة التي تعتمد على المحاصيل الزراعية كمادة أولية، مهمة جداً، ومن الأمثلة الجيدة على ذلك الكتان والقطن 13-، والحرير وأعشاب نبات الحلفا. كما أصبحت تربية الدواجن من النشاطات المهمة، فضلاً عن عنايتهم بالخيول والأغنام والماعز والحمير والماشية والدجاج والنحل. وتوضح المجموعة الآتية من المفردات المبتدأة بالحرف (a)، أهمية الزراعة بالنسبة للمسلمين في إسبانيا.

المصطلح باللغة الإنكليزية	**الاشتقاق الإسباني**	**الأصل العربي للمصطلح**
Seed or Grin	Albarroz	حب الرأس
Raisins or Pruns	Acebibe	الزبيب
Olive Oil	Aceite	الزيت
(Beta Vulgris) Type of Spinach	Acelga	السلقة
Very White flower	Acemite	السميد (زهور بيضاء) (نخالة مع طحين).

الزعرورة (أشجار فاكهة).	Acerola	(mespilus Azerolus) Atype of fruit tree
عدسة	Adaza	Lentil
الجلجلان (السمسم).	Ajonjoli	Sesame
البقارة (زريبة الأبقار).	Albacara	Place for cows
الباكور (شجرة التين).	Albacor	Fig
البيض	Albaire	Eggs
البندقة	Albondiga	Meat - Ball Cmade The Size of ahazelnut
الخرشف	Alcachofa	Accichoke
الفصفصة (نبات)	Alfalfa	Alfalfa
المعصرة(معصرة الزيتون)	Almazara	Olive oil press
اللوبياء	Alubia	Green bean

لقد تميزت الحضارة الإسلامية باستعمالها معرفة وعلوم الشعوب التي فتحت بلدانها. وأدت هذه الميزة إلى اندماج مافي الحضارات الهندية والفارسية واليونانية في الحضارة الإسلامية. ونتيجة لهذا الاندماج فقد حصل التزاوج مع تلك الشعوب، إلا أن الأمرين الذين لم يتأثرا في بودقة انصهار الأجناس. هما الدين الإسلامي واللغة العربية، (فالحضارة العربية الإسلامية هي في الأساس مزيج من الحضارات اليونانية والآرامية والفارسية [كان للأقوام العربية القديمة (الساميين)، التي انطلقت من شبه الجزيرة حضارة راقية في مختلف المجالات (اليمن) وهذه الأقوام بهجرتها الستة هي التي ضمّت فيما بعد حضارات وادي الرافدين ووادي النيل منذ الستة آلاف عام التي سبقت الميلاد، وجاءت الهجرة السابعة، الهجرة العربية الإسلامية لتتضح أكثر حضارة جديدة قدمها العرب إلى العالم. وفي هذه الفترة ومن منطلق (حوار الحضارات)، تم التفاعل مع معطيات الحضارات الأخرى، أي أن الحضارة العربية كان لها أصالتها وشخصيتها المميزة قبل أن تلتقي مع حضارات الأقوام الأخرى، وتأخذ منها أو تصحح لها أو تضيف جديداً، مكنها من أن تكون الأرضية التي استندت عليها حضارةأوربا، منذ القرن الثاني عشر الميلادي باعتراف العديد من المستشرقين المنصفين، (المترجمان)..]، والتي تم تطويرها في أسام الخلفاء وانتشرت بوساطة اللغة العربية 14-، وبغض النظر عن مثل هذه النماذج. فإن العرب قد أسدوا خدمة كبيرة للإنسانية من خلال إسهامهم الفعال وفهمهم للحضارات، فالعرب هم أول من وضع علوم المثلثات والجبر والهندسة التحليلية، فضلاً عن إسهاماتهم العظيمة في مجال الفلسفة والدين والطب والعلوم. فقد نجح العرب المسلمون، ولأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني في التوفيق بين مسألة التوحيد (الإيمان بالله الواحد). والفلسفة اليونانية الذي هو أعظم إنجاز للعالم (الهندو أوربي)، وهكذا انقاد المسيحيون الأوربيون لوجهة النظر الجديدة التي وضعها العرب المسلمون15-.

لقد كان فتح إسبانيا فتحاً ثقافياً فضلاً عن كونه فتحاً عسكرياً، إذ جابه سكان إسبانيا الأصليون حضارةعالية سرعان ما ارتاحوا لها وتبنوها. فقد أعطى الإسلام للجانب الفكري في الأندلس أكثر مما أخذ منه. فما إن استلم الخليفة عبد الرحمن الثالث الخلافة سنة 929م، حتى أصبحت قرطبة المدينة الرئيسة في أوربا في الجوانب الفكرية والعسكرية دون منافس. ووصلت الإنجازات العلمية والأدبية والفنية ذروتها في قرطبة على عهد الخليفة "الحكم الثاني" إذ كان محباً كثيراً للكتب وجمعها. بل وقيل أنه كوّن أعظم مكتبة في زمانه احتوت على 400.000 كتاب. حتى أن الانحلال السياسي للخلافة في قرطبة لم يؤثر في تطور الحياة الفكرية أو يبطئها في الأندلس. إذ لم تستمر الممالك الصغيرة 16- الناتجة عن الانحلال السياسي للخلافة. على الحفاظ على الحياة الفكرية فحسب. بل عملت على زيادة وتعزيز القيادة الفكرية الإسلامية في إسبانيا. وولد التنافس السياسي بين ملوك الطوائف تنافساً فكرياً. فبلاطات ملوك الطوائف كانت تتنافس فيما بينها لافي الغنى والثروة فحسب. بل أنهم تنافسوا فيما بينهم بعدد وشهرة العلماء الموجودين في هذه البلاطات. كما أن هذه الممالك قد مثلت أيضاً جزءاً من القيود الفكرية التي فرضها فقهاء المذهب المالكي من قبل. وكانت النتيجة ركوداً أدبياً ساد القرن الحادي عشر الإسلامي في إسبانيا وكانت الثقافة الإسلامية في الأندلس سبباً رئيساً في تعلم الفلسفة الإغريقية التي سادت عموم أوربا في القرن الثاني عشر17-.

وفي ضوء ما تقدم فلا كثير، القائمة الآتية من المصطلحات العلمية العربية الموجودة في اللغة الإسبانية. أي دهشة، كما أننا نرى أن مفردات الجدول الآتي تبدأ بالحرف (a).

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنكليزية
البلوري	Abalorio	Crystalline
حب المسك	Abelmosco	Musk Seed Abelmosk
السموت جمع سمت	Acimut	Azimuth
آخر نهر	Achemar	Astar in the constellation Eridanus
العقرب	Alacr'an	Acorpion
الانبيق	Alambique	Alembic or Beaker

البرص	Albarazo	Leprosy
البياض	Albayalde	Lead carbanal used in white paint
القالي	Alcali	Alkaline
الكافور	Alcanfor	Camphor
الكحول (الغول).	Alcohol	Alcohol
الكرة	Alcora	Sphere
الكبريت	Alcrebite	Sulfat
الفالجية	Alfereclia	Hemipleaia - Aparalytic disease of infancy
الخفقان	Algafacan	Heart Palpitation
اليرقان	Aliacan	Jaundice
الأصل العربي للمصطلح	**الاشتقاق الإسباني**	**المصطلح باللغة الإنكليزية**
الجوهر	Aljofar	Pear (Arabic root meant Jewel or gem)
المغرة	Almagra	Iron Oxide
المناخ	Almanaque	Almanac
النشادر	Almohatra	Ammonia Salt
الكيمياء	Alquimia	Alchemy
عنبر	Amber	Ambergris or ambar
الأتون	At'un	Tune (Arabic root is from Latin Thunnus - from a Greek Original
لازورد	Azul	Blue (Arabic from Persian Laza Ward The Precious Blue Stone Labislazuli

يتبين من الجدول أعلاه مدى التأثير الكبير للعلوم اليونانية الإسلامية في العلوم الأوربية، كما هو موضع أعلاه فإن الكثير من المصطلحات قد وجدت طريقها إلى اللغة الإنكليزية مع تحوير قليل أو دون تحوير. ومن الأمثلة على ذلك المصطلحات الآتية:

(آزموث Azimuth)، و(القلاين Alkaline) و(الكافور Camphor) و(الكحول Alcohol)، و(الكيمياء Alchemy)...... الخ.

ولم ينج فن العمارة من التأثير الإسلامي في إسبانيا حاله في ذلك حال بقية معالم الحضارة التي تأثرت بالحضارة الإسلامية، وفن العمارة في إسبانيا يمثل نوعية فريدة في توليف التأثر. والنتاج الرئيس للمرحلة المبكرة من تاريخ الخلافة الإسلامية في إسبانيا هو (جامع قرطبة العظيم)، فبينما تظهر أقواسه التي على شكل (حدوة الفرس)، التأثير القوطي، فإن وجود الأقواس الثنائية الموضوعة في الأماكن العالية فريدة من نوعها في جامع. وربما هي مأخوذة من الطريقة الرومانية في البناء التي دخلت إلى إسبانيا من خلال قنوات متعددة. أما التأثيرات اليونانية فواضحة بالإضافات المعمارية التي أدخلت فيما بعد على جامع قرطبة، كما أنه واضح في بناء مدينة (الزهراء Az-zhara)، ومن هذا نستدل أنه ربما استعان الخليفة عبد الرحمن الثالث من بعده الحكم الثاني بالحرفيين البيزنطيين في أعمال هذه المشاريع، فالمنارة المربعة الشكل التي أضافها الخليفة الأندلسي الأول إلى الجامع الكبير ماهي إلا استمرار للفن الأموي في سوريا. وفي الوقت نفسه، فإن الكثير من التأثيرات الفنية كانت مأخوذة من الخلافة المنافسة التي كانت قائمة آنذاك في بغداد، وبعد سقوط الخلافة الإسلامية في إسبانيا كان هناك استمرار لفن العمارة العربية إلا أنها لم تكن سوى إضافات تراثية أكثر منها ابتكارات. فالحرفيون المهرة الذين كانوا يعملون على تنفيذ رغبات الخلفاء إبان الخلافة الإسلامية قد أصبحوا الآن ذوي مراكز حساسة في دول ملوك الطوائف18-.

وقد تبنت دولة المرابطين، التي أعقبت دولة ملوك الطوائف، فن العمارة الإسبانية واستخدمت الحرفيين المهرة في مشاريع البناء في شمال إفريقيا. وقد أدى التمسك الديني لدولة (الموحدين) إلى الوقوف ضد الزخرفة. وقد انتهت بعض أعمال المرابطين السابقة. وتميزت آثار أعمال دولة الموحدين بالبساطة والعظمة، مثل مئذنة جامع إشبيليا، وبرج الذهب (Le Torrede Oro) التي ما زالت قائمة في إشبيليا. ويظهر التأثير البيزنطي على العمارة لدولة الموحدين في المباني العسكرية. ومن نتائج الفتح الإسلامي لإسبانيا بناء (المدجنين Mudejar)، وهو فن يمثل التوليف العجيب للعناصر الإسلامية والمسيحية ويمثل القصر في إشبيليا من أعظم نتائج فن عمارة المدجنين 19-، وكانت نتيجة نهاية إسبانيا الإسلامية مايطلق عليه اسم (الفن الغرناطي). وهذه الفترة المغلقة أفتقرت إلى الابتكارات إلا أنها وصمت بالمكافحة من أجل الحرفيين المهرة، كما أنها تميزت بالجمال الهش الرقيق لـ(حمراء غرناطة).

ويبين الجدول الآتي بعض المصطلحات الإسبانية في فن العمارة التي اشتقت من اللغة العربية.

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنكليزية
المسمار	Abismal	Nail
الدرجة	Adaraja	Step or Stair
الطوب	Adobe	Brick
الدكان	Adoqu'in	Cut Building Stone (Arabic root "shop")
الشميس	Ajimez	Arched Window
الأصل العربي للمصطلح	**الاشتقاق الإسباني**	**المصطلح باللغة الإنكليزية**
الشوار	Ajuar	Mached Furniture
البناء	Albanil	Construction Worker
البرادة	Albarrada	Stone Wall
القنطرة	Alc'ntara	Bridge Arch
القبة	Alcoba20-	Alcove (Arabic root = "Dome")
الضبة	Aldada	Door - Knocker
الفرة	Alfardo'n	Hexagonal tile
القسمة	Alfe'izar	Empty Space
الهماء	Alhami	'Stone Bench
العضدة	Alidada	Carpenter's rule
المنارة	Alminar	Minaret
الرباع	Arraba	Architectural Adornment
اطار	Ataire	Door or Window Frame
التوريق	Ataurique 21-	Arabesque
الزليج	Azulejo	Floor or Wall tile

لقد استمر الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا حقبة طويلة. وأدخل العرب حضارة متقدمة إلى بلاد الأندلس وخاصة في الشؤون الحكومية. فسكان البلاد

المفتوحة المسيحيون قد تعلموا الشيء الكثير من العرب المسلمين في الشؤون الرسمية والعسكرية؛ ومن المعقول جداً أن أكثر ما استعارته اللغة الإسبانية كان في هذه المجالات. كما سيتبين من الجدول الآتي:

الأصل العربي للمصطلح	الاشتقاق الإسباني	المصطلح باللغة الإنكليزية
الصائفة	Aceifa	Summer Campaign
الدليل	Adalid	Military Guide
الدرقة	Adarga	Leather Shield
الديوان	Aduana 22-	Customs
الأصل العربي للمصطلح	**الاشتقاق الإسباني**	**المصطلح باللغة الإنكليزية**
الفريد	Alarido	War - Cry
البند	Albenda 23-	Flag or Banner
القائد	Alcaide	General or Chief
القاضي	Alcalde	City mayor (Arabic root = "judge")>
القصبة	Alcazaba	Stronghold
الخنجر	Alfanji	Type or saber
الفارس	Alferez	Cavalryman
القرادة	Algarrada	Stone Catapult
الوزير	Alguacil 24-	Minister of official
الجعبة	Aljaba	Case for Arrows
أمير	Almirante 25-	Admiral
المشرف	Almojarife	Customs inspector
المحتسب	Almotace'n	Inspector of Weights and Measuers
أمان	Ama'n	Amnesty or safe - conduct
دار الصناعة	Arsenal	Arsenal

ومفردة (المحتسب Almotace'n)، المذكورة في الجدول السابق تبين التأثير الفعال للعرب المسلمين في اللغة الإسبانية والشؤون الإدارية كما كانت تلفظ كلمة

(المحتسب Almotace'n)، بلفظ (Zabazoque) المأخوذة من المفردة العربية (صاحب السوق). وكان صاحب السوق (sahib as - suq) شخصاً يتمتع بمركز رسمي يقوم بتنفيذ (الحسبة hisba)، وهذا النظام هو نظام إسلامي مرادف لنظام حماية المستهلكين الحديث عن طريق توفير السلع بأسعار مناسبة. كما أن اصطلاح (mercado publico) الإسباني المعاصر . (والذي يلفظ أيضاً Souk أو Zoco، المأخوذ من اللفظ العربي suq)، . مدين بأصله للعرب المسلمين، حتى منصب رجل الشرطة الذي يسوي الأمور التجارية في الأسواق مشتق من منصب (صاحب السوق Sahib as - suq).

لا يمكن تحديد التأثير البايولوجي للغة في لغة أخرى تحديداً دقيقاً: وهكذا الحال بشأن تأثير اللغة العربية في الإسبانية، فالإسبانيون عموماً يحكمون مسبقاً على علاقات غامضة، لكنها واضحة من الناحية اللغوية. وبغض النظر عن الصعوبات التي حفت هذه العلاقة فمن المسلي جداً أن نختبر آثار اللغة العربية المتبقية في الشخصية الإسبانية، فسيكشف مثل هذا الاختبار حتماً بعض التناقضات الظاهرية خاصة في مجال التاريخ، ففتح العرب المسلمين لإسبانيا دام حقبة طويلة، ومع ذلك فقد اتسم بعدم ثبات ملائم. وقد اعتنقت الأغلبية الساحقة من سكان إسبانيا المسيحيين الدين الإسلامي بعد فتح بلادهم مباشرة؟ وبعد استمرار الفتح أخذ المسلمون الإسبانيون بالعودة إلى المسيحية تدريجياً، وقد ترتب على هذا أن إسبانيا المسلمة مثلت حالة فريدة من علاقة الحب والكراهية بين المسلمين والمسيحيين، وحالة لوضعية متقلبة وغامضة من المقاومة والقبول، وهكذا نرى الإسبانيين اليوم يستعملون ازدواجية غريبة في لغتهم المعاصرة. فاللعنات المخيفة والبركات المريحة في اللغة الإسبانية غالباً ما تبين آثار اللغة العربية فاللسان الإسباني ينطلق بها بسهولة مساوية للسان العربي: ومثال على ذلك عبارة (ioj'ala)، التي تعني بالعربية (وشاء الله)....الخ.

يعد الإسبانيون بصورة عامة الإسباني (وخاصة الطفل الوليد) الذي لم يعمد كمسيحي، مسطحاً، وذلك بقولهم عبارة (Esto - davia un moro) التي تعني بالعربية (أنه لا يزال مسلماً). أو عبارة (Es muy moro)، التي تعني (إن عربي مغربي). ويمكن أخذ هذه المسألة كمدح في المجتمع الإسباني القائم على النظام الأبوي أي الرجل هو المسؤول، في الإشارة إلى غيرة الرجل ورجولته ومواقفه البطولية في

المسائل الخلقية.

يتبين مما ذكر أعلاه أن أوثق العلاقات بين اللغة العربية والإسبانية قائمة على أساس الدين. ومن المؤكد أن عبارة الحرب المقدسة (Holy - War)، قد وجدت في الإسبانية بعد فتح العرب المسلمون إسبانيا، فهي مأخوذة من مصطلح (الجهاد jihad)، العربي الإسلامي. وثبت تاريخياً أن هذه الروح الصليبية المتولدة هي التي أدت إلى سقوط غرناطة، وإلى اكتشاف واكتساح العالم الجديد، وإلى ظهور المحكمة الإسبانية الكاثوليكية. كما أن العدوان التعصبي الكاثوليكي (El Santo oficio) كان نتيجة متزامنة وبدرجة ما للإسلام. ورد الفعل الذي جوبه به الدين الإسلامي في إسبانيا. إن إفراط المحكمة الكاثوليكية تبين ببساطة إساءة استعمالهم لمبادئ أسلافهم المسلمين، وعلى الأخص فقهاء المالكية في قرطبة. ومع نهاية القرن السادس عشر رحل الإسلام نهائياً عن شبه الجزيرة الإسبانية، إن المسلمين قد رحلوا فعلاً عن إسبانيا إلا أنهم قد تركوا آثاراً من المتعذر إزالتها من الحضارة واللغة الإسبانية، فالتوجه الديني الإسباني نحو الشرق جدير بالشرح والتوضيح. ففي اللغة الإسبانية الكثير من التعابير المتعلقة بالله سبحانه وتعالى، شبيهة إلى درجة ما بالتأكيد للفظة الجلالة (الله) في اللغة العربية. فلفظة التعجب الإسبانية (alal) على سبيل المثال مدينة كثيراً في اشتقاقها وحيويتها باللفظة العربية (الله). كما أن هناك عدداً كبيراً من التعابير الإسبانية التي لا تبين اتصالاً لغوياً مباشراً مع اللغة العربية، إلا أنها تبين تشابهاً كبيراً لروح الإسلام وعلى الأخص لفظة (الله Allah)، ومن هذه التعابير مايأتي:

المعنى باللغة العربية	التعبير باللغة الإسبانية
الله يحمينا	Dios nos Guarde
بالله!	I vaya por Dois !
أوه يا الله!	!Ay - Dios
إذا شاء الله	Si Dios quiere
إن الله يضغط ولا يشنق	Dios a prieta - Peroyno ahoga
سيعطينا الله	Dios Dara'
كما أمر الله	Como Dios Manda
ياربي!	IDios mio !
بالله	I Por Dios

Permita Dios	الله يعطيني

ويستخدم الغجر الإسبانيون العبارات الآتية للتعبير عن اللعنة، مثل:

Ipermita Dios que to hospitalizen !	الله يعطيني بأن يجعلك تمرض
Si quisiera Dios	إذا شاء الله فقط
Lva ' lgame Dios	بالله (وتعني حرفياً أسعفني الله) تستعمل للتعبير عن الدهشة وعدم الراحة.
Vaya Con Dios	اذهب رافقك الله
Adio's	في أمان الله

■■

■ هوامش البحث:

1 . *إن أحسن اختيار للمناطق الإسبانية ذات الأسماء المشتقة من اللغة العربية أخذت من دائرة المعارف الإسلامية ومن المعلومات الواقعة تحت مادة الأندلس.*

2 . *الأسماء المختلفة التي أعطاها المسلمون لما يُسمى اليوم شبه الجزيرة الإسبانية كانت سلبية جداً. فمصطلح (الأندلس)، ربما يكون مشتقاً من (أندلوش Andalosh)، وهي بقايا (فاندلوسيا Vandalocii)، مقاطعة (الفاندلس Vandals)، أطلقت أولاً على المناطق المحيطة بـ(طريف Tarifa)، والتي امتدت مباشرة لتشمل جميع شبه الجزيرة الإسبانية. كما استعمل العرب المسيحيين الشماليين اسم (إسبانيا Hispania) للأراضي التي شملها الفتح الإسلامي وهذه اللفظة تستعمل للتعبير عن أراضي إسبانيا. أما مصطلح أندلوسيا المعاصر فيستخدم للإشارة إلى المقاطعات الجنوبية فقط.*

3 . *لقد أثارت سهولة الفتح الإسلامي لإسبانيا نقاشات كثيرة بين المؤرخين. فالدفاع عن الفتح يذكرنا ببقاء المسيحيين الذين كانوا في الشمال الغربي من إسبانيا. ومن ناحية أخرى، فقد أكدت الحضارة الإسلامية على الفتح المبكر وقدرة الإسلام في الانتشار السريع. وهناك حكايات شعبية كثيرة تشير أكثر مما تعمل على تحليل التاريخ وأكثر التعليلات وضوحاً هو أن سبب فتح إسبانيا بسهولة عائد إلى رغبة أهلها بذلك الفتح. إساءة القوطيين جعلت الإسبان ينظرون إلى العرب المسلمين كمنقذين من تعسف القوطيين. وقد أضعف النزاع الداخلي القوطيين فلم يستطيعوا الثبات في المعركة التي وقعت قرب نهر البرباط.*

4 . *إن هذا الرقم التقريبي قد أخذ من كتاب ((التاريخ الاقتصادي لإسبانيا ص 103)).*

5 . *عُرف أهل البلاد المفتوحة في الإسلام بأهل الذمة وكانوا يدفعون الجزية. إلا أنهم لم*

يُجبروا على اعتناق الإسلام. ولقد حظي المسيحيون واليهود وهم أهل الكتاب باهتمام كبير من جانب المسلمين، وقد منحوا استقلالاً دينياً وسياسياً.

6 . إن مفردة (Aljamia) الإسبانية مشتقة من مفردة (العجمية)، أي اللغة غير العربية وينطبق هنا على الإسبانية والرومانية.

7 . مفردة (Algarabia)، الإسبانية هي الترجمة الحرفية للكلمة العربية والتي تلفظ بالإسبانية المعاصرة ((Arabic)) ولكلمة Algarabia خمسة معانٍ . انعكاس الإرباك الحاصل نتيجة الكلام العربي والبربري وهذه المعاني هي: 1 . اللغة العربية، 2 . لغة أو ماده غامضة، 3 . لفظ ضعيف، 4 . الصياح المرتبك للكثير من الناس، 5 . Aeveb.

8 . انظر حسين مؤنس La Division polit'ico - Administrativea de La Espana كما اعترض الباحث الإسباني الكبير Claudio Sa 'nchez في كتبه الثلاثة على النظام الإقطاعي.

9 . البرت. سي. بوك. تاريخ اللغة الإنكليزية، ص 200.

10 . توضح أداة التعريف العربية أحياناً قبل المصطلح اللاتيني كلمة جديدة في اللغة الإسبانية، فكلمة (Albarsa)، (وتعني سلة السماك أو شبكة) على سبيل المثال، مشتقة من ربط أداة التعريف العربية (الـ)، والكلمة اللاتينية (bursa) وتعني (حقيبة)، إلا أن مثل هذه الكلمات الهجينية لم تؤخذ مباشرة في هذه الدراسة.

11 . تلفظ مفردة Sugar بالإسبانية azucar مشتقة من اللفظة العربية(سكر)، ومن المحتمل أن أصل الكلمة هندي، كما يوضح دوزي، ويقول أيضاً أنه ربما تكون لفظة السكر العربية مشتقة من اللفظة الفارسية ((شكر)) كما أن الكلمة قد انتقلت إلى اللغات الأوربية كما هي بدون تغيير فتلفظ بالألمانية zuclser وفي الفرنسية sucre.

12 . الزعفران Saffrqn كان من الصادرات المهمة جداً في زمن المسلمين ولا يزال يتمتع بالأهمية نفسها في اسبانيا المعاصرة. وبالحقيقة أن الزعفران يعتبر من المواد الثمينة جداً.

13 . القطن كالسكر قد أصبح مألوفاً وذا استعمال عالمي فهو مصطلح في أوربا وقد أخذته اللغات الأوربية من اللفظة العربية (قطن)، وقد وجدناها في الإسبانية تلفظ algodon وفي البرتغالية algodao أما اللفظ الإنكليزي فهو cotton واللفظ الفرنسي cotton أيضاً.

14 . فيليب حتي، تاريخ العرب ص 722.

15 . المصدر نفسه، ص 381-382.

16 . هذه الممالك الصغيرة عُرفت عند العرب باسم ملوك الطوائف ومعناها الحرفي (ملوك دول صغيرة)، أما Muluk tawa فهي مصطلح إسباني وتعني Reyes de Taifas رئيس طائفة.

17 . لقد كان لمدينة توليد تفوقاً فكرياً خلال القرن الثاني عشر، فقد أصبحت تحت سيطرة المسيحيين سنة 1085. ولم تتبع تقاليد العرب في البحث مطلقاً، وأهم ماكان موجوداً في توليد مدرسة الترجمة حيث إنها قد ترجمت الكثير من الفلسفة إلى الإسبانية والعربية وعبرتها إلى أوربا أثناء العصور الوسطى.

18 . خير مثال علىفن العمارة أثناء حكم ملوك الطوائف هوآثار الـAljaferia of Zanegoza.

19 . المصطلح الإسباني mudejar ((الذي يترك في الخلف))، مشتقاً من المصطلح العربي ((مدجن)). والـMudajjan هو المسلم الذي فضل البقاء والعيش بين الغزاة المسيحيين، والمصطلحان العربي والإسباني يعطيان المعنى نفسه.

20 . دخلت لفظة ((Alcoba القبة))، معظم اللغات الأوربية الحديثة، فعلى سبيل المثال، تلفظ في الإيطالية "Alcova"، وفي الفرنسية "Alco've" وبالإنكليزية Alcove.

21 . التوريق يعني حرفياً ((تصميم الزهور)) في فن العمارة وقد أطلق عليها لفظة arabesque، ودخلت هذه اللفظة اللغة الإنكليزية في القرن السابع عشر عن طريق اللفظة الإيطالية Arabesco والمشتقة من اللاتينية Arabustesco والتي تعني على الأغلب العرب.ولقد اعتمدت فيما بعد باللغة العربية الحديثة كـ(الأرابيسك)، وهي تعني فعلياًمرادفها العربي التقليدي ((التوريق)).

22 . يقابلها بالإسبانية (aduana)، والإيطالية (dogana) وفي البروفانسية doana وفي الفرنسية (deuane).

23 . لا توجد علاقة بين مفردة albenda ومفردة Bandera؛ مفردة إسبانية أخرى تطلق على العلم، و bandera قد تم اشتقاقها من المفردة القوطية bando.

24 . الـAlguacil تستخدم في الوقت الحاضر كمصطلح للموظف الذي يعمل في حلبة المصارعة للثيران، إنه فارس يرتدي الملابس متعددة الألوان والذي يكافئ مصارع الثيران الناجح.

25 . يقابلها في اللغة الإسبانية (almirante) وفي اللغة الإيطالية almraglio، وفي اللغة البرتغالية amirah وفي الفرنسية amiral، وفي الإنكليزية adniral.

❑❑❑

من جانب الأثر الإبداعي

النقد البنيوي لـ آن مورال

ت: د. نعمات عيسى

عن كتاب:

ANNE MAUREL

La critique, Collection, Contoure Littéraires, sous la direction de BRUNO VERCIER. Paris, 1994.

لم يستطع النقد الأدبي لسنوات 1960 التملص من التيار البنيوي العام والذي بسط نفوذه على كل العلوم الإنسانية. وهو يفكر سنة 1963 "في بعض الملامح الجديدة للنقد الأدبي الفرنسي" (مقال صدر في مجلة le Francais dans le monde) استطاع Jean pierre richard أن يؤكد:

كل النقد الحديث بنيوي، وهو -أي النقد- يعتقد كما تعتقد في نفس الوقت اللسانيات، والتاريخ والأنتربولوجيا.. أن الجزء- وهو هنا جملة، صورة، فكرة مقتطفة من الأثر الأدبي- لا يمكن أن يفهم إلا إذا وضع في علاقة مع الكل الذي ينتمي إليه، والكلّ في حدّ ذاته أكبر من مجموع أجزائه بل يمثل بالنسبة لها الأفق، المحصّلة.

يبدو الفرق واضحاً بينا بين نقد "شكلي" Formaliste أو نقد "بنيوي" structuraliste يعتبر الأثر كشيء مستقل عن الفاعل أو المؤلف الذي أنتجه. طبقت الإنتقادات التأويلية جميعها قراءة بنيوية للأعمال وما تزال مستمرة على هذا النحو – في أغلب الأحيان باستثناء النقد التيمي thématique في البحث عن الأصل أو السبب خارج حياة المؤلف، ويحاول "الشكلانيون" خلافاً لهذا كشف وعزل سرد الأثر في التحليل الأوحد الداخلي لأشكاله وبنياته. يهملون أصله وكل ما يربطه بالعالم

والتاريخ بوصف خصائصه الشكلية الظاهرة: الارتباطات، التكرارات التناظر بين الأصوات والكلمات أو الفصول. ومن الآن فصاعداً يقبض على معنى الأثر في العلاقات الداخلية لمكوناته أي في العلاقة لا في المرجعية.

المقاربة البنيوية [...] تمنعنا من مغادرة العمل الإبداعي المنجز للبحث وراءه من التجربة النفسية السابقة [...] واليوم تبعاً لإزدواجية التقليد التي تميز بين الفكر والتعبير تلي وتخلف لتيار البنيوي أحادية أو واحدية الكتابة J. starobinski.

تم تأسيس النقد البنيوي من قبل الشكلانيين الروس في سنوات العشرين 1920 وتكمن جذور هذا النقد في الفلسفة التي ظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر مؤكدة استقلالية الأثر الفني عن العالم.

منح تطور اللسانيات البنيوية التي أسّسها ferdinand de saussure فردينانددي سوسير، بعد ذلك، الوسائل النظرية الناجعة والتي مكنت من إزدهار النقد البنيوي.

الأسس الجمالية للنقد البنيوي: فلسفة العمل الفني- شيء.

"المطلق أدبياً"

انفصل الأدب في القرن 19، عن العالم الخارجي، (كما يبينه تحليل دومينيك كومب Dominique combe للنظريات الجمالية المتعلقة بالرومانسية الألمانية في مؤلفها الأجناس الأدبية، سلسلة contours litteraire دوائر أدبية hachette 1992).

لاحظت الرومانسية الألمانية من خلال دعوة novalis موت الأجناس الأدبية تلك "الأشكال المقبولة عالمياً". لم يعد الأدب كما كان من قبل، في العصر الكلاسي، تقلعة mode تبادل قيم متميزة اجتماعياً. و من جهة أخرى أزاحت العلوم الأخرى الأدب عن وظيفة المعرفة الحقيقية. أمّا في نهاية القرن 19 فقد أنكرت عليه العلوم الوضعية القدرة على تصوير وفهم الواقع بصفة أنجع "تتيح معرفة ماهية كل شيء" أرسطو.

محروم من البعد والهدف الخارجي، ومقتنع بأنه لا يسدي نفعاً، ينطوي الأدب على نفسه أو يعود لذاته، وبما أنه توقف منذ زمن بعيد عن أن يكون لغة للآلهة، ولم

يعد حتى لغة للبشر كما كان عند الأدباء الكلاسيين صار أخيراً لغة للفن أو لسان حال الأثر الفني نفسه.

يتميز الوعي الأدبي المعاصر، منذ القرن 19، بفكرة استقلالية العمل الفني ولا تعدى الأدب خارج حدود النص. من "فلوبير" إلى الرواية الجديدة نجد الحلم نفسه يراود الكتاب وهو كتابة "كتاب في لا شيء" أي لا يحيل على هدف أو موضوع:

كتاب بدون اهتمامات خارجية قائم بذاته بالقوى الداخلية لأسلوبه كالأرض لا عمد لها وتستقر في الهواء. كتاب لا يشتمل على موضوع أو على الأقل يكون فيه الموضوع متوار إذا كان هذا ممكناً. [رسالة إلى لويز كولت louise colet في 16 جانفي 1831].

تغييب العالم من النص أو فصله عنه يكشف عن أهمية البنية. حلم مواراة الموضوع". كتاب لا يكون له تقريباً، موضوعاً -أو موضوعه يتلاشى- "حيث يكاد يختفي فيه الموضوع"- يترتب عنه مفهوم وتنظير للأسلوب. قد ينبئ بتعريفات حديثة لمفهوم البنية بالخصائص الثلاثة: الكلية، التحويل، الانتظام الذاتي.

الأثر الذي كان يحلم به الأديب فلوبير "قائم" بدون صلة أو "ارتباط خارجي" فقط ب "القوة الداخلية لأسلوبه" بترتيب منظم لعناصره يكون حصيلة عمل متقن طويل يقوم به الفنان. لأن الأسلوب الذي يشير له فلوبير غير قابل لتخفيض تفاصيل العبارة. يعتبر هذا الأديب المنشغل بسماط الكتابة، بوحدة النص، واستمراره في الرواية، الأسلوب هو "النسيج" لا "التطريز" يعمل على تراسل الوحدة الصغرى والكبرى يجمع مثلاً داخل هذه "الآلة الثقيلة البانية والمعقدة على الخصوص" والتي حسب اعتقاده هي الرواية، وصف لشخصية يمنح الأسلوب للكتابة وجوداً مستقلاً، لا يبالي بالحقيقة خارج اللسان، إنه "طريقة مطلقة لرؤية الأشياء". "الكتاب في لا شيء" يوصف إذن كلعبة قوى وأشكال، وحدة عضوية مستقلة عن التحديدات الخارجية.

إن تأكيد استقلالية الأثر الأدبي ومفارقته للعالم تفضيان إلى إدخال إشكالية رسمتها البلاغة القديمة بينما حجبتها النظرية الرومانسية للعبقرية: تلك المتمثلة في العلاقات الرابطة بين الأدب واللغة. "الكتاب الفنانون" من بودلير Baudelaire إلى فاليري valery قاموا بـ "الجهد في الأسلوب" -مالارمي Mallarmé – الذي كان وظيفتهم الرئيسية، ربما الوحيدة. الأدب بالنسبة لهم، وقبل كل شيء، هو "فن اللغة".

الأدب باعتباره "فن لغوي"

"لا تنشأ الأبيات الشعرية بالأفكار بل بالكلمات "هذه العبارة الصادرة عن "ملارمي" تسجل قطيعة كاملة مع تقلعة الكتابة المستوحاة من الرومانسية. الكاتب "الساحر" أو "الرسول"– في السنين الأولى من القرن 19– كان يعتقد أن له سلطة خاصة وغير محدودة في التعبير، هو سيد الكلمات بلا منازع ينتقيها بحرية دون أن يشعر بالارتباط بآلة الأشكال والبنيات الموروثة من اللسان الذي يكتب به. هذه الأصالة المقصودة هي تعبير مستوحى من شخصية لا تقبل التخفيض أو التقنين. إنه يكتب بسرعة فائقة دون تشطيب مطلقاً تحت تأثير تيار داخلي للأفكار أو الموضوع.

وخلافاً لما سلف فإن فنّان النصف الثاني من القرن 19 "ينحت الكلمات كالقطع الصخرية" poe. يعي poe اللغة والمقاومة التي تبديها عندما يعبر عن أفكاره. تشهد مراسلات لوبير Flaubert عن ذلك تقريباً في كل صفحة:

العبارة ترفض ذاتها أو تتأبّى.

أو كذلك:

كتبت خلال كل أسبوعي هذا ثلاث صفحات ومعنى ذلك أني ثقيل جداً لأني لا أقدر على التفكير في الأسلوب إلا والريشة في يدي وأنا أتخبط في وحل متواصل أزيله كلما ازداد.

اللغة سابقة الوجود على كل إبداع فردي. هي التي تعين وتحدد لكل أديب مجال إمكاناته التعبيرية. الأدب "ما تصنعه اللغة يعني أنه مصنوع بمادة سبق لها وأن كانت دالة في اللحظة التي احتلها الأدب" بارت Barthes.

ومن هنا جاء صراع وخصومة الأدب مع اللغة في البدء خفيان بالنبوة الرومانسية وبورك ودعم بعد ذلك من قبل أدباء الحداثة من فلوبير إلى بونج ponge . وقد يشبه الأدباء "الرسامين الذين لا يملكون لغطس ريشاتهم سوى وعاء عظيماً حيث منذ الأزل كلهم مزجوا وخلطوا ألوانهم" (ponge) .

وعليه يجب على الكاتب أن يتقن بنيان اللغة التي يكتب بها.

يا للعار عندما نكتب دون أن نعرف عناصر اللغة، الفعل، الاستعارة، تحولات

الأفكار والنبرة... فلنحمر خجلاً من كوننا بيثي pythie .[1] valery

ينبغي للأديب أيضاً أن يعرف أن "أصالته" لا تستقيم إلا بمجز غير منشور لعناصر سابقة الوجود عن جهده التعبيري. هكذا وحسب مقولات "بروست" proust : عبقرية فلوبير ما هي إلا "عبقرية نحوية". مؤلف "مدام بوفاري" Madame Bovary كصنوه "كنت kant في تصنيفاته" استطاع أن يجدد "رؤيتنا للأشياء"، أسلوبنا في قراءة العالم بواسطة الاستخدام الكلي الجديد والشخصي للماضي القريب، والماضي البعيد، واسم الفاعل، وبعض الضمائر وبعض الحروف".

ينافس الترتيب اللغوي ترتيب الوجود. وحدة الإنسان ووحدة الأثر الأدبي أساسيتان لأديولوجية التعبير يصيبهما تشقق وانكسار، تتوسع المسافة ما بين الإنسان والفنان وتتأكد جلياً أكثر فأكثر.

يتميز الفنان عن الإنسان

يتعجب بودلير في أحد مشاريعه لمقدمة "أزهار الشر" les fleurs du mal من أن كتابه كان كافياً ليدينه ويجعل منه "فاسقاً سكيراً، كافراً ومجرماً" هو الذي كان "طاهراً كالورق، صبوراً كالماء، ورعاً كالقرابين، مسالماً كالضحية". يخلط النقد خطأ بين "أنا" العمل الأدبي وشخص المؤلف. وحتى يفتح الشاعر عينا الناقد يكشف له "آلية الخداع" الدائمة الخفاء، المصونة في "كولس، ورشة ومخبر "الأثر الإبداعي"، وفي البلاغة العميقة التي تمزج "الحدس والصدق" [...] مع اللعبة والشعوذة الضرورية لخلطة الأثر الإبداعي". يستجيب فاليري "لبودلير" بل يوافقه حين يؤكد من جانبه "أنه لا ينبغي الاستدلال أبداً من الأثر الإبداعي إلى الرجل بل من الأثر الإبداعي إلى القناع ومن القناع إلى آلة الخداع".

ضد سانت بوف sainte beuve والبوفية، بودلير، ومن بعده فاليري، ينكران "صدق" و "شفافية" الأثر الأدبي المكتوب من وحي المعيش وينكران كذلك أن تكون فعلاً قيماً أدبية خالصة. الأديب دجّال، بدل "الاعتراف" يلبس القناع وفي وسعه أن يبلغ عواطف حتى وهو لا يشعر بها لأنه يتقن قوانين اللعبة أو الخداع"

(بودلير): يعرف التأثيرات الصوتية، اللغوية، التركيبية و المجازية، لكل

---

[1] *Pythie نبية تجترح المعجزات باسم أبولون في معبد دلفي.*

الأصناف اللغوية، على القارئ. يسبر كل إمكانات اللغة حسب التوفيقات الحسابية للآلة التي تحدث عنها سابقاً valery.

لعب النص المشهور –"لادقاربو" Edgar- poe المعنون "تركيب القصيد" والمترجم من قبل بودلير– دوراً رئيسياً في دستور هذه الفلسفة الأدبية التي كانت عاملاً مشتركاً بين الأدباء الذين جاءوا بعد 1850. الأديب "بو" poe هو أول من فرض فكرة– القصيدة ما هي إلا موضوع للغة مستقل، خارج تصانيف الأخلاق والشخصية– "إنها خيال مبدع" (Mallarmé).

وهو الذي لا يعرف غير الصرامة والجدة يتقصى تركيبة قصيدة من قصائده المشهورة "الغراب" فيؤكد على أنها ليست وليدة عاطفة بل حساب بارد وتقييم منهجي للمؤثرات والفنيات.

ولكي يثير الحزن السوداوي اختار "poe" كلمة "Nevermore" "Jamais plus" "لا أبداً" لجهوريتها ثم اختار "الموضوع الأكثر سوداوية في العالم" حبيب يبكي عشيقته وقد ماتت ولكي يكرر هذه الكلمة كلازمة يجعل غراباً ينعق مردداً Never more استجابة لطلب الحبيب السائل "متى أرى معشوقتي؟". ولسنا ندري ما إذا كان هذا النص ينم عن حقيقة أم هو أسطورة بل خداع فحسب؟ وهل ألفت هذه القصيدة فعلاً كما ادعى؟. لكن هنا يسعى "بو" إلى تأكيد المسافة الفاصلة بين الرجل والفنان بين الحياة المعاشة حقيقة وخطاب الأثر الإبداعي. يظهر نسقا الحقيقة، –الحياة والفن– من هذه اللحظة وكأنهما يأبيان المقارنة ويقاومان كل سبل القياس.

تعد الكتابة ضرب "من الإقصاء الذاتي" (Mallarmé) بل هي انسحاب من نسق الوجود والتموضع في حيز اللغة والأدب*

تشرع عدة تيارات نقدية –تطبق اللسانيات لدراسة النصوص الأدبية– تفكر وتصف علاقة الأدب باللغة "دون اللجوء إلى علم نفس المؤلف "léo- spitzer . تتأسس الأسلوبية على المفارقة السوسيرية بين اللغة والكلام وذلك لتحليل الأسلوب الفردي لكل كاتب.

لقد هيمنت الأسلوبية من 1905 إلى 1960. أمّا اليوم فيحكم عليها بالتخلف

---

* *يطعن ملارمي النقد الروائي المتداول الذي يوازن بين الشخصية المصنوعة من أحرف وكلمات وبين الشخصية الواقعية والذي يحكم بالغرابة والشذوذ على كلّ ما يشاكل الواقع.*

والتراجع: الشعرية والسميائية أغوتا النقاد بخطاب أنجع منهجية وتشكيلاً. إنهما تصفان بنية مجردة "للخطاب الأدبي" بدل الآثار الأدبية الخاصة والمميزة: النظام الأدبي متجانس أو مماثل لنظام اللغة، في مقدورنا تقطيعه إلى وحدات صغرى وتحديد قوانين تراكبها وتوافقها.

الأسلوبية:

ما الأسلوب؟

مع أنه أساسي لكل خطاب في الأدب، تعريف الأسلوب لم يحدد إلى اليوم. يسجل ديكو وتدوروف Ducrot et todorov في قاموسهما الموضوعي لعلوم اللسان 1972 في -مادة أسلوب- الاستعمالات المختلفة لهذه الكلمة بعد أن يقدما تعريفهما الخاص. يعرفان "الأسلوب" كانتقاء يقوم به النص من جملة خيارات تحتويها اللغة ويؤكدان في الأخير أن "الأساليب تقبع في اللغة لا في نفسية المستعملين للغة" وبهذا يشيران إلى تعايش وتنافس مفهومان متناقضان للأسلوب موروثان من القرون السابقة. تعرف البلاغة القديمة الأسلوب كمدونه أو سجل للغة -مشيرة إلى أسلوب وضيع وآخر رفيع- يختاره الأديب حسب الموضوع المعالج. فالملحمة مثلاً وبما أنها ترسم الأشخاص بمثالية تلجأ إلى الأسلوب الرفيع وتترك للكوميديا الأسلوب الوضيع لكن العبارة المشهورة لـ Buffon : "الأسلوب هو الرجل ذاته" قلبت الوضع رأساً عن عقب. ليس الأسلوب محصلة انتقاد أو اختيار بل شيء كالدلالة أو العلامة، التعبير اللاإرادي، بل اللاواعي المميز لكل فرد. والصياغة الأكثر غرابة لمفهوم "الأسلوب" جاء بها "رولان بارت" Roland Barthes في كتابه "الكتابة في الدرجة صفر" 1952. حيث قابل ما بين "الأسلوب" و "الكتابة" فميز الأسلوب بـ "صور، ودفق ومعجم متولدة عن جسد وماضي الأديب والتي تتحول بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى آليات automatismes خاصة بفنه" بها يعرف لكن لم يقم قطعاً باختيارها.

وتأتي من هنا المقابلة الدائمة بين "أسلوبية عامة" و "أسلوبية اللغة" و "أسلوبيات خاصة" تحلل إجراءات تشخيص اللغة الخاصة بمؤلف أو بنص. وأول هذه "الأسلوبيات" والتي لا نقوم بتحليلها هنا يمثلها أساساً السويسري charles Bally الذي نشر سنة 1919 بحثاً عن الأسلوبية الفرنسية كما يمثلها كذلك J. Marouzeau

et M. cressot وتلاميذتهم الذين ألفوا على التوالي: الأسلوب وتقنياته 1947، وموجز للأسلوبية الفرنسية 1980، دراسات الأسلوب التي قام بها الألماني léo- spitzer والمترجمة إلى الفرنسية سنة 1970 هي واحدة من النماذج الممثلة للنوع الثاني من الأسلوبيات.

دراسات الأسلوب: الأسلوبية الأدبية لـ léo- spitzer

تجمع دراسات الأسلوب لـ léo- spitzer مقالات مكتوبة ما بين 1931 و 1960.

تأتي مدبجة بأشكال من السيرة الذاتية الثقافية أين يعرض spitzer بوضوح مبادئ خطته.

تظهر الأسلوبية كـ "جسر ممتد بين اللسانيات والتاريخ الأدبي" يهدف، مثل التاريخ الأدبي، إلى إثارة الاختزالية المتميزة للإبداعات الكبرى، والتي يكشفها بوسائل التحليل اللساني في النص الإبداعي، دون الرجوع إلى مرجعية المؤلف ومقاصده.

حضر spitzer في سنوات تكوينه لدروس مؤرخ أدبي مشهور في ألمانيا August Becker philip . لقد شد انتباهه عجز التاريخ الأدبي الوضعي عن معرفة طبيعة الإبداعات الفنية والنصوص التي كان يدعي شرحها: أن نقد المصادر، وهو يشد الانتباه نحو وسائل الأثر المبدع يمنع كل الأحكام الجمالية، الشرح بواسطة "ترجمة الحياة" أو تاريخ الأفكار يذري الأثر أو يبدده إلى مجموعة تفاصيل محتشمة وهكذا يهدم وحدته العميقة. اللجوء إلى اللسانيات على العكس يساعد على مواجهة الجانب الحي للأثر من خلال مظهره الفعلي النصي. مع هذا لا يكفي النظر إلى تنوع مشتت من صنع اللغة، طريقة التحليل اللساني تبرهن هي الأخرى على نفس التدقيق بلا معنى مثل التاريخ الأدبي الوضعي الذي تعارضه يقتنع spitzer بأنه إذا ما أريد القبض على اللغة في السياق الذي يجعلها أدبية. يجب الاقتدار على نقل الأحداث المشاهدة إلى مبدأ منظم وحيد. يجب على النقد أن يكشف "الجذر المشترك" مشتق روحي مشترك ما بين الأنساق المشاهدة. اعتقد spitzer في البداية أنه يجد هذا المبدأ مبدأ الوحدة والانسجام في نفسية المؤلف. لكنه، بعد معرفة أهمية الموتيفات المشتركة في الأدب السابق للقرن 18 في عدة آثار topoi وجدها تتحلّى بنفس القدرة البانية التي تتمتع بها "العقدة الذاتية" le complexe individuel.

يترك هذه الفرضية الأولى. ولا يبحث أبداً شرح "علامات المؤلفين" بواسطة "مراكزهم الوجدانية" القطيعة ليست جلية كما يبدو بين لحظتي تحليل أسلوبية النصوص الأدبية لأنه إذا كانت الفرضيات الشارحة قد تغيرت فإن طريقة قراءة الآثار الفنية بقيت على حالها كما هي.

انتباه spitzer الأقصى للتفاصيل ومعرفته للسانيات مكناه من النظرة الأولى أن يدرك التغييرات التعبيرية للنص. يتحدد الأسلوب كـ "فعل كلام"، استخدام فردي للغة، يراقب الناقد بحصافة متناهية الانحراف عن المعيار والاستعمال كما يتمثلان في حالة اللغة المشتركة لمرحلة معينة من التاريخ:

تعودت على تسطير العبارات التي تبدو لي واضحة الانحراف عن الاستخدام العام.

قد يتعلق الأمر بألفاظ جديدة جلية الهوية كما هي عند الناقد الفرنسي رابلي Rabelais أو الحرص الشديد على تكرار كلمة، صورة أو صيغة تركيبية عند هذا الأديب أو ذاك تنتمي إلى سنن اللغة" ولكنها هنا تظهر متميزة بإيقاع وقدرة إبداعية إيجابية لا تحظى بها في الوضع الاعتيادي" valery.

هناك مثال لنوع ثاني من "الانحراف" أو الفاصل "I' écart" يستشهد به spitzer في مقاله حول الأديب الفرنسي Racine . يلاحظ الاستعمال المكرر لأداة التنكير un مكان أداة التعريف أو نعت الملكية Adjectif possessif في نصوص العديد من المآسي tragédie التي كتبت في فترات متباعدة تشير إلى مشاركة المتكلم في الفعل.

نظراً لقوة وحدة العمل الفني لم يكن هناك ولا تفصيل واحد شاذ عن اللزوم، يجب بعد هذا إعادة تشكيل كل أنساق طرق الأسلوب المميزة لهذا المؤلف. يتعالق استعمال أداة التنكير مع كل طرق التعميم، واللا تشخيص التي يستدل عليها في كل مستويات، التركيب والمعجم والصور، مع استعمال اسم الفاعل وضمير الغائب في الحديث عن "الأنا" وهي حالة متواترة في مسرح racine، ومع استخدام الجمع "soupirs "، "Désirs"، "amours"– "والذي يموه الأطر ويلاشيها حائلاً دون الموقف المحدد للشخصيات". إن كشف العامل المشترك لهذا الصنيع ينتهي إلى معرفة جوهر أسلوب racine ورؤية العالم "التي يعبر عنها. القانون المنظم لكل عمله الإبداعي

"مركزه الحيوي الداخلي" ما هو إلا بعض أثر "عمل الخافضة": "مخمدة الحجة الباردة" هي التي تعارض أو "تلطف البعد الغنائي". التحقيق المتقصي يفضي إذن إلى أخذ الحقائق الإنسانية والتاريخية بعين الاعتبار:

يبدو "مزاج" racine، "روح عصر". رسين رجل "فقد اللطف والرعاية [...] لا يتوقف عن مراقبة وموضعة الإنسان ليس من خلال الإنسان الذي يتألم بل من خلال طبيعة موضوعية عقلانية".

الدراسات الأسلوبية التي قام بها léo spitzer هي درس متميز في القراءة. تبين علاقة الكاتب بالعالم تتكون في نسيج الكلمات وهي تظهر جلية لمن يعرف يقرأ دون استقصاء العالم المتواري خلف الأثر. قراءة spitzer léo تعري- كقراءة الموضوعاتيين thematicien - لكن بوسائل أخرى كالأنا المعاصر للعمل. هذه القراءة تعتبر النص الأدبي في حقيقته المضاعفة إبداع فعلي وعالم رهيف:

الأسلوب والروح هما معطيان مباشران وفي الحقيقة مظهران معزولان بصفة اصطناعية عن داخل الظاهرة نفسها.

لا تخلو هذه الطريقة من بعض المخاطر. يوشك المشاهد الحريص أكثر على كشف المبدأ الموحد ألا يقبض إلا على أسلوب أفعال متطابقة فيقصي، بهذا، التوترات والتشنجات الداخلية للعمل الإبداعي.

الشعرية والسيميائية

"مفهوم الأدبية"

استناداً لخصوصية ملامح اللغة العربية، حاولت الشعرية والسيميائية الأدبية تأسيس علم الأدب. بحثت الشعرية عن قوانين الإبداعات داخل الأدب وليس داخل تاريخ المجتمعات أو النفس: لقد أفضى بها الوصف الدقيق لطرح إنتاج الخطاب الأدبي إلى وضع جدول للاحتمالات الأدبية حيث تظهر الإبداعات الأدبية الموجودة والمتحققة وكأنها حالات خاصة أنجزت" Todorov ويبدو الأدب للسيميائية كمنظومة دوال مستقلة: ويستعمل النص الأدبي علامات اللغة ويرتبها ضمن منظومة شكلية ثانوية مزروعة في المنظومة الابتدائية للتواصل وبهذا السعي تكون الشعرية

والسيميائية قد أنجبتا جوهر الأدب الذي أطلق عليه "رومان جاكبسون" والشكلانيون الروس اسم الأدبية La littérarité.

ولا يشمل موضوع الدراسة الأدبية كل الأدب بل الأدبية فحسب [..] وبتعبير مغاير تحول الكلام إلى أثر شعري ومنظومة الإجراءات التي تنجز هذا التحول. Jakobson.

ومن المتعارف عليه أن عند القيام بتعريف "الأدبية" تقترح ثلاث شروط أساسية: النص الأدبي مغلق على نفسه، ليس له مرجعية وأخيراً، وخلافاً للغات الطبيعية الخطاب الأدبي "لغة موحية" Hjemslev .

وعند مقابلة الكلام اليومي، اللانهائي واللامحدود على الأقل زمنياً الأثر الأدبي مغلق، وتام بنيوياً. له "بداية ووسط ونهاية" استناداً لقول أرسطو في كتابه فن الشعر. النهاية قد تحتويها البداية "معللة الوسائل" ومفعلة الفصول المختلفة للقصة كما بين ذلك تحليل G. Genette لأميرة كليف la princesse de cléves في مقال FIGURES2، "شبه الحقيقة والتبرير".

إذا كان النص الأدبي عديم المرجعية فليس معنى ذلك أنه مجرد كلياً من العلاقات التي تربطه بالواقع الخارجي. ولكن الأدبية تتعالق بصفة أكثر تركيباً وغموضاً مع الواقع خلافاً للنصوص الغير أدبية. بينما ملفوظ اعتيادي يرجع مباشرة للسياقات. والأشخاص والأمكنة والأشياء–المدركة حسياً. نجد النص الأدبي يبني من المرجعيات ظلال صور مصنعة عن طريق لعبة العلاقات الداخلية في النص نفسه. هكذا وعلى سبيل المثال سارد الرواية أو السيرة الذاتية ليس هو بالضرورة المؤلف، الشخص الذي كتب النص والأدب لا يعبر عن الحقيقة إلا حينما يربطها بمنظومة خاصة من الأشكال المقسمة والمنظمة للكلمات والأشياء وفق نمط مغاير لما تفعله لغة التواصل العادية. وبهذا الأسلوب الخاص يدفع بنا الأدب إلى عالم مستقل الدلالات. وفي آخر المطاف، يظهر أنّ العنصر الدال في الإبداع الأدبي ليس هو الكلمة في حد ذاتها ومعناها المعروف -كما هي الحال في اللغة الطبيعية– ولكن هو شبكة الدلالات الثانوية والتصنيفات، والإيحاءات التي تفرضها العلاقات المستحدثة. المبدعة بين الكلمات.

وصف فلوبير Flaubert في –"التربة العاطفية" – L' education sentimentale

لإجتياح القرمدة" في فيروي 1848. يحول حشد الناس -مفرداً ومضاعفاً- كأنه زلزال سيول سريعة من الرؤوس العارية "أو حيوان -مفرد- أخطبوطي بل أفعوان خرافي "الهدرة" Hydre . وهذه الاستعارة -الشعب، الهدرة- تنعكس على طول المقطع:

وفجأة دوى النشيد الوطني، هوسيني وفردريك Hussonnet et Frédéric مالا على الدرابزون فإذا بالشعب، يهرع إلى السلم وهو يهز مد أمواج الرؤوس العارية، خوذات، حراب بتهور حتى ضاع الناس في الكتلة الصاخبة الدائمة الصعود كنهر كبحه التيار المعتدل بخوار عميق واندفاع لا يقاوم.. وفي الأعلى، تم للكتلة الانتشار سقط النشيد فلم يعد يسمع سوى وقع الأحذية مصحوباً بهدير الأصوات. الدلالات المشيرة للحيوانية -"الكتلة الصاخبة" "خوار" "المد والجزر الاعتدالي" "الهدير" في ارتباطها وأطنابها تفرض تشبيه -شعب 1848 بحيوان الأساطير Hydre وبهذا النهج يرد التاريخ المعاصر على أعقابه إلى طبيعة ما قبل الثقافة، إلى الأزمنة البدائية المظلمة التي لم يتمكن فيها الإنسان من السيطرة على الوحوش حيث لم يتغلب أنذاك "هرقل" على هدرة لارن L' Hydre de lerne.

هذا النموذج السابق يشير إلى إمكانية إعطاء أشكال متميزة ومعاني أصيلة لشيء عوين من قبل فقط بواسطة الكلمات المتداولة يومياً والتي يستعملها الجميع. والأسلوب لا يكمن بالضرورة في الانزياح Ecart فحسب كما تعتقد الأسلوبية الأدبية. ترتيب وتنظيم الملفوظ الوصفي -بنيته- هو الذي يملك خاصية التحويل يجعل الدلالات الأدبية مغايرة تماماً أو متجاوزة لمجرد انعكاس الحقيقة.

عندما تعرف الشكلانيون الروس على النسبية التاريخية للأدب احتجوا على مفهوم "الأدبية" ورفضوه. عرف إدراك الأدبية واللأدبية تغيراً ملحوظاً ودائماً عبر العصور. السبب -ربما- الذي جعل أرسطو يستبعد في تعريف الأدب كل أشكال التعبير الفردي، بل كل خطاب مباشر باسم الشاعر: لم يقل شيئاً في -كتاب الشعر"- عن الشعر الغنائي الذاتي للشاعرة صافو sapho والشاعر pindare باندار.

وعلى نقيض أرسطو يجعل القرن 19 الفرنسي من اليومية الحميمية Journal intime شكلاً أدبياً كاملاً. إذن لا يمكن أن يوجد جوهر أو روح أدبي لازمني وكوني للأدب ولهذا فمن الأجدى لنا الحديث عن "ظاهرة الأدب" بدل الأدبية. يبقى مفهوم الأدبية يحتفظ بقيمة نقدية لا جدال فيها كما لاحظ ذلك Gerard Genette في "مقال- مشروع" في مجلة FIGURESI 1966 "بنيوية ونقد أدبي"

النسيان المؤقت للمحتوى، التقليص المؤقت لـ "الذات الأدبية" من الأدب إلى ذاته اللسانية تساعد على مراجعة بعض المسلمات القديمة بـ "حقيقة" الخطاب الأدبي ودراسة –عن قرب– منظومة المصطلحات. لقد اعتبر الأدب لزمن طويل كرسالة بلا رمز وآن الأوان وأصبح من الضروري النظر إليه لحظة كرمز بلا رسالة.

والنقد الأدبي لن يستمر طويلاً مع الشكلانية حبيس وصف النسق الإبداعي: هذا الموقف حسب تصريح Gerard Genette يبقى مؤقتاً وعابراً. وبالمقابل هناك إيجابية أكيدة لإظهار الدور الذي لم يدرك منذ زمن طويل– وهو دور الشكل في صنع المعنى. بهذا سنبين كيف يجدد الأدب علاقتنا بالواقع كما أكده تحليل R. Jakobson عن طريق الوظيفة الشعرية للغة.

الوظيفة الشعرية للّغة

في الفصل 11 مقالات في اللسانيات العامة المعنونة "اللسانيات والشعرية" linguistique et poétique يحدد R. Jakobson الوظائف المختلفة للغة حسب العامل الذي يشدد عليه عقد التواصل أو فعل التواصل الذي تشارك فيه العوامل التالية الباعث، المتلقي، السياق، الشفرة أو الرسالة. والوظيفة الشعرية للغة" –والتي ليست ملكاً خاصاً بالشعر المنظوم فحسب ولكنها هي الوظيفة المهيمنة في الأدب عامة– تتمثل أساساً في جذب الانتباه نحو شكل الرسالة نظراً للأهمية التي توليها لتنظيم المعنى.

لقد "صار الشكل صعباً" على الأقل مدركاً عن طريق موازاة مختلفة ومتنوعة: رجع الأصوات في الظواهر التالية القافية، السجع أو الجناس بنيات تركيبية متشابهة بل كل التناظرات الممكنة الوجود بين أشخاص الرواية أو بين الفصول. هكذا تتوقف شفافية اللغة للأشياء. الوظيفة الشعرية لا تطمس المرجع (العلامة) لكن تجعلها غامضة أو شديدة الغموض. في هذا الصنيع تكمن فضيلة النقد الأدبي المقاومة لأتمتة التواصل الاعتيادي.

عندما تصير العلاقة بين المفهوم والعلاقة أوتوماتيكية، يتوقف مجرى الأحداث، ويموت وعي الحقيقة... والشعر هو الذي يحمينا من الأتمتة، ومن الصدأ الذي يهدد عبارات الحب والحقد والاحتجاج والتفاهم والإيمان والفكر (جاكبسون "ما الشعر؟")

درس الشكلانيون والبنيويون كل الأساليب والطرق التي بها يتجلى الإيقاع الخاص للأعمال الأدبية، حيز وزمن مميزان عن مثيلهما في العالم.الشكلانيون الروس في فترة 1920 وصناع الشعر (ج. جنات وت. تودورف) والسيميائيون الفرنسيون لفترة 1960 (ر. بارت أ. ر. قريماس) اهتموا بالمظاهر المختلفة للبيت وأشكال تركيب العقدة وتنظيم الخطاب السردي.

شعرية الشعر

الشكلانيون الروس والشعر

فضلت البحوث البنيوية الأولى التصدي للقصائد الشعرية، لأنّ "النثر يطرح على الشعرية قضايا معقدة"، "الموازات في النثر ليست مضبوطة بدقة بل ضعيفة الانتظام" جاكبسون

القصيدة القصيرة المحكمة الشكل كما وصفها بودلير والرمزيون- مالارمي وفاليري اللذان يستشهد بهما مراراً جاكبسون-تجسد بالتمام مفهوم "الأدبية" السابق الذكر. استجابة للمفهوم المثالي "الشعر النقي" كما تعارف عليه شعراء نهاية القرن 19 ينبغي للقصيدة أن تكون مغلقة على نفسها، لا تحيل، متقنة البنية متميزة بوضوح عن النتاجات اللغوية العادية.

يصرح بودلير أنّ "كلّ ما يتجاوز الانتباه الذي توليه ذات إنسانية إلى شكل شعري [..] ليس قصيدة". يجب الاقتدار على قراءة القصيدة كما نشاهد لوحة بل يجب ضبطها أو إدراكها ككل. تفي بهذا الشرط السابق الذكر السونتا sonnet (القصيدة القصيرة) وكل الأشكال المحدودة الطول. وإذا ما اخترنا كتابة قصيدة طويلة ينبغي أن تدرك كـ "سلسلة متلاحقة من القصائد القصيرة التي تؤثر تأثيراً وجيزاً بو poe.

تختلف أشياء القصيدة عن أشياء العالم وهي لا توجد إلاّ داخل القصيدة ولا معنى لها إلاّ في حضن منظومة معقدة من العلاقات و "التناظرات". وبين الشعر كلّ معقد لا يقبل القسمة "حيث الكل" دلالي، تبادلي، تضافري، تناظري" بودلير.

لاحظ بودلير عند تقديمه لغراب poe أنّ كل القصيدة "تدور" على كلمة واحدة أبداً Never.

هذه الكلمة تتجب العناصر الأخرى للقصيدة وعلى الخصوص الغراب. Never

تناظر Raven الكلمتان يربطهما جناس بواسطة رجع حرفين متساو. ويستخلص مما سبق أن غراب إدجار Edgar poe ليس عصفور حقول بل ما هو إلا تناغم يصدي الكلمة– التيم في القصيدة وهي هنا الغراب.

التنظيم المعقد، في داخل القصيدة لكل طبقات الملفوظ "الفن الدقيق للبنية المبتعثة هنا" والتي تحدث عنها مالارمي في مقدمة تخلّق القصيدة، تعمل على مجز الصوت والمعنى وتجعل الدلالة تابعة للعبارة. تلتزم القصيدة مزيداً من القواعد أكثر من الكلام العادي. ليست القصيدة كالنثر تقبل الاندثار والنسيان بمجرد تبليغ المعنى. فهي تكرر، تستعرض بل تدوم بفضل متانة بنيتها وبفضل العلاقات التي تنسجها ما بين كلّ عناصرها.

تعتبر البنية أو الهيكل الضامن الأساسي لحياة الآثار الأدبية العقلية، Baudelaire

يظهر أن وصف الخصائص المتعلقة بالقصيدة لا تكفي للقبض على "أدبيتها". لمعرفة كيف يجري "تحويل الكلام المعتاد إلى آثار شعرية" يجب دراسة بنيات اللغة الشعرية. واستيحاءاً من طرق ومناهج اللسانيات البنيوية ينبغي تحديد الوحدات الصغرى وإعداد "نحو الشعر grammaire de la poésie.

خلاصة:

بسط التيار البنيوي نفوذه على كلّ العلوم الإنسانية والنقد، فصل النص الأدبي عن تاريخه وأطره الخارجية وساهم في انطواء الأدب على نفسه وأيّد مقولة الأدبية أو الشعرية تنشأ من الكلمات لا من الأفكار، والأدب ما تصنعه اللغة يعني أنه مصنوع بمادة سبق لها وأن كانت دالة.

فصلت البنيوية الفنان عن الإنسان ورأت أنّه لا ينبغي الاستدلال أبداً من الأثر الإبداعي إلى الرجل بل من الأثر الإبداعي إلى القناع ومن القناع إلى الآلة وأنّ الأسلوب يقبع في اللغة لا في نفسية المستعملين للّغة وانتهت إلى أنّ الأسلوبية تتجلّى في الانحراف عن المعيار والاستعمال المشترك.

■■

■ الهوامش

1– المقال مترجم من كتاب Anne maurel ، المعنون النقد، سلسلة دوائر أدبية Hachette

1994.

2–بودلير 1821– 1867 ألف أزهار الشر ترجمة القط الأسود لـ poe ألف كذلك الخمر والحشيش.

3-ملارمي ستيفان 1842- 1898 إبداعاته على التوالي الأشعار الباريسية، الفن للجميع، الأفق. والأزهار، قبر ايدقاربو.

4–جيستاف فلوبير 1821– 1880 مؤلفاته: الطاعون في فلورونس، صالونبو، مذكرات مجنون.

5– لويز كولات محضية فلوبير.

6–فاليري بول 1871– 1945 مؤلفاته: حلم، المسيرة الملكية، لا بيثي Pythie، درس حول poe- Edgar.

ρρρ

غـوتـــــه:
عـالـــم طبيعـــة

■ صـلاح حـاتـم ■

غوته ليس الشاعر فحسب، بل هو أيضاً الشاعر العالم المفكّر تفكيراً تقدّمياً، إذا صحّ التعبير. فالوقت الذي خصصه من حياته المديدة لبحوثه ودراساته في علم الطبيعة هو أكثر بكثير من الوقت الذي صرفه في الشعر. في سنة 1765 قصد مدينة لايبزيغ، باريس الصغيرة آنذاك، ليدرس القانون، وإلى جانب ذلك أبدى آنذاك اهتماماً بالطب والعلوم الطبيعية، وحين انتقل إلى شتراسبورغ في سنة 1770 أخذ يستمع إلى محاضرات في التشريح والجراحة والكيمياء، كما أولى الجيولوجيا والتعدين اهتماماً. وفي سنة 1776 وحين لبّى دعوة الأمير كارل أوغست، دوق فايمار، وجد الحياة المنفتحة على الطبيعة في الغابة والحديقة العامة سرعان ما أناطت به مهمات نمّت مواهبه ومعلوماته العملية.

على أنّه ليس في الإمكان الحديث عن غوته الباحث في علم الطبيعة إلاّ في نهاية العقد الثالث من عمره.

فبدءاً من سنة 1780 نجد تحوّلاً في الوعي جلب معه نظرة جديدة إلى الطبيعة. والحق أنّ ما يميّز شخصية غوته على نحو ملفت للنظر هو شمولية المعرفة.

في العقد الأوّل من إقامته الدائمة في فايمار كانت حياته على تنوّع في الجوانب لا مثيل له: كان أمين سر الدوق ووزيراً ومستشاراً في شؤون الدولة والثقافة والمال وقانونياً مثقفاً وموظفاً إدارياً. وكان جامعاً وباحثاً في الطبيعة وشاعراً يهتمّ الإهتمام نفسه بكلّ فرع من هذه الفروع، إلى جانب عمله في شؤون الغابات وتنظيم وتوسيع الحدائق العامة التي يصفها في تاريخ دراساته النباتية كان هناك التعدين في إلميناو الاستثمار الجيولوجي للتورينغين ومهمات في لجنة إنشاء الطرق والمنشآت المائية وإلقاء محاضرات في التشريح في مدرسة الرسم الحرة في فايمار، وفيما بعد

وقبل كلّ شيء الإشراف على معاهد جامعة يينا التي عرّفته أكثر وأكثر بمسائل تتعلّق بعلم الطبيعة؛ وفضلاً عن ذلك وبصفته عضواً في هيئات علمية عديدة كان على اتصال بالبحث المعاصر في الطبيعة. كل هذه الأعمال لم تكن إلاّ حافزاً للتوغّل في الحقل اللامتناهي لأبحاثه العلمية ومشاهداته ووصفه. وسعى من وراء هذا كلّه إلى الاقتراب من اللاّمتناهي.

انطلق غوته من الطبيعة باعتبارها حياةً لا باعتبارها المادة الميّتة، إذ أنّه لم يكن له شأن بطبيعة لا روح لها وتتحكم بها قوانين ميكانيكية رياضية. فالقانون الذي يقصده غوته ليس السيادة المطلقة لمبدأ السببيّة، إنّ مفهوم الطبيعة عنده له صفات ديناميكية، ويرمي بهذا إلى نظرة تنطلق من قوة فاعلة فعلاً موحّداً وتوضح الكون من مبدأ أساسي خلاّق يمكن أن يسميّه المرء إلهاً أو فكرةً أيضاً.

لا تهمّ غوته الطبيعة الإله من حيث هي نظام مفاهيم مستقر، بل يهمّه ترابط لا مّتناه لقوى محرّكة كما تهمه أسمى الصور للشيء الواقعي والشيء المؤثر، إذ ليس في الإمكان إدراك كنه شيء إلاّ من تأثيراته.

غوته يرى ويبحث عن الطبيعة الإله في الواقع المحيط به، في الحادثة الطبيعية الكونية كما تحدث في الزمان والمكان. والطريق إلى ذلك هي الرؤية الحسية المباشرة، النظام الممارس يومياً وكلّ ساعة لرؤية الأشياء كما هي وتلقّفها بعين هادئة دقيقة. فكّل فهم وإدارك للطبيعة يبدأ بالانطباع الحسي المباشر أي بالحادثة الطبيعية الحرة المكشوفة مباشرة أمام الحواس. وهذا الانطباع يستحيل بدوره إلى معرفة أيضاً.

كان علم الطبيعة قد قطع الشوط البعيد في أثناء حياة غوته بدءاً من الاشتغال بظواهر الكهرباء حتى بدايات المغناطيسية الكهربائية، وبهذا كان البحث في الطبيعة جزءاً لا يتجزّأ من ثقافة عصر غوته. فهو هواية الإنسان المثقف ثقافةً شاملة. وعلى هذا يجب ألاّ يفهم بأنّه ميدان معزول وليس عملاً للقوى العقلية التي تنمّي الشيء الفردي في الإنسان. والبحث في الطبيعة، كما رآه غوته، يجب أن يربط لا أن يفصل، فالقناعة الأكثر أساسية التي تقوم عليها مؤلفاته في علم الطبيعة هي على الأرجح إيمانه بوحدة الطبيعة.

وبما أنّ الطبيعة تشمل الإنسان، فما من شيء في الطبيعة يقف منفرداً بذاته. كلّ شيء موجود من أجل الآخر، الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد، ولهذا

كان كانت تصورات غوته عن الطبيعة والفن والمجتمع أنها تندمج في وحدة، وهذا الاندماج يؤدّي إلى تركيب أو كل، ويكون البحث في علم الطبيعة معتبراً بقدر ما هو مفيد لهذا الكل، فكل باحث يصنّف يتوخّى السيطرة ويريد أن يسقط الشيء الفردي من حسابه لكي يتصرّف بعد ذلك بكل ارتياح. غوته ينوي أن يضع علماً يجلّ ويبجلّ، لا علماً يخضع ويذلّ. ولهذا لم يتقبّل قانون العلم على أنه شيء معطى، بل اختبر أصله وكفاءته ومضمونه، فهو يبحث عن قوانين تنظّم الكل، وهناك، كما يعتقد، قانون أزليّ يحرّك كلّ شيء تحريكاً بطيئاً، وليس في وسع الطبيعة أن تصل إلى كلّ شيء تريده إلاّ بالتعاقب، فلا تقفز قفزات. ففي سنة 1771 يكتب: "الطبيعة كلها لحن ينطوي على تناغم وانسجام. "فجوهر الطبيعة هو التناغم والتوافق. "أيّ شيء هو التناغم إلاّ أن يكون القواعد وأيّ شيء هو اللحن إلاّ أن يكون الممارسة؟"

نظرة غوته إلى الطبيعة تنطلق من الإنسان، مركز كل شيء، ومن تجربته المباشرة إلى الطبيعة وانطلاقاً من هذا المركز تنتظم الظواهر في نظام منطقيّ سليم.

"فاوست"، أعظم شخصيات غوته، يسعى ويجتهد علمياً ليعرف أسرار الطبيعة؛ وغوته، خالق فاوست، يتوخى أن يفهم الطبيعة بالتفصيل وبالكلية على أنها مثله، مقتنعاً أن الإنسان والطبيعة منظّمان على نحو متشابه ومتناسبان، بحيث يعكس الروح بصفة مرآة خلاّقة صورة الكون؛ فالكون "واحد متناسق "والإنسان أيضاً" واحد متناسق".

علم الطبيعة الخاص بغوته هو قبل كل شيء عمل الإنسان والشاعر غوته الذي بحث عن المعرفة التي ينبغي أن تكون صالحة في ذاتها وسارية المفعول، وقد أراد أن يضيف بعلمه هذا حلقة إلى سلسلة معرفة العلوم الطبيعية للعصر الحديث. أما اختبار شرعية مؤلفات غوته في علم الطبيعة وصحّتها وأهميّتها في إطار البحث السائد في هذه الأيام فهو مهمّة عالم الطبيعة ولا يتسع المجال الآن لإلقاء الضوء على هذا الجانب.

إذاً في الثمانينات تبدأ أبحاث غوته والدراسات المنتظمة في العلوم الطبيعية. فكل الاهتمامات تقريباً التي شغلت غوته في وقت لاحق يمكن تتبع بداياتها في تلك الفترة. حتى ملاحظاته المتعلقة بعلم الظواهر الجوية المدونة في اليوميات الإيطالية تدلّ على أنّ غوته اهتمّ بترتيب الظواهر الجوية وشرحها قبل أن يتعرّف على علم تشكل الغيوم للإنكليزي لوك هوارد (1772–1864) بثلاثين سنة. إلى جانب

الدراسات في مجال الجيولوجيا وعلم التعدين يحتل التشريح وعلم النبات الحيّز الأعظم. ففي سنة 1781 يحضر محاضرات يوسّوس كريستيان لودر (1753-1778)، الإختصاصي في علم العظام وأستاذ التشريح في يينا. كما أنّ كارل فون لينيه، عالم الطبيعة السويدي المشهور (1707-1778)، كان أحد أوائل الباحثين الذي أخذ غوته يقتني مؤلفاته في علم النبات قبل سنة 1780. فقد تبحر في نظام لينيه النباتي. وفي أثناء رحلته سنة 1785 إلى كارلسباد يجمع النباتات لبحثه بهمة كبيرة وحماسة عالية. وفي حديقة منزله والحدائق العامة بفايمار تشغله فكرة النبتة الأولى وتطغى على أيّ عمل أدبيّ آخر تتكون لديه قناعة نهائية بتطابق أصلي لكلّ أجزاء النبات، وفي السنة نفسها يستبين له مبدأ التحول في صقلية في أثناء رحلته إلى إيطاليا التي تعد نقطة تحول في دراساته في علم النبات، هنا في إيطاليا وعند زيارته حديقة النباتات يجد معلوماته في علم النبات محققه. فقد راقب على الضفاف وزهور الجنطانيا كيف تتبّدل أشكال النباتات تحت تأثير ارتفاع الجبل، كما تعرف في مستهلّ هذه الرحلة على عالم النباتات بدءاً من نباتات الألب حتى النبات الصقلّي؛ هنا بحث عن نبتة أصليّة مرئيّة حقيقيّة وخيّل إليه في وسط هذه المجموعة من النباتات أنه توصّل إلى النبتة الأصلية: "فبم أتّبين أنا هذا الشكل أو ذاك نبتة إن لم تكن كلها مكوّنةً وفق نموذج واحد؟"

فالنبة الأولى، في نظره، نموذج ومفتاح يستطيع المرء أن يوجد به نباتات إلى ما لانهاية تكون لها حقيقتها وضرورتها، وأدرك فيما بعد، في جزء من النبتة نفسها أي في الورقة، الشكل الأساسي للنبتة المتحول بشكل دائم؛ فالعضو الأصلي يدعى ورقة تتحول إلى ساق وكم وزهرة، إلى ثمرة وبذرة تنشئ النبتة.

فالواحد في المتنوع أي الورقة باعتبارها عضواً أساسياً للنبتة. على أن هذا التحول هو في الوقت نفسه عملية تصاعد، طريق من البسيط، لا بل من خشونة الورقة إلى نعومة الزهرة وجمالها. ثمّ بالطريقة نفسها تتحول أيضاً النبتة الأصلية إلى أجناس وأنواع حالية ولاحقة بأن تستجيب بحكم دافع "التكوين الداخلي" إلى المؤثرات الخارجية من تربة ومناخ وسطح وبحر.

إن الأبحاث المتعلقة بعلم النبات تم تلخيصها في عام 1790 في المؤلف (تحول النباتات)، وفيه يعرض غوته لأول مرة نتائج دراساته في علم النبات، وكان همه أن يحصل على نموذج لشكل النبتة أو مقياس تقاس به الكائنات الحية.

غوته يؤسس الطريقة المورفولوجية أو علم التشكل من خلال مقارنة منهجية لأشكال النباتات. كل بنية مختلفة عن الأخرى، ومع هذا هناك أشياء مشتركة يمكن مقارنتها ببعضها بعضاً بكليتها وجزئياتها.

وهذا الشيء بين النباتات في تحولات متجددة دائماً، فالشكل شيء متحرك، شيء في صيرورة وزوال، وعلم التشكل إذاً هو علم التحول، وهذا بدوره هو المفتاح لكل علامات الطبيعة ورموزها. وبهذا ينتقل غوته من البحث عن البنية الأصلية إلى السؤال عن كيفية التنظيم، فلا الصورة الأصلية تحتل الصدارة، بل قانون التشكل، أي ليس السؤال عن بنية أساسية، بل البحث في قانون تشكل النباتات عن الشكل الذي تلعب به الطبيعة، وجلّ همه أن يصور الطبيعة فاعلة وحية متجهة في هذا كله من الكل إلى الأجزاء.

فعلم التشكل هذا هو علم ظواهر الأشكال، وتفهم الظواهر هنا على أنها نتائج من غير أسباب أو معلول من غير علة، إنه وقائع وأشياء، والعلاقة ليست علاقة سببية ميكانيكية، بل علاقة تأثير عضوية.

إنه لخطأ أن تقول: إنّ السمكة موجودة من أجل الماء، بل إنّ التعبيرالسليم هو أنّ السمكة موجودة في الماء، ومن خلال الماء. "إن وجود مخلوق ما نسميه سمكة ممكن فقط في ظل شرط عنصر نسميه ماء، لا ليكون فيه فقط، بل ليصر فيه أيضاً. وهذا ينطبق على المخلوقات الأخرى أيضاً. "فالنموذج والبيئة يحددان كلاهما شكل الحيوان ولأن البيئة تشارك في تكوين الشكل، فإن المخلوق مزوّد لبيئته على نحو لا مزيد عليه.

غوته جاء إلى علم النبات من علم التشريح المقارن حيث اتضح أمام عينيه الترابط الطبيعي للأجزاء في الهيكل العظمي الذي يحفظ فيه "الطبع الأكيد لكل شكل على مدى الأزمان وبشكل مؤكد".

في قطعة غير مكتملة حول شكل الحيوان وتعود إلى سنة 1790 يصف "النمط العظمي" بأنه "نموذج عام" يجب أن يخضع له البشر والحيوانات على سواء. فهو يتكلم عن مبدأ التشكل نفسه الذي يوضّح وحده تشابه الأشكال الحيوانية. وفيما بعد يستعمل مفهوم "الحيوان الأصلي" كصورة مقابلة للنبتة الأصلية. وفي مقالته "مدخل عام إلى علم التشريح المقارن"، تاريخ 1795، يتكلم منطلقاً من علم العظام، عن نموذج تشريحي بصفته قاعدة مقارنة ويسميّه "الصورة العامة" التي تحلّق فوق المتّنوع

وتشمل أشكال الحيوانات كلها على قدر الإمكان؛ وتهمه جماجم الحيوانات التي يقارنها بلا تردد بجمجمة الإنسان، ورائدة الرؤية أو المعرفة أنّ العظام هي القواعد الأساسية للتشكل وتشمل صفات كائن ما. والفرق بين الإنسان والحيوان ليس في عظام إفرادية، بل في البناء الكلي، وفي النوعية التي تتطابق فيها الأجزاء كلها. وسواء أظهر عظم ما صغيراً أم كبيراً، ملتحماً أم منفرداً، فله في بنية الحيوانات كلها المكان الثابت نفسه. وتبعاً لذلك فإنّ النموذج هو صورة ترتيب العظام في بنية الحيوانات، الصورة المجردة من العدد والشكل والحجم. فالثابت هو المحيط الذي يكون فيه كل عظم موجوداً والمتغير هو شكل الأجزاء وعددها وحجمها. حتى عالم الحيوان ينظر إليه غوته على أنه كلّ تكّون بموجب قانوني الثنائية والتصاعد من الحيوان الأصلي، والحيوان الأصلي بدوره يعزوه، على الأقل بالنسبة لعالم الحيوانات الفقرية، إلى عضو وحيد هو الفقرة تكوّن من أجزاءها المتغيرة العمود الفقري من الذنب إلى الجمجمة، وعظام الجمجمة فهمها غوته أنها فقرات رقبية متحولّة. كان غوته مقتنعاً أنّ كل الأجزاء الرئيسة التي يتكّون منها شكل حيوان كامل يجب أن تكون موجودةً في الوقت نفسه لدى الحيوان الآخر.

جزء واحد فقط من بنية العظام الحيوانية لم يجده بعد الإنسان في بادئ الأمر، وفي رأي علماء تشريح روّاد كان ينبغي ألاّ يجده أيضاً، ألا وهو العظم القاطعي الذي يشمل القواطع العليا الداخلية. عند الإنسان، كما سمع هو، تنبت الأسنان القواطع العليا مباشرة من عظم الفك، وهذا يعني، أنّ العظم القاطعي يفتقد إلى الدرز الذي يفصل عند الحيوانات الجزء الوسطي الأمامي من الفك العلوي. وهذا الخبر لم يرض غوته، فتابع عمله بالتشريح المقارن؛ وشاهد جمجمة الإنسان بلا حرج واكتشف الدرز الدقيق الذي يفصل فيها أيضاً العظم القاطعي من الفك العلوي الخارجي. وعلى هذا أعتقد غوته أنه اكتشف شيئاً جديداً عند الإنسان، وغمره فرح طاغ لهذا الاكتشاف، ذلك أنّ بعض علماء التشريح أنكروا على الإنسان هذا العظم وذهبوا إلى أنّ جمجمة الإنسان البالغ تفتقد إلى هذا العظم القاطعي، والظاهر لأنّ الدرز الخارجي يلتحم مبكراً، وفي هذا وجد المرء فرقاً جوهرياً للإنسان عن الحيوان؛ وبعضهم، ومنهم غوته، ذهبوا إلى أنّ العظم القاطعي مكوّن عند الإنسان أيضاً، إلاّ أنه لم يعد في الإمكان التعرّف عليه بسهولة لالتحامه من الخارج بعظم الفك، على حين هو عظم مستقلّ عند الإنسان حتى السنة الرابعة وعند الحيوان طوال الحياة –ففي جسم الإنسان تصاعد العنصر الحيواني إلى أغراض عليا؛ وتحدّث غوته في ملحق لمقالته حول

العظم القاطعي أنّ هذا "يختفي أخيراً علي استحياء عند الإنسان، المخلوق الأنبل، مخافة أن يشي بشراهة حيوانية. "إنّ شكله وقف على نوعية الطعام الذي يتناوله الحيوان. هذا ويسمّى العظم القاطعي في الأدبيات الألمانية عظم غوته لأنّ الاهتمام به ازداد لدى علماء الحيوان من خلال دراسات غوته التشريحية المقارنة. أما الهيكل العظمي الإنساني فإنه يتميز في نظر غوته بأنّ عظام الجبهة فيه متكوّنة على نحو أشدّ لا عدّة الأكل كما هي لدى الحيوانات. وأكثر الأفكار جرأة وأهمية أنه ما من حيوان بمفرده يمكن أن يكون النموذج العظمي للجنس بكامله، كما أنَّ الإنسان لا يمكن أن يكون النموذج للحيوانات الثديية، ذلك لأنه يتمتع بأسمى كمال عضوي، فلا الإنسان نموذج للحيوان، ولا الحيوان نموذج للإنسان. إنّ المقياس النموذجي المثالي يمكن أن يشكله النموذج (النمط) العظمي الذي تشكّل بموجبه الإنسان والحيوان؛ والإنسان يعلو الحيوان مرتبة ذلك بأنه لا يتعلم من أعضائه فحسب، بل يستطيع أيضاً أن يؤثر فيها وأن يطوّرها ويسيطر عليها. أما الحيوانات فتتحكّم بها أعضاؤها: "فكلما ازداد المخلوق كمالاً ازدادت الأجزاء اختلافاً عن بعضها. ففي تلك الحال يماثل الكل الأجزاء كثر هذا أو قلّ. أما كلما شابهت الأجزاء بعضها بعضاً قلّ خضوعها لبعضها بعضاً. فخضوع الأجزاء دليل علي مخلوق كامل."

هنا ترتسم إمكانية فهم الطبيعة كلها سلسلة متصاعدة تصاعداً مستمراً. على أنّ الانتقال من نباتات إلى حيوانات أو من نموذج حيوانات دنيا إلى نموذج الحيوانات الثديية لم يقم غوته قط في اظهاره. إنّ هدف البحث في العظام مماثل لهدف البحث في علم النبات: الدوام في التحوّل والواحد في الكل يواجهنا في النباتات والحيوانات ولو في صور مختلفة تماماً. فالنمط أو النموذج هو الدائم المستمر والتحول الشيء البعيد عن الحواس والمتبدل تبدّلاً غير متناه. وقد اهتمّ غوته منذ زمن مبكّر بالفكرة أنّ تنوع الأشكال تطوّر زمنياً من أشكال بسيطة، أي أنّ السلسلة تصعد من الكائن المنظم تنظيماً أعلى ويكون في قمّتها الحيوان الأكثر تكاملاً، ولا سيما الإنسان، وفكرة الكمال العضوي لا علاقة لها بعملية الانتقاء الطبيعي الذي يوضّحها داروين من خلال نشوء أنواع عليا من أنواع أكثر بدائية. الكمال في نظر غوته مقياس كيفي نوعي يسمح بالقيام بتصنيفات وسط الأحياء المقارنة مثل "أعلى" و "أدنى".

سلسلة غوته عكسية فالنظرة إلى الأمام وإلى الوراء، تقارن مختلف التشكلات من أبسط الطحالب إلى معجزة الوردة، ومن الحصان إلى عجل البحر، ومن الغزال إلى الأسد. إنه يبحث عن الشيء المماثل في الشيء المختلف لا لكي يحدده تحديداً

تجريدياً، بل ليراه بعين العقل، إن لم يكن بالعين المجردة. هذا الشيء المرئي بعين العقل، الشيء المماثل في المختلف المتنوع، يسمّى في علم العظام "النمط" أو "النموذج" وفي علم النبات "النبتة الأصلية". غوته يحاول أن يحصر الشيء المشترك بين الكائنات في الحيوان الأصلي والنبتة الأصلية، في النموذج الحيواني والنموذج النباتي بالمقارنة. فلدى الحيوان الأعلى يكون الجزء أو العضو الذي يبدو خاضعاً للتحول على خير الوجوه عنصراً فقرياً يتكرر في تحول دائم بدءاً من رأس الذنب إلى عظم الجبهة الأمامي. أما لدى النبتة العليا فالورقة على القسم البرعمي بتحولها تقود من الجذر الأقل تشكلاً إلى الزهرة الأعظم تشكلاً. وبهذا يتجلى في الوقت نفسه مبدأ الثنائية والتصاعد؛ الثنائية في تعارض المتحول بواسطة التحول– عند الحيوان ذنب ورأس، عند النبتة قطب الجذر وقطب البرعم، أما التصاعد فيكون في تعاقب الوصلات التي تربط القطبين معاً ربطاً معقولاً.

وهذا النوع من الرؤية أكّد الإيمان بطبيعة إلهية واحدة أزلية، وبالفكرة التي تسود العالم الداخلي والعالم الخارجي على سواء وتؤالف أسرار الطبيعة والعقل. فقانون الثنائية يدلّ على وحدة الطبيعة التي تشمل الإنسان أيضاً، وقانون التصاعد يدلّ على تمييز مجالاتها.

أحبّ مجال بحث لغوته كان علم البصريات، إذ أنّ غوته كان قبل كلّ شيء إنسان عين من الطراز الأول؛ فعالم الظواهر بوفرته نفذ إلى أعماقه عن طريق عضو العين. في العين ينعكس العالم من الخارج والعالم من الداخل. فإلى جانب البيولوجيا فإنّ علم الألوان هو الموضوع الأساسي لبحثه في الطبيعة وأهمّ إنجازاته.

وعلم الألوان في نظر غوته ليس مجالاً فرعياً للفيزياء فحسب، بل هو قبل كلّ شيء أيضاً حقل تأثير للحياة الواسعة ذو طبيعة خاصة يجب أن يتغلغل فيه لأنه لا غنى له عنه في نظرته إلى الطبيعة. إلاّ أنّ عليه أن يصارع في علم الألوان بعصوبة أكبر منها في علم النبات وعلم العظام. فمذهب نيوتن يقف عائقاً في الطريق، نظريته المعتبرة لدى الفيزيائيين عن انقسام الضوء إلى ألوان؛ إذ يكاد لا يوجد أية نقاط تماس بين علم ألوان غوته وعلم بصريات نيوتن. فضوء نيوتن قيمة مجردة مستقلة عن عملية الرؤية. إذ أنه يريد أن يوضح الألوان على نحو فيزيائي ولا يريد أن يلاحظها ويصفها في وفرتها الحية. وتهم نيوتن صفات الضوء الثابتة التابعة للقياس والحساب، أما غوته فتهمه الظواهر الأساسية، إنه يقف من الألوان موقف البيولوجي فيكتب تاريخها وحياتها في الواقع الذي يظهر بدءاً من نشأتها في العين

الإنسانية وفي أرقّ تحولات الضوء وسطوح الأجسام حتى أعقد ظواهر الألوان وأكثرها ثباتاً وديمومة. ولم يغادر قط مجال الملاحظة الواقعية وأكدّ الشروط التي تبرز في ظلها الظواهر الملحوظة من قبله.

بدأت دراسات غوته وتجاربه في مجال علم الألوان في سنة 1790 وواصل ذلك على مدى عقدين من الزمن تقريباً؛ إلى أن ظهر علم الألوان في عام 1810 في مجلدين، فكان عملاً انصبّت فيه كل الاكتشافات المنسية التي تمّ التوصل إليها في هذا المجال عند القدامى وفي العصور الوسطى والقرون اللاحقة؛ وبهذا فإنّ هذا العمل يمثل أفضل مصدر لدراسة الظواهر في عالم الألوان ويشمل ثلاثة أقسام: 1- قسماً تعليمياً 2- قسماً هجومياً يتناول فيه نظرية نيوتن 3- قسماً تاريخياً ومواد حول تاريخ علم الألوان التي فهمها غوته رمزاً لتاريخ العلوم كلها.

في القسم التعليمي تناول الألوان تبعاً لشروط ظروفها على أنها ألوان فيزيولوجية وفيزيائية وكيميائية؛ يلي ذلك ثلاثة فصول أخرى قصيرة، يلخص فيها أهمية الألوان في الطبيعة والحياة الإنسانية ويعتبر علم الألوان أساساً لرمزية ألوان ممكنة. وفي هذا العلم لا يوجد فرق بين العالم الداخلي والعالم الخارجي. فاللون الذي يملأ صدرنا واللون الذي يتجلى لنا هما العالمان الداخلي والخارجي.

يعيب غوته على فيزياء نيوتن أنها عزلت التجارب عن الإنسان، إذا جاز التعبير، فالظواهر اختفت في أعداد، وعين الذي يرى اللون لم تدخل في الحسبان. غوته لم يكن ليستطيع أن يتصوّر عالماً كائناً بذاته ومنفصلاً عن المشاهد. فما كان يهمّه لدى كلّ تأمل في الطبيعة هو لقاء الأنا والأنت، الذات والموضوع،

وإدارك أخوي للنظير.

بعد عودته من البندقية في بداية سنة 1790 نظر مصادفة من خلال موشور إلى جدار أبيض. لم ير أية ألوان. تمتم قائلاً: علم نيوتن خاطيء. وبحسب الشروط التي يظهر فيها اللون للإنسان يميز غوته ثلاثة مظاهر للألوان: فيزيولوجية وفيزيائية وكيميائية.

الألوان الفيزيولوجية تخصّ العين وبهذا تخصّ شواهد المشاهد، فهي تظهر رد فعل العين على المؤثرات الخارجية ويمكنها أن تنتج من طريق إثارة معدومة اللون من الخارج. وبتأثير الضوء والظلام على الشبكية يظهر القانون الأساسي الذي يملأ تأثيره الطبيعة كلها: فالعين تنكمش بالظلام وتتمدد بالضياء. وبتأثير الضياء والظلام

فإنهما نقيضهما على الفور، إنّ شيئاً مظلماً يؤثر في العين زمناً ما، يحمل العين عند زواله على أن ترى الشكل نفسه مضيئاً، وبالعكس.

أما الألوان الكيميائية التي تتبع الشيء المشاهد وتلازمه بصورة دائمة في أغلب الأحيان فتخالف الألوان الفيزيولوجية، فهي موضوعية بأسرها وتنتجها عمليات كيميائية تظهر على أجسام جامدة، فلا تظهر على سطح الجسم المشاهد فحسب، بل تخترقه أيضاً، هنا طوّر غوته المفهوم الأساسي للتصاعد نحو الأحمر.

فالأرجواني شكل الذروة. في العالم الخاص بعلم المعادن لا يوجد إلاّ تصاعد من جهة الأصفر، مثلاً لدى الحديد الذي ينتقل بواسطة التسخين من الأصفر إلى الأزرق عبر الأحمر، هذا وتأخذ الألوان الفيزيائية مكانها بين الألوان الفيزيولوجية والكيميائية. وهذه لا تتبع شخص المشاهد ولا الشيء المشاهد، بل إنها لا تبرز إلاّ بواسطة مواد لا لون لها. ويدخل قبل كل شيء في هذا الباب الألوان الجوية أي تأثيرات الألوان التي يتم إحداثها بأن يرى ضوء الشمس من خلال السديم الجوي أو بأن يشاهد ظلام الفضاء اللامتناهي من خلال السدم التي يضيئها ضوء النهار. نيوتن علّم أنّ الألوان كلها يحتويها الضوء الأبيض، والانكسار في الموشور يقسم الضوء إلى ألوان إفرادية، وكل لون من ألوان الطيف يتحدد طبقاً لذلك بزاوية الانكسار. غوته يؤكد أنّ الانكسار وحده لا يكفي لكي ينتج ألواناً. ظواهر الألوان لا تنتج إلاّ عندما تزاح المسافات أكثر ضياء إزاء مساحات أكثر ظلاماً وبالعكس.

على الحافة فقط حيث يتجاوز الضوء واللاضوء. النير والمظلم، تنشأ الألوان، وتوصل غوته إلى الظاهرتين الأصليتين: –الأبيض فوق الأسود (الانتقال من الأبيض إلى الأسود) أي الكدرة المضاءة أمام الحلكة ينشأ اللون الأزرق، وإذا صارت الكدرة التي نرى من خلالها الحلكة أكثر شفافية تصاعد اللون الأزرق إلى اللون البنفسجي.

– الأسود فوق الأبيض أو الكدرة أمام الضوء ينشأ الأصفر حتى الأحمر. فإذا تكثفت الكدرة التي نرى من خلالها الضوء الأبيض تصاعد اللون الأصفر إلى لون برتقالي.

أما الأخضر فلا يدخل في عداد الظاهرة الأصلية. فهو لا ينشأ إلاّ إذا غطى الإطار الأصفر والإطار الأزرق كل منهما الآخر. وفي الإمكان صنع هذه الألوان حين يثبّت المرء أفقياً شريطاً أبيض على أرضية سوداء، عندها ينشأ من فوق إلى

تحت: فوق تظهر جهة الأصفر (الأسود فوق الأبيض) وتحت جهة الأزرق، وعلى حين يختار المرء عرض الشريط اختياراً مناسباً ويحسن ضبط بعده عن الشريط يستطيع أن يتوصل إلى أنّ الألوان تغطي بعضها بعضاً إلى حدّ ما صوب الوسط، أي أنّ الأصفر من فوق والأزرق من تحت، وبالمزج يحصل المرء على الأخضر ثم على طيف نيوتن: فوق الأحمر فالبرتقالي فالأصفر فالأخضر فالأزرق ثم البنفسجي. وهذه الظاهرة ليست في نظر غوته أصلية، بل مولّدة ولا تحصل إلاّ مصادفة من كلتا الظاهرتين الأصليتين لجهة الأصفر وجهة الأزرق. وفي وسع المرء أن يضع شريطاً أسود على أرضية بيضاء، ففي هذه الحال يظهر من فوق إلى تحت أولاً الأزرق ثم البنفسجي فالأسود ومن ثم بدءاً من الحافة السفلى الأحمر والبرتقالي فالأصفر. ومن اللونين، الأحمر والبنفسجي، ينشأ اللون الذي سماه غوته فيما بعد الأرجواني.

هذا هو الانتقال النبيل للأصفر إلى الأزرق الذي يؤدي إلى الألوان المتصاعدة تصاعداً ضارباً إلى الحمرة. في هذه الألوان: أصفر، أزرق، أخضر، برتقالي، بنفسجي، أرجواني تكتمل دائرة الألوان الغوتية. نيوتن لم يدرك إذاً الروعة لحقيقية لعالم الألوان واكتفى بالجانب الأردأ لأنه قام بتجاربه بشق، أي بشريط فاتح محدد بالظلمة. فالشقوق أو الثقوب في مصراع النافذة تضعف الضوء ولا تسمح بأن تظهر الروعة الكاملة لعالم الألوان.

غوته يسمى الألوان ظاهرة طبيعية أولية لحاسة العين تتجلى مثل بقية الظواهر من خلال عملية الفصل والتضاد والمزج والربط؛ ويؤكد حركية الألوان وتبدلها وسرعة نشوئها واختفائها وارتباطها وانفصالها.

هذا وإنّ هناك علاقة فعلية بين اللون والإحساس؛ فكل لون يؤثر في الوجدان تأثيراً جلياً، والإنسان ينشرح صدره للون بصورة عامة، إنه يحتاج إلى اللون احتياجه إلى الضوء، وكل لون يهيئ لحالة نفسية خاصة تظهر على نحو عفوي: فاللون الأصفر مثلاً له دائماً تأثيرٌ دافيءٌ بهيج يحث على العمل، على حين يحدث اللون الأزرق شيئاً متناقضاً يتمثل في الإثارة والهدوء. فالأثر الشافي الذي كان ينسب للأحجار الكريمة في أزمان سابقة يثبت التأثير العميق في النفس الإنسانية، وفضلاً عن ذلك يتكلم غوته على إمكانيات استعمال جمالي ورمزي للألوان. فالأرجواني رمز للعظمة والجلال، كما أنّ الأخضر يرمز إلى الأمل، وما إلى ذلك.

إنّ ما اكتشفه غوته في ميادين العلوم الطبيعية والطريقة التي نظر بها إليها

وجعلها في متناول يده، لهو من دون شكّ ممتع وذو قيمة باقية إلى حدّ ما. أما الجزء الخالد من آثار غوته فهو العمل الأدبي، مع أنّ بينهما كليهما علاقة متبادلة وتأثيراً متبادلاً.

هذا غيض من فيض؛ ونأمل أن تكون صورة غوته عالم طبيعة قد توحدت في أذهاننا مع صورته شاعراً كبيراً على النحو الذي يقرّبنا منه أكثر وأكثر.

❑

❑ ثبت المراجع والمصادر (باللغة الألمانية)

1- غوته، يوهان فولفغانغ فون: مؤلفات غوته. طبعة هامبورغ في 14 مجلداً. دار نشر كريستيان فاغنر، هامبورغ 1960 (طبعة ثالثة).

المؤلفات في علم الطبيعة: مجلد 13و 14.

2- شتايغر، اميل: غوته في ثلاثة مجلدات. دار نشر أطلانتيس، زيوريخ وفرايبورغ في برايسغا و 1964.

3- شيدر، غريته: الإله والعالم. ثلاثة فصول في نظرة غوته إلى العالم. هاميلن 1947.

4- فيوتور، كارل: نظرة غوته في الإنسان. دار نشر فرانكي، بيرن وميونيخ 1960.

5- موللر- زايدل، فالتر: تاريخية العصر الكلاسيكي الألماني. الأدب وصيغ التفكير في نهاية القرن الثامن عشر. دار نشر ميتسلر، شتوتغارت 1983.

❑❑❑

من قصائد التلاشي

POEMAS DE LA CONSUMACION

1966 - 1965

بيثِنت أليْكسَانْدر

VICENTE ALEIXANDRE

■ ترجمة رفعت عطفة ■

وُلِد في إشبيليا يوم 26 نيسان 1898 وعاش في مالقة، حيث عمل أبوه، مهندساً للسكك الحديدية حتى عام 1909 حين اضطُرّ بسبب مرضه للانتقال إلى مدريد لأنّ هواء البحر لا يواتيه. كان اتصاله الأوّل بالشعر من خلال الشاعر البرغوائي روبن داريو عام 1917 عندما قدّم له الشاعر الإسباني دامسو ألونسو مختارات من شعره فاكتشف في نفسه الشاعر وراح يقرأ لشعراء آخرين مثل أنطونيو ماتشادو، الوحيد الذي حفظ له أشعاراً عن ظهر قلب. احتك بشعراء جيل السابع والعشرين الذي ينتمي إليه من خلال ذات الشاعر داماسو ألونسو وتعّرف على رافائيل ألبرتي خلال معرض فني له أقامه في الأتنئو عام 1922، فقدّموه له كفنان وليس كشاعر.

تعّرف على ف. غ. لوركا ليلة عرض مسرحيته ماريانا بينِدا عام 1927.

من أعماله: نطاق 1928، سيوف كالشفاه 1932، خراب الحبّ 1935، ظلّ الفردوس 1944، ولَهُ الأرض 1935، تاريخ القلب 1954، في مجال رحب 1962 وأخرى غيرها.

حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1977.

II

كلمات الشاعر

ماذا تنتظرُ بَعْدَ الكلماتِ الميتة،
الكلماتِ التي مازالت تُلفظ أو تُقال؟
أوراقاً طيّارة،
مزيداً من الأوراق المبعثرة. من يدري؟
كلمات خَرِبة، مثل صدى أو ضوء يموت هناك في ليل عظيم.

كلُّ شيءٍ ليل عميق.
الموتُ كلماتٌ قيلت
في لحظاتِ المتعة أو الغضبِ،
النشوةِ أو الهجران،
حين تستيقظ الروحُ ويطلّ على العينين
نورٌ أكثر من أيّ صوت خبير.
خبير جاهز بكلماته على الصفحة المفتوحة،
يتكئ إليها أو أنّها تدرك الهواء
مع الصوت وترتاح. ليس بفضيلة قصوى،
لكن بنظام صائب، إذا أرادت.

فهي، الكلمات، تنصاع مطواعة لفضيلته
وترتاحُ وديعةً، جليلةً،
تُطلّ تحت الضوءِ على لسانٍ بشريٍّ
يجهد بالتعبير عنها.
واليد تُقلّص حركتها للعثور عليها،
لا بل: لتكشفها، مجديةً، بينما تبرق، توحي،
حين لا تتبخر خيبةً،
هكذا تبقى أحياناً، تنام،
فضلةَ نهايةِ نارٍ لم تُلمس
إذا ماتت لا تُنسى،
وتخلّف ذاكرة واهنة، ها هي هناك.

كلُّ شيءٍ ليلٌ عميق.
الموتُ نسيانٌ للكلمات، النوابضِ، الزجاج، الغيوم
ليهتم بنظامٍ خفيٍّ نهاراً،
أكيدٍ ليلاً، في هوّة هائلة.
هي ذي الأرض هناك، صارمةٌ
لا تسمح بأي حبٍّ مركزه ناقص؛
ولا بقبلة أخرى لا تكون لها،
ولا بحب آخر غير الحب الذي ينتشر مخنوقاً.

في الليالي العميقة
تلقى الكلمات المهجورة أو الغافية
تجاوياً.
على الورق الطيار، من يعرفها أو
ينساها؟
من يدري؟ ربما رنت ذات مرة، في
قلوب أخوية قليلة.

ساعات مشتتة

كنتُ لسنواتٍ مختلفاً،
أو كنت نفسي. أخطأت إماراتٍ،
إجراءاتٍ وغدةٍ
أو نصراً فريداً، حزناً دائماً.
أحببتُ من لم أبغ حبَّهُ. وكرهتُ من
كان لي.
سوراً، كان البحر، ربما جسراً خفيفاً.
لا أدري هل عرفت نفسي أم تعلمت
جهلها.
إذا احترمت الأسماك، الفضة الحية
في الساعات،
أو أنني حاولت السيطرة على النور.
هنا كلمات ميتة.
نهضت باضطرام، سكت بظل متأخراً.
اضطرمت بنهم. أنشدت رماداً.
وإذا ما أدخلت وجهاً في الماء فأنا
لم أعرف نفسي. نرسيس حزين.
رويت ظروفاً. لعنت فضاءات
وقدمت مادة موسيقاها الباطلة
بإيماءة مركزة، دون أن أدري
بوجودها.
أردت شرب ظلها بين الحشود،
كمن يشرب ماء صحراء خادِع.
نخيل... بلى أُغنّي. لكن أحداً لا
يُصغي.
والكثبانُ الرمالُ تنبض بلا حلم.
زيفاً أُصْغي أحياناً إلى ظلّ يجري
في جسد متبجّح. أو أبصق وحيداً.
"احترقْ."
لكنّني لا أحترق. أنام، أنام... آهّ!
انتهِ."

II

الماضي:
"بيت ريفي نقي"

هنا في البيت الصغير،
ثلاث أشجار أمامه، الباب منتصب،
الصوت:
كلّ شيء يدوم، أو ميت
حين أعبُر. أتذكَّر: "بيت ريفي نقي".

نقيٌّ مَم؛ من الريح
هنا نهضَ هذا الطفلُ
بالرجفةِ.
هنا نظر إلى الرمل الميت،
إلى الطين مثل قفّاز،
الضوء مثل وجنتين شاحبتين،
والذهب العتيق
يمنح في الشّعر قبلة
بلا بارحة. اليوم. غداً.
الأوراق سقطت، أو أنّها صعدت اليومَ
من الأرض إلى الشجرة
وما زالت تتظاهر بالوله، الوجود، الحفيف.
وأعبُر فلا تمنحُ ظلاً،
هي موجودة. ولا دخان.

أسهر. أعيش.
لا أستطيعُ،
عليّ ألاَ أتذكّر.
لا شيء يحيا. ستارة تحرّكها الريحُ
ولا وجود لها. واصمتُ.

كالبحر، القبلاتُ

لا تهمّ الشعاراتُ
ولا الكلمات الفارغة؛ هي مجرَّدُ هبّة ريح.
يهمّ صدى ما سمعتُ وإليه أصغي.
صوتك الذي بموته يحيا، مثلي حين أعبر من هنا
وما أزال أكلّمك.

كنتِ أكثر تماسكاً،
ديمومةً،
ليس لأنّني قبلتُك
أو لأنّني أمسكتُ بالوجود راسخاً فيك.
بل لأنّك كالبحر يغوص خائفاً بعد أن يغزو الرمل.
بالخضرةِ أو بالزبدِ يبتعدُ البحرُ مبتهجاً.
وكما ذهبَ وعاد أنتِ لا تعودين أبداً.
ربّما لأنّني لم أستطع العثورَ عليكِ
متدحرجةً على شاطئ بلا نهاية.
آثار زبدك تبقى على الحواف
حين يذهبُ الماء.

لا أجدُ غير الحواف. غير حدِّ

الصوتِ الذي بقِي فيَّ.
كالطحلبِ قبلاتك.
ساحرة في الضوء، ميتةً تعودُ.

رؤى فتِيَّة
من أعوام أخرى

تتلاشى الكلماتُ التي تقول موتاً، ذهولاً
حين تولد.
كما بين صوتين، هناك قبلة أو همسٌ
المعرفة ضحك، والسَحَرُ يضحَك.
يضحك، فالأرضُ صدرٌ يخفقُ مختلجاً.
قهقهة كلّية هي ليست صوتاً بل حياة،
أنواراً تصّاعد من شيء، صدرٍ: الكوكب.
جسدٌ بهيجٌ. لا همّ ما يحملُ،
بل نبضه في الفضاء،
مثل طفل طافٍ، مثل طفلٍ في السعادة.
هكذا نظرَ الفتى فرأى العالمَ حرّاً.
ربّما بين قبلتين،
ربّما في حضن القبلة:
هذا ما شعر به بين شفتين.
كانت ضحكةً بليلةً، منه أو من العالم.

لكنّ العالم يدوم،
ليس بين شفتين فقط: القبلةُ تنتهي.
لكنّ العالم يدور،
حرّاً، بلى، مثل قبلة،
حتى بعد موته.

كلمات قليلة

كلماتٌ قليلة
سأهمسُ بها لك. قليل هو إيمان الإنسان المتردّد.
العيش طويلاً مُعتم. فجأة وإذا بالمعرفة ليست معرفةً بالذات.
ومع ذلك سأقول. فعيناي تردّدان ما تنسخان:
جمالك، اسمك، صوت النهر، الغابة، والروح على انفراد.

رأتا كلّ شيء وامتلكتاه. هذا ما تقولُهُ العينان.

تردّان على من يراهما، لكنّهما لا تسألان أبداً.
لأنّهما إذا كانتا تأخذان من النورِ
اللونَ، من الطين الذهبَ،
ومن المذاق كلّه الثقلَ الثاقب،
فإنّهما لا تجهلان القُبَلَ، الهمسَ، ولا الأريج.
فقد رأتا أشجاراً ضخمة، همساً صامتاً،
نيراناً مطفَأة، جذواتٍ، شرايين، رماداً،
والبحرَ، البحر حتى القاع، بأشواكه البطيئة،
بقايا الأجسام الجميلة فيه تُعيدها الشواطئ.

قليلاً من الكلمات، بينما يسكت آخر،
كلمات الريح في الأوراق وأنا أُقبِّل شفتيكِ.
بعض الكلمات الواضحة، بينما أغفو في حضنك.
بينما يُسمع الماءُ في الصخر. بينما ساكناً أنا ميت.

أخيراً

كلمة أخرى ويكون وقعها في غير محله.
الصدى أحياناً مثل أغنية مفاجئة.
وفي أخرى تشتعل مثل الصوفان.
أحياناً لها صوتُ الأشجار الهائلة في الظل.
خفق أجنحة فسيحة: نسور، اندفاع، خفق، عروش.
ثم أضواء إلى الأعلى.
أضواء أكثر أو ظلّ مباغت.
الصوت المبعثَر وصمت العالم.
حزن الفجوة بلا حواف.
وفجأة الكلمة الأخيرة،
دغدغة الماء في الفم الظامئ،
أو القطرة الناعمة في العينين الضريرتين
المحروقتين بالحياة ونيرانها.
آهٍ كم من السلام هو الحلم.

❑❑❑

■ بيثنت ألكساندر ■

قُرب السكة الحديد
مقاطع من قصيدة طويلة

ايغور شكلياز فيسكي

■ ت: يوسف ضمره ■

ولد الشاعر عام 1938م في "بيلوروسيا". وقد (سقطتْ) طفولته في جحيم الحرب، وما تلاها.

أصدر كتابه الأول -أنا قادم- في مدينة (مينْسك) عام 1962م.

تخرج من معهد غوركي للآداب في موسكو. أصبح عضواً في اتحاد الكتاب السوفييت عام 1964م. أي أثناء دراسته في معهد غوركي، وذلك عندما بلغ الخامسة والعشرين من العمر.

صدر له ما يقرب من عشرين كتاباً شعرياً. بالإضافة إلى بعض الروايات القصيرة. وبعض الترجمات من لغته الأم (بيلوروسيا).

فاز بجائزة الدولة عام 1987م، وذلك عن ديوانه الشعري (أُصغي للسماء والأرض) يُقاتل شعرياً واجتماعياً وصحفياً للحفاظ على الطبيعة المفتون بها.

هذه المقطوعات التي نقدمها الآن، هي متفرقات من قصيدة طويلة كتبها عام

1983، وصدرت تحت عنوان (كلمة حول السلام).

المصدر: مجلة الأدب السوفييتي- النسخة الإنجليزية- العدد [9]- 1988م

-1-

تصحو في العتمة
وحيداً تماماً
فرحاً كطفلٍ بعد يقظته الطازجه
لكن وعد العاصفه
صارمٌ وقوي
تشعر الآن بقدرةٍ على البكاء

***

كم هي حلوةٌ روائح العُشب البريّ
في الليل الدافئ
حالاً تنفتح الأبواب في المدى
وتلتهبُ الآفاقُ بالضوء
مَنْ يقدر الآن،
أن يقدم العون لك؟؟
فتأمل!!!

***

وحاول
أن تستعيد هواء الطفولة

ذلك البيت قرب السكة الحديد
وغلاماً في قميصٍ أبيض
يحمل جزَّة العشب إلى "المتبن"،
البارد الغامض

***

وبينما الريح
تصرخ من مصَّب النافذة
فلتصرخ أنت مع الفرح
لأن الوقت ما "فات" بعد
وأصرخ مع الحزن
حيث قطارك سوف يظل منتظراً
حتى تُخبئ العجلاتُ تلك الصلصلة

-2-

لا أقدر أن أستعيد الآن
شجرةً من البتولا... وحيدةً تماماً

ولا أذكرُ الآن
غيمةً واحدةً
تعبر الغيوم السماء
في رفيفٍ ناعم
تكبر الآن... قاتمةً وتُضيء
وأغلقُ عينيّ...
أشجار البتولا
والحور
وغيوم الثلج
وضفاف الغيم الرعدي
تطير كُلها
تزمجرُ
تتسابُ وتطفو
تمتزج معاً... لكن
شجرةً وحيدةً من البتولا
لا تجيء إلي
ولا أذكر الآن أبداً،
غيمةً مُفردة

-3-

فجرٌ يأتي في غلالة الضباب
آثارٌ لطائر (الوشق) على الرمل
حول العوسجِ
قرب النافذة
يتسلل الضوء إلى الغرب
كأن (الوشق) المسكين
يحمل نحو البعيد البعيد... قصائدي
العصافير خفيفةٌ وحُرةٌ كالريح
وبشكلٍ ما
أشعر أن هواء حُراً
يندفع إلى جانبها
يطلب أجسادها الرشيقة،
في اندفاعها العفوي
ومن الأرض إلى السماء
يصّاعد الماء
وألق الأجنحة الزرقاء

يُضيء الشمس
وطوفان الماء
يجرف الأعشاش إلى البحر
تحليق الطيور
انطلاقٌ موغلٌ في المدى

لا بحثاً عن قصبةٍ مُدَجَّنه

-5-

هنالك شيء ما
أحبه في الغيم
حتى الغيم الرعدي جميل
بحيرةٌ بيضوية صغيره
أو آذارٌ مجفّفٌ أعرفه تماماً

***

في وقار جميل
تعوم الغيمةُ في السماء
وفي حزنٍ تسّاقط فجأة
كأنّها تودُ استعادة الأيام...
ألم تكن على الأرض منذ عام؟

***

غيمةٌ رعدية
تسلكُ الآن هذه الطريقْ
كأنهـا عرفـتْ ذلـك الجـرف المطوق،
بالصفصاف الباكي
حيث استلقتْ ذات يومٍ... هناك

-6-

ضحكاتُ النساء
تقرع الآفاق
يصرخ الصدى
عالياً في السَّما
وطير (الزقزاق) يبكي،
حزيناً في الحقول
ضاحكةٌ أصداء الطائراتِ،
ولا تبكي.

***

تحت شجرة الأناناس
مقعد وحيد
يُشاركني المتعة والحزن
والهواء الربيعيُّ دافئٌ
باردٌ... متى يشاء
يكتم الضجيج بشكلٍ فتّان

***

أُصغي للأسى
وللفرح
لأصوات السماء
والأرض

أقتعد الأرض مفتوناً

وأشرب من أي سراب...

-7-

حلم طفولي:

شارع خالٍ

شمسٌ جالسة

تقذفُ نحو ساحتنا الخالية

بآخر ضوءٍ حزين

وفي الجوارِ،

لا أحد...

والصوتُ الوحيد:

إيقاع أقدامنا الخفيف

***

لقد ارتديتِ ملابس الكبار،

حسناً... تليق بكِ...

تعالي نمر بالمدرسةِ الخالية

لا أحدٌ يزعجكِ الآن من الخلف

لا مــن ينتقــد المعطــف الــذي ترتدين

أو يطالبك الآن بإسدال الضفائر

***

تقــــوديني إلــــى الرســــومات الملصقة على الحجر

وفـي وحـدةٍ شـمولية نُصـغي فـي القيظ

إلى طقطقة العجين

والهواء الساخن في الطريق،

عالياً يصَّاعد في الأفق

تعاسةُ الحيوانات

تغرم قلبينا الفتيّين

رغم أنا

لم نفقدْ بعدُ ما هو وُديّ...

خرير جداول

وننحني فجأة

لنبالةٍ تنعكس في العيون

تجيء مباشرةِ من الكون

-8-

أصحو على رنين الإوَزْ

برودةٌ مُشعة في كل مكان

وصقيع

وأنا...

أنام حتى رنين الإوز

وجعٌ لا حدود له
لهواءٍ لا يُحد
ليلاً ونهاراً
يواصل الإوز القطبي الرنين
يطير من الشمال
سريعاً
سريعاً...
ألا تُصغي لمفاصل الأبواب التي تتأوه
في البيت القديم
بعد ذاك الغياب الطويل؟
فقط...
لو تحضر لي قطعة خبز باردة
ممزوجة برائحة السماوات والدمع...

-9-

رأيتُ الخرائب والدمار
الأرض اليباب
الطائرات في عتمة الحرب
تُطفيء في حقول الوحشة الشاملة
الضوء الوحيد
في منزلٍ وحيد
رأيتُ أمي
في نحولها تُشعل الصوفان
باحتكاك الفولاذ والصوّان
آنذاك...
شيء واحد كان يملؤني احتراماً...
الأعماق الزرقُ للسماء

***

كان العالم كله
مُزنَّراً بغيوم الرعد
بدت السماء فوقي
ذاهبةً إلى التلاشي
وبعقلي
بقسوةٍ أحاطت الأسلاك
فأصبتُ مثل فراشةٍ،
بالأذى...

-10-

ثلجٌ كثيف

ما زال يغطي الحقول
لكن الطيور
أزواجاً أزواجاً تصرخ في جنون
فوق الأشجار العارية
وغُرابان
يطيران في المدى
غبيانِ،
رشيقان
يشُقّان زرقة السماء
ونحن الاثنان
نسير نحو الضوء الأزرق-الرمادي الملطخ
حيث في رقةٍ تمسَسْهُ السماءُ
والطرقات...
ألا تملك أرضنا
تناغماً خاصاً بها؟؟؟!

-11-

حين يفر الإوز من البحيرة
وتمخر الغيوم السود زرقة السماء
تملؤني متعة عالية
فأشعل فوق الهضبة
نيران وحدتي
تطير الشرارات فوق رأسي
وتعلقُ الرقائق الناريةُ
في الهواء
وبعد وقتٍ طويل
يجيء دفءُ الرماد

يظل حياً فيَّ وإنْ مات

***

استرخي هنا
دون جرأةٍ على الذهاب
رمادٌ مَنْ ذاك الساقط على كتفي؟...
أرثي أناساً مضوا من زمانٍ بعيد
ولا أنادي،
أولئك الذين عرفتهم...

❑❑❑

القصـــــة

1-سنة الطبيعة، جاك لندن ، ت: راتب مصطفى رسلان
2-الرجل البدين، ريموند كارفر ت:محسن الخفاجي
3-الروح خالدة، فاسيلي بيلوف، ت: عاطف كامل أبو جمرة
4-التنبل، ألفريد أرندرش، ت:عدنان حبّال.
5-جريمـة شـارع بلانشـار الغامضـة، تـأليف :كـاميلو خوسـيه ثـيلا ، ت. علي أشقر.
6- الحبل، كاترين آن بورتر، ترجمة: إياد حسن جبير.
7- الأسير، راديارد كيبلينغ، ترجمة: ترفيق الأسدي.
8- النزهـــة القصـــيرة للســـيد لوفـــداي، قصـــة: إيفلـــين واو- ترجمة: أسعد الصالح.

❒

سُـــــــــنَّة الطبيعـــة[2]

THE WAL OF LIFE

■ ت: راتب مصطفى رسلان ■

جاك لندن

JACK LOINDON

جاك لندن كاتب قصصي وروائي أمريكي. ولد سنة 1876 وتوفي سنة 1916. من أشهر أعماله: (ابن الذئب، مجموعة قصصية 1900)، و(نداء الجذور، 1903) و(ذئب البحار، 1905) و(العقب الحديدي، 1907) و(حكايات جرت في البحر الجنوبي، 1911). أكسبت أسفاره الكثيرة كبحار عادي وذكرياته في مناطق الألاسكا قصصه أطراً وأفكاراً مستمدة من فكر نيتشه وماركس وداروين "البقاء للأقوى"، وزودته النظرية الطبيعية –الاصطفاء الطبيعي للأجناس– بالمادة الفكرية لأعماله. تتحدث معظم قصصه عن البحار والسفن وعن أراضي القطب الشمالي المتجمدة. تتحدث هذه القصة عن مجموعة من الهنود الذين عاشوا في القطب الشمالي المتجمد. هذه القصة –سنة الطبيعة– معدة بإنكليزية خاصة.

كان (كوسكوش)، الرجل الهندي الهرم، والزعيم السابق لقبيلته، جالساً على الثلج. كل مايستطيع فعله الآن هو الجلوس والإصغاء للآخرين. لقد ضعف بصره كثيراً بحكم سنه، لكن سمعه لايزال حاداً. آه! ذلك صوت حفيدته من ابنته –(سيتكوم

[2] العنوان الأصلي للقصة the Low of Life وترجمته الحرفية "قانون الحياة"،وارتأيت ترجمته "سنة الطبيعة" نظراً لما يفيدنا به المغزى العام للقصة.

توها). إنها تضرب الكلاب جاهدةً لجعلها تقف أمام الزلاجات الثلجية من أجل تسريجها. لقد نسيت جدها مثلما نسيه الآخرون أيضاً. اضطرت القبيلة للبحث عن أراضٍ جديدةٍ للصيد. ثم تأجيلُ هذه الرحلة الثلجية طويلاً، والأيام تمرُّ بطيئةً موحشةً في القطب الشمالي. لم تستطع القبيلة أن تنتظر قدوم الموت، وكوسكوش كان يحتضر.

أوحت طقطقة جلود الحيوانات المتجمدة لكوسكوش أن خيمة الزعيم قيد الإزالة. الزعيم هو ابن (كوسكوش)، وهو صياد جبار، بينما يترك والده ليموت هنا وحيداً! استطاع كوسكوش أن يسمع صوت ابنه يحث النساء على عدم التقاعس في العمل، وأنصت باهتمام لأنها المرة الأخيرة التي يسمع فيها صوت ابنه، وسمع بعدها أنين طفل صغير، ومناغاة إحدى النسوة لتهدئته. لابد أنه (كوتي)، إنه ولد مريض، وسيموت قريباً، وسيحرق رجال القبيلة حفرة في الأرض الجليدية لدفنه فيها. ثم سيغطون جسمه الصغير بالحجارة لمنع الذئاب من الاقتراب منه. حسناً، مافائدة حياتنا؟ تمر بضع سنوات وفي النهاية نموت. الموت يتربص بنا، فاتحاً فاه جوعاً. ولاعجب في ذلك فالموت له بطن أشره من بطون جميع الكائنات الأخرى.

أنصت (كوسكوش) لأصوات أخرى: صوت الحبال الجلدية المتينة الملتفة على الزلاجات لتثبيت أمتعة الرجال؛ أصوات السياط الجلدية اللاسعة تحث الكلاب على التحرك وجر الزلاجات. آه! أسمع أنين الكلاب من وطأ ذلك! الآن يرحلون! وفي هدأة صمت الليل المهيب تحركت الزلاجات واحدة تلو الأخرى. لقد خرجوا من حياته وتركوه وحيداً يواجه آخر ساعة مريرة له على وجه الأرض. لكن ماهذا الصوت؟ الثلج يرتصّ تحت وطء حذاء أحدهم. وقف رجل إلى جانبه ووضع يده بلطف على رأسه الهرم؛ لقد كان ابنه "البار". في تلك اللحظة ذهب خيال (كوسكوش) إلى الماضي حيث كان الأبناء يتركون آباءهم الهرمين بدون وداعٍ. لم يوقظه إلا صوت ابنه:

سأله الابن: "هل تسير الأمور على مايرام؟"

أجاب (كوسكوش) العجوز: "نعم، تسير الأمور على مايرام.."

قال الابن: "الحطب إلى جانبك وهاهي ألسنة اللهب تضطرم، الصباح رمادي، والبرد قادم. ستثلج السماء، لا بل إنها تثلج الآن".

أجاب الأب: "نعم، إنها تثلج الآن.."

ردّ الابن: "رجال القبيلة مستعجلون، بأحمالهم الثقيلة، وبطونهم الخاوية، إنهم يرحلون بسرعة لأن الطريق طويل. أنا راحل الآن. هل كل شيء على مايرام؟"

"كل شيء على مايرام... أنا مثل ورقة في آخر سنة لها تلتصق بالشجرة، ومع هبوب أول نسمة سأهوي أرضاً. صوتي مبحوح كصوت المرأة الحيزبون، ولم تعد عيناي تبصران موطئ الخطوة التالية لقدميّ. لقد انتهيت يابني.. نعم، كل شيء على مايرام!؟"

أحنى (كوسكوش) رأسه على صدره وأنصت لوقع خطا ابنه على الثلج فيما كان يرحل. مدّ يده وتحسس الحطب إلى جانبه عوداً تلو الآخر، وفي قرارة نفسه كان يعلم أن النار ستلتهمهم جمعياً، وخطوة فخطوة سيكتنفه الموت، وعندما تحترق آخر حطبة، سيهاجمه البرد: في البداية ستتجمد قدماه، ومن ثم يداه، وسيسري الخدر بتؤدة من الأطراف إلى الأحشاء، وبعدها سيرتاح. الأمر بسيط، فكل الرجال سيموتون.

شعر (كوسكوش) بالأسى، لكنه لم يفكر بمصدر هذا الأسى فقد كانت تلك سنة الطبيعة! إنه ابن هذه الأرض، ولم يكن هذا المصير جديداً بالنسبة إليه. إنه مصير كل حيّ، والطبيعة لاتتعاطف مع الأحياء، ولاتكترث بالفرد أبداً، فجلّ اهتمامها منصبّ على التجمعات والسلالات والأجناس. إنها فكرة مبهمة بالنسبة للعجوز (كوسكوش)، لكن عقله البسيط استطاع إدراكها. لقد شاهد أمثلة حيّة على ذلك خلال مسيرة حياته: تكوّن النسغ البسيط في الصباح الباكر، ومن ثم تفتح الأوراق الخضراء، ناعمة الملمس كالبشرة النضرة، فسقوط الأوراق الصفراء اليابسة. في ذلك تتجسد مسيرة الحياة كلها، لقد حددت الطبيعة للفرد مهمة واحدة؛ إذا لم يؤدها، يموت. وإن أدّاها، فالأمر سيان، يموت أيضاً! الطبيعة لاتعبأ بأحد؛ فثمة أناس كثيرون كانوا مطيعين، لكن هذه الطاعة لم تمنع عنهم الموت، فقبيلة كوسكوش قبيلة عريقة، عرف فيها رجالاً هرمين كما عرف آباؤه هرمين آخرين من قبل، وبالتالي فإن عيش القبيلة في الماضي وانصياح كامل أفرادها للطبيعة ضارب في القدم، لكن معالم وجودهم ومواطن استقرارهم ذهبت الآن مع الريح. لم يحسبوا أيام حياتهم لأنها كانت مجرد سلسلة من الحوادث، وكان رحيلهم أشبه برحيل الغيوم من سماء الصيف، وكوسكوش نفسه مجرد حادثة عابرة، وسيرحل أيضاً. لم تكترث الطبيعة

بأحد؛ لقد حددت هدفاً واحداً للحياة لكنها قيدتها بقانون: هدف الحياة الخلود. ولكن هيهات! فالموت يحكمها.

وهاك مثالاً آخر عن قسوة الطبيعة: الفتاة العذراء مخلوق جذاب ملفت للنظر؛ بفتوتها وشموخ صدرها، ورشاقة جسدها، وبريق عينيها، لكن مهمتها الأزلية ماثلة أمامها: يشرق النور في عينيها، تتسارع خطواتها، لتصبح أكثر جرأة وأرقّ فؤاداً مع فتيان القبيلة، وتهبهم من هيجان عاطفتها دائماً لتزداد جمالاً في عيون الناظرين، حتى يأتي أقلّ الصيادين قدرةً على ضبط عواطفه ويأخذها إلى خيمته لتطبخ له ولتخدمه ولتصبح أمّاً لأطفاله. ومع مجيء ذريتها، يتلاشى جمالها: تضمر أضلعها وتجرّ بعضها بعضاً، ليخبو السحر في عينيها، ويكون مرح الأطفال قرب النار العزاء الوحيد لخدود المرأة الهندية العجوز الذابلة، لقد أدت وظيفتها، وبعد فترة قصيرة، مع أول وخزة من وخزات المجاعة، أو أول رحيل مفاجئ للقبيلة، ستترك هذه المرأة في وحشة الثلج وحيدة، كما تُركت أنا، مع كومة ضئيلة من الحطب. ذلك هو القانون!

أذكى (كوسكوش)، زعيم القبيلة السابق، النار بعود آخر من الحطب وبدأ يجترّ ذكرياته، تذكر كيف ترك والده في أعالي قمم جبل (الكوندايك) في أحد فصول الشتاء يواجه حتفه وحيداً.

مرت على (كوسكوش) أيامٌ وفيرة الطعام والراحة والمرح حيث كانت البطون متخمة، بل إنّ الطعام تُرك ليفسد ويتعفن، في تلك الأيام كانت الحيوانات ترعى في مضاربهم آمنة مطمئنة، وحتى النساء كنّ مخصبات وأنجبن الكثير من الأطفال، كما عاصر لسبع سنوات أوقات ندرة الطعام وخواء البطون؛ حين اختفى السمك وتَعَذَّرَ صيد الطرائد.

تذكر أيضاً، عندما كان غلاماً صغيراً، كيف افترست الذئاب أحد الأيائل القطبية الشمالية. كان معه صديقه (زينجها)، الذي قتل فيما بعد في نهر (اليوكون). آه! يالقصة ذاك الأيل:

في ذلك اليوم خرج (كوسكوش) و (زينجها) للعب عندما شاهدا على حافة النهر آثار خطوات أيل حديثة.

قال (زينجها): "إنها خطوات أيل عجوزٍ، لايستطيع أن يركض كالآخرين، إنه متخلف عن أخوته بحيث فصلته الذئاب عن الأيائل الأخرى، ولن تتركه أبداً".

وكان الأمر كذلك، لم تتوقف الذئاب ليل نهار عن نهش أنفه وعضّ قدميه، ومكثت معه حتى النهاية.

شعر (زينجها) و(كوسكوش) بسرعة جريان الدم في عروقهما فالنهاية ستكون مشهداً يستحق المتابعة!

تقفيا أثر خطوات الأيل والذئاب، وكل خطوة روت لهم قصة مختلفة، رأوا المأساة بكامل تفاصيلها، هذا هو المكان الذي توقف فيه الأيل ليبدأ القتال، كانت سماكة الثلج ثلاثة أقدام، ضرب الأيل أحد الذئاب بحافره الثقيل فصرعه على الفور.

وشاهدا أيضاً كيف حاول الأيل جاهداً الفرار عبر صعود التلة، لكن الذئاب انقضت عليه من الخلف، فتقهقر الأيل وسقط ساحقاً اثنين منهم، كان واضحاً أن النهاية قاب قوسين أو أدنى، فالطريق تخضب بدم الأيل، وسمع كوسكوش وزينجها أصوات هدير المعركة –لم يكن ذلك الصياح عواء هازجاً للذئاب مجتمعة، بل حشرجة وحوشٍ تنهش لحم فريستها.

زحف كل من (كوسكوش) و(زينجها) على بطنه خشية الذئاب، وشاهدا النهاية بأم أعينهما. كانت النهاية صورة مؤثرة لازمت كوسكوش طوال حياته، تراءت الآن لعينيه الباهتتين الكليلتين كما رآها مع زينجها في الماضي الغابر.

تأمل (كوسكوش) ماضيه لفترة طويلة، حتى خمدت النار وتغلغل البرد في عظامه. أذكى النار هذه المرة بعودي حطب، تاركاً عودين ستكون حياته رهينة بهما. آه! لو تتذكر (سيتكوم توها) جدها الآن، وتعود حاملة ملء ذراعيها حطباً، عند ذلك ستطول ساعاته المتبقية، وسيكون الأمر يسيراً، لكنها كانت دائماً طفلة لا مبالية، ولم تحترم أجدادها منذ أن وقعت عينا (بيفر) –حفيد (زينجها)– عليها للمرة الأولى. لكن ماجدوى هذا الكلام الآن؟ ألم يفعل (كوسكوش) الشيء ذاته في شبابه المنصرم؟ أعار (كوسكوش) سمعه لوهلة للسكون المطبق، ربما يرق قلب ابنه ويعود مع القافلة ليحمله إلى حيث ترعى الأيائل المترهلة بكثرة.

أرهف (كوسكوش) سمعه، وهدأ عقله المضطرب للحظة، لم يبد أية حركة على الإطلاق، تنفس في غمرة السكون المهيب، إنها عزلة رهيبة. وضع إحدى قطعتي الحطب الأخيرتين فوق النار. أنصت! أي صوت غريب هذا؟ أتراه يصدر عن احتراق الحطب في النار؟ لا، إنه ليس الحطب! سرت القشعريرة في جسده عندما

عرف الصوت.. الذئاب قادمة! أعادت صرخة أحد الذئاب إلى ذهن (كوسكوش) صورة الأيل الهرم الممزق جسده إلى أشلاء يتقاطر منها دم قان على الثلج، خَضَّبَ العظام المجرومة رمادية اللون لكن بعد أن جمد. كما تراءت له أشكال الذئاب الغبراء المندفعة بعيون براقة، وألسنة طويلة سال لعابها، وأنياب حادة وهي تقترب منه بحذر بطيء لتكمل الحلقة من حوله.

داعبت أنفه هبة هواء باردة ورطبة، وعلى إثرها انتفضت روحه واستيقظت. امتدت يده إلى النار وسحبت منها عوداً مشتعلاً. شاهد الذئاب النار لكنه لم يخف، بل استدار وأصدر عواء في الفضاء دعا به أخوته الذئاب. لبَّت الذئاب نداء الجوع وقدمت مسرعة.

أصغى الهندي العجوز للذئاب الجائعة وهي تشكل حلقة حوله وحول ناره الضئيلة. لوَّح (كوسكوش) بالعود المشتعل. لكن الذئاب اللاهثة لم تتحرك من مكانها. بل إن أحدها أخذ يقترب أكثر كما لو أنه يريد أن يبلوَ قوة هذا الرجل العجوز، تقدم الثاني، وتبعه الثالث؛ كما لو أن فكرة التراجع كانت مستبعدة تماماً.

لماذا علي أن أقاتل؟ وعلام أتشبث بالحياة؟ سأل (كوسكوش) نفسه، وأفلت العود المشتعل، ليسقط من يده ولتخمد ناره في الثلج. كانت حلقة الذئاب تضيق عليه أكثر فأكثر، حين قفزت إلى مخيلته صورة الأيل أثناء معركته الخاسرة. فطأطأ (كوسكوش) برأسه على ركبتيه:

ما الذي سأجنيه إن قاتلت؟ أليست هذه سنَّة الطبيعة؟

❑❑❑

الرجل البدين

ريموندكارفر

■ ترجمة. محسن الخفاجي ■

أجلس الآن قرب سجائري وقهوتي مع صديقتي ريتا، وأنا أحدثها عن ذلك، وهذا ما أخبرتها به. كان الوقت متأخراً من يوم أربعاء بطيء عندما أجلس (هيرب) الرجل البدين في موضعي كان أسمن رجل رأيته حتى الآن، وإن كان أنيق المظهر وحسن الهندام بما فيه الكفاية. كان كل شيء فيه كبيراً، ولكن ما أتذكره جيداً هو أصابعه، طويلة، ثخينة، أصابع لدنة.

كان عليّ الاعتناء بالمناضد الأخرى، مجموعة من أربعة رجال أعمال، متطلبين جداً، ومجموعة أخرى من أربعة أشخاص، ثلاثة رجال وامرأة، وهذان الزوجان العجوزان، وصبَّ (ليندر) الماء للرجل البدين، وأعطيت الرجل الوقت الكافي ليقرر ما سيطلبه.

قلت: مساء الخير. هل أستطيع أن أخدمك؟

كان ضخماً يا ريتا، وأعني ضخماً حقاً.

قال: مساء الخير. مرحباً، نعم، أعتقد أني جاهز لأطلب الطعام الآن.

كانت له طريقة الكلام هذه. أنتِ تعرفين. وكان يصدر صوت نفخ بين الحين والآخر.

–أعتقد أننا سنبدأ بسلطة القيصر، ثم بإناء من الحساء وخبز إضافي مع الزبد، إذا سمحت، يخنة لحم العجل، كما أعتقد.

ثم قال:

–وبطاطا مشوية بالكريمة الحامضة، ثم سنرى بخصوص الحلويات لاحقاً، أشكرك جداً. قال ذلك وسلمّني قائمة الطعام. أسرعت إلى المطبخ، وطلبت من (رودي) أن يجهّز الطلب، والذي استقبل ذلك بتجهم أنت تعرفين (رودي). إنه يكون هكذا حين يعمل وما إن خرجت من المطبخ قالت لي (مارجو) –أنتِ تعرفين (مارجو) تلك التي تلاحق (رودي).

–من هو صديقك، البدين هذا؟ إنه بدين حقاً. لأن هذا جانب من الأمر. أعتقد أنه جزء من الأمر حقاً.

وضعت (سلطة القيصر) على منضدته، وهو يراقب كل حركة مني. أثناء ذلك كان يقوم بمد الزبدة على الخبز ويضعها جانباً، ويصدر الصوت النافخ طوال الوقت. على أية حال، كنت متكيّفة مع الأمر، وشيء من هذا القبيل، ودلقت كأس الماء خاصته.

قلت: أنا آسفة، إن ذلك يحدث دائماً حين يكون المرء على عجلة. أنا آسفة جداً هل أنت على ما يرام؟ سأجعل الصبي ينظف ذلك في الحال.

قال: لم يحدث شيء كل شيء على ما يرام، ونَفخَ، لا تقلقي بشأن ذلك، فنحن لا نهتم –وابتسم ملّوحاً– ما إن ذهبت لأنادي ليندر، وعندما عدت لكي أقدم السلطة، لاحظت أن الرجل البدين قد أكل كل الخبز والزبدة، وكان قد أنهى سلطته عندما جئت بمزيد من الخبز بعد قليل، وأنتِ تعرفين حجم إناء (سلطة القيصر) تلك.

قال: أنت لطيفة جداً، فهذا الخبز شهي جداً.

قلت: أشكرك.

قال: حسناً، إنه جيد جداً، ونحن نقصد ذلك حقاً، نحن لا نستمتع بخبز كهذا دائماً.

وسألته: من أين أنت؟ لا أعتقد أني رأيتك سابقاً.

فليس هو بالرجل الذي يمكنك أن تنسينه بسهولة، وضحكت (ريتا) ضحكة صغيرة مكبوتة.

قال: من دنفر

لم أقل شيئاً آخر عن الموضوع كي لا يظن أني فضولية.

قلت: سيكون الحساء جاهزاً خلال بضع دقائق يا سيدي.

وذهبت إلى مجموعتي الرباعية من رجال الأعمال المتطلبين جداً. وحين قدمت حساءه لاحظت أن الخبز قد اختفى مجدداً، وكان يضع آخر قطعة من الخبز في فمه.

قال: صدقيني. نحن لا نأكل هكذا طوال الوقت. قال ذلك ونفخ، قال: عليك أن تعذرينا

قلت: لا تفكر في ذلك مطلقاً. أفضّل رؤية رجل يأكل ويستمتع بالأكل.

قال: لا أعرف. ماذا يمكن أن تسمي ذلك، ونفخ، وعدّل من وضع منديل المائدة، ثم التقط ملعقته.

قال (ليندر): يا الله، إنه بدين

قلت: إن الأمر ليس بيده لذلك فعليك أن تصمت.

ووضعت سلة خبز ومزيداً من الزبدة. قلت: كيف وجدتَ الحساء؟

قال: أشكرك. كان جيداً، جيداً جداً، ومسحَ شفتيه وذقنه، هل تظنين أن الجو دافئ أم أني أشعر بالدفء فقط؟

قلت: كلا إنها دافئة هنا.

قال: ربما سنخلع معطفنا.

قلت: تفضل واخلعه. إن المرء يجب أن يكون مرتاحاً.

قال: ذلك صحيح. صحيح جداً جداً.

ولكني رأيت بعد فترة قليلة أنه ما زال مرتدياً معطفه.

ذهبت المجموعات الكبيرة الآن والزوجان العجوزان، وأصبح المكان خالياً، وأثناء تقديمي يخنة لحم العجل والبطاطا المشوية مع الخبز والزبدة الإضافية، وبقي لوحده في المطعم.

وسكبت كثيراً من الكريمة الحامضة فوق بطاطته، ونشرت لحم الخنزير المملّح والثوم فوق الكريمة الحامضة، وجلبت له مزيداً من الخبز والزبدة.

قلت: هل كل شيء ما يرام؟

قال: جيد، ونفخ، ممتاز، شكراً لكِ، ونفخَ مجدداً.

قلت: استمتع بغدائك، ورفعتُ إناء السكّر ونظرت داخله، واستمر ينظر إليّ حتى ذهبت مبتعدة.

كنت أعرف أني أسعى وراء شيء ما، لكني لا أعرف ما هو.

قالت (هارييت): كيف يبلي وعاء الأحشاء العجوز؟ إنه سيجعل رجليك تبليان أنتِ تعرفين (هارييت).

قلت للرجل البدين: بالنسبة للحلوّيات فلدينا (كرين لانتيرناستل) التي تتكون من فطيرة (البادنغ) مع الصلصة، أو فطيرة الجبن، أو كريمة الفانيلا المثلجة، أو عصير تفاحة الصنوبر.

قال: إننا لا نؤخرك. أليس كذلك، نافخاً، وقد بدا قلقاً.

قلت: لا. أبداً، بالطبع لا. خذ ما يكفيك من الوقت، وسأجلب لك المزيد من القهوة أثناء قيامك بالاختيار.

قال: سنكون صادقين معكِ، وتحرّك في كرسيه، سنختار (كَرين لانتون اسبتسل) وبإمكاننا أن نتناول صحناً من كريمة الفانيلا المثلجة. كذلك مع قليل من شراب الشوكولاتة. إذا سمحت. لقد قلتُ لكِ بأننا نشعر بالجوع.

ذهبت إلى المطبخ لتهيئة الحلويات التي طلبتها بنفسي، وقال (رودي)، و(هاريت): لديك زبون بدين من السيرك هناك، أليس كذلك؟ وكان برودي قد خلع مئزره حينذاك، وأنت تعرفين ما أعنيه.

قلت: هل هو بدين يا (رودي)؟ ولكن لم تكن تلك القصة بأكملها. ضحك (رودي) فقط.

وقال: لا بد أن يحب حلواها على جسدها البدين.

قالت (جوان): من الأفضل أن تخرس يا (رودي) وكانت قد دخلت المطبخ في تلك اللحظة.

قال رودي لجوان: لقد بدأت أشعر بالغيرة.

وضعت حلوى (الكرين لانتون سبتسل) أمام الرجل البدين وإناءً كبيراً من كريمة

الفانيلا المثلجة مع شراب الشوكولاته جانباً.

قال: شكراً لكِ.

قلت: على الرحب والسعةِ، وغمرني شعور ما.

قال: صدقي أو لا تصدقي، إننا لا نأكل هكذا دائماً.

قلت: أنا آكل وآكل ولا يزداد وزني، وأنا أرغب في زيادة وزني.

قال: لا. لو كان الخيار بيدنا، فلا، ولكن لا خيار لدينا، ثم التقط ملعقته وأكل.

قالت (ريتا): وماذا أيضاً.؟ وهي تسحب واحدة من سجائري وتشعلها، ساحبة كرسيها قريباً من المنضدة. لقد بدأت القصة تبدو مسلية.

هذا هو كل ما في الأمر. لا شيء آخر. أكل حلواه، ثم ذهب، وذهبنا إلى البيت أنا ورودي.

قال (رودي): يا له من بدين. متمدداً كما يفعل عندما يشعر بالنعاس، ثم إنه ضحك وعاد لمشاهدة التلفزيون.

وضعت الماء على النار لصنع الشاي وأخذت حمّاماً. وضعت يدي على خصري وتساءلت، ماذا سيحدث لو أن لي أطفالاً وتحول أحدهم ليصبح مثل هذا الرجل بديناً.

صببت الماء في الإبريق، وهيأت الأكواب وإناء السكر، وكانت علبة السكر نصف ممتلئة. أخذت الصينية إلى (رودي) وقال (رودي) كما لو أنه كان ينتظرها. قال رودي:

لقد عرفت مرة شخصاً بديناً، شخصين بدينين، شخصين بدينين حقاً حين كنت صبياً. كانا إناءين كبيرين. يا إلهي، لا أتذكر اسميهما. (فات) كان الاسم الوحيد لأحدهما كنا نسميه (فات) الصبي الذي يسكن إلى جوارنا. كان جاري، والصبي الثاني جاء بعد ذلك وكان اسمه (وبلي) كان الجميع ينادونه (وبلي) ما عدا المعلمين (وبلي وفات) قال (رودي): أتمنى لو أني أمتلك صورتيهما.

لم أفكر بشيء لأقوله، لذا فقد شربنا شاينا وبعد فترة قصيرة ذهبت إلى الفراش، ونهض (رودي) أيضاً، وأطفأ التلفزيون، وأقفل الباب الأمامي وبدأ يخلع ثيابه. دخلت الفراش وتحركت إلى حافته، وتمددت هناك على بطني، ومباشرة وبعد أن أطفأ

الضوء ودخل الفراش، انقلبت على ظهري واسترخيت قليلاً، وشعرت فجأة بأني بدينة. شعرت بأني بدينة بشكل مرعب. بدينة جداً، حتى أن (رودي) أصبح شيئاً نحيلاً، وبالكاد كنت أشعر به.

قالت (ريتا): إنها قصة مضحكة، ولكني كنت أرى أنها لا تستطيع أن تفهم شيئاً منها شعرت بالكآبة، ولكني لم أرغب بمواصلة الحديث معها، فلقد أخبرتها الكثير جداً حتى الآن.

جلست تنتظر هناك، وأصابعها الرقيقة ترتب شعرها.

تنتظرين ماذا؟ أريد أن أعرف.

إنه شهر آب.

إن حياتي ستتغير. أنا أشعر بذلك.

❑

■ المصدر

the penguin book of international short stories, 1945-1985.

ولد الكاتب الأمريكي ريموند كارفر Raymond Carver عام 1939 وهو أحد أبرز كتاب القصة القصيرة الأمريكية في القرن العشرين. حصل على المنحة القومية للآداب مرتين عام 1979، وفي عام 1983 تخلى عن كرسيه في جامعة سيراكوز ليتفرغ للكتابة. صنع مجده الأدبي بثلاث مجموعات قصصية هي: (ماذا سنتكلم عندما نتكلم عن الحب؟) (كاتدرائية) (أرجوك، إهدأ، أرجوك).

تعد قصص كارفر أهم نماذج تيار الواقعية الذي ظهر في مطلع الثمانينات وقد قام المخرج السينمائي المعروف رويرت ألتمان باستلهام روح قلمه ذائع الصيت: "مختصرات" من عشرة قصص من أجمل أعمال كارفر التي تركز على الريف الميت، والضواحي الخالية من الروح، والطرق المفتوحة إلى العدم، وأبطاله شخصيات ضائعة في عالم حافل بالتفاصيل القاهرة المنتمية للنزعة الاستهلاكية الحديثة.

توفي كارفر عام 1988 بعد إصابته بسرطان الرئة.

the stories of raymond carver, picador, 1985

❑❑❑

الــــروح خالــــدة*

فاسيلي بيلوف

■ نقلها عن الروسية: **عاطف كامل أبو جمرة** ■

وهكذا، كانت المدافئ محماة. وتوضعت على النوافذ لفترة قصيرة قطرات من الماء، إلاّ أنها سرعان ما جفت. لقد اختفت في منزلي ذي المئة عام طراوة ونضارة ما قبل الخريف. هناك دلوان مليئان من ماء النهر النقي في المطبخ، وقد أُخرِجت ما في جعبة الطعام، والطاولة خالية من الأوراق الزائدة. الهاتف مفصول، أما البوابة فليست مغلقة– فليأت إلي من يشاء، وأنا سأسعد بأي آت. إلاّ أنني أعرف أن أحداً لن يأتي، إن لم تنادِه.

كل ما يلزم للعمل الجدي متوفر عندي.

أنا وحيد ولست مشغولاً، متدفئ، قدماي تحتذيان جزمة لبادية دافئة طرية. والأهم من كل هذا أنني لست مستعجلاً إلى أي مكان. وتتصعَّد فيَّ حالة من التأجج الفرح، الذي يسبق دائماً العمل المبدع السهل. هنا اكتشفت بفزع كبير أن نظارتي قد بقيت في المدينة... يا إلهي، ما العمل؟

يا للأسف... لقد سيطر علي غنج طفل مدلل، وعدوه، ثم نسوا، أن يشتروا له لعبته الغالية. هرولت يائساً إلى جناح أمي، فهناك رأيت ذات مرة في قفة الإبر وأقماع الخياطة والأزرار نظارة أنفيسا إيفانوفنا القديمة. أمي كانت تسعفني دائماً

* *نشرت هذه القصة باللغة الروسية في العدد المزدوج (5–6) للعام 1997 من مجلة "ABPOPA" (أفرورا) التي تصدر في مدينة بطرسبورغ.*

(الآخرون كانوا يسعفونني أحياناً، ولكن ليس دائماً).

ولكن، هيهات. لم تسعفني في هذه المرة. نظارة أمي ضيقة وضعيفة. يبدو أنها ليست أكثر من (+) درجة ونصف. كم رغبَتْ بالمجيء إلى القرية، وكأنها كانت تقول: "خذني معك، فهناك أحسن لي. هناك سأبدأ بالسير بمفردي". كانت تطلب هذا مازحة وكأنها كانت تعرف أنها لن تذهب إلى القرية. أختاي، لا هذه ولا تلك، لم تكونا قادرتين على المجيء معنا شتاء، فجئت إلى هنا بمفردي.

ولكن، يا للسخافة. مرة النظارة غير موجودة ومرة أسقطت القلم بين الحشائش- فأصبحت ضعيفاً لا حول لي ولا قوة، كالعاجز. لا قراءة ولا كتابة... شعرت كيف يتحول انفعالي إلى حزن. وراحت اللامبالاة الكئيبة تتسلل إلي من كل أرجاء بيتنا القديم. أيعقل أنه لم يبق أمامي إلاّ أن أعود إلى وصل الهاتف وتشغيل الراديو والتلفزيون- هذه القبور المزركشة وعلب النخر والتسوس الإعلامي، مقدمة النصائح الليلية؟

يومياً، في موسكو وفي فولوغدا[3]، يأتي سمير دياكوف في الساعة الثامنة مساء إلي في البيت. في كل يوم يحاول هذا المقيت أن يوحي إلي طوال الليل، محملقاً بعينيه، في أي بلد بائس كريه أعيش أنا. ويتمكن من خلال تمحيصه في الأحداث اليومية أن يبصق في وجهي عدة مرات. من أين له أن يعرف أنني لن أنزع البندقية عن الجدار ولن أركض إلى محطة القطارات كي أدفع آخر ما لدي من نقود ثمناً لبطاقة إلى بريد نيستروفيه[4]؟

إنه واثق من أنني لن أفعل هذا أبداً. يا له من خنزير... شيطان- يحزر تصرفاتي، وينطلق في ذلك من جهازه الإلكتروني الإشعاعي. لا يخطر لباله أبداً أنه قد يكون مخطئاً، وأنه لم يبق لدي من الصبر إلاّ ثمالة الثمالة. أجل؛ أنا في الحقيقة

[3] *مدينة فولوغدا: عاصمة محافظة فولوغودسكايا في شمال غرب جمهورية روسيا الاتحادية- المترجم.*

[4] *بريدنيستروفيه هي منطقة في مولدافيا قامت فيها بعض الاضطرابات بعيد إعلان مولدافيا عن خروجها من الاتحاد السوفييتي وإعلان جمهورية مالدوفا. قامت هذه الاضطرابات بين الأغلبية الروسية القاطنة في هذه المنطقة والقوميين المولدافيين المتعصبين- المترجم.*

لم آخذ بتلابيبه ولم أمسك بعد بخناقه. إنني أؤجل ثانية سفري إلى تيراسبول[5]. وأغسل مرة بعد مرة بصقاته النتنة بأمطار وطني فولوغدا، الغزيرة المنبتة للفطر.

إنني أنظر عبر النافذة إلى أوحال طرقات آب، مكتئباً، وكأنني أنتظر معجزة ما، كانت تبدو وراء شارع قريتنا المحتضرة شجيرات غبيراء جارنا المثقلة بعناقيد الثمر الكثيفة.

ما أكثر الثمار! من بعيد يحس المرء بثقل العناقيد التي تحني إلى الأرض هذه المفاصل الخشبية. يبدو أن غصن الشجرة ينتظر بصبر كبير أن يأتيه، في نهاية المطاف، سرب من الشحارير الرصاصية الجائعة. فهي ستقضي على هذه الثروة الجميلة بخمس دقائق.

لقد رأيت مرة كيف جردت الشحارير بغارة واحدة شجرة الغبيراء التي عندنا. كانت هذه العصافير تنقد الثمار بنهم مستجعل، حتى أن بعضها كان يتعلق بالغصن وقد تدلى رأسه إلى الأسفل وهو ينقد. ولكن لماذا لا تكون إحدى أشجار الغبيراء برتقالية اللون والأخرى حمراء؟ الاضطراب واللاانسجام النفسيان لا يفسحان المجال لا للتفكير بهذا ولا للإحساس بالاختلاف اللوني. حتى أنني أغضب من نفسي لأنني أسمح لنفسي بالتفكير. وكذلك هو الحال بالنسبة لكل ما أزمع عليه. مع ذلك، يا للهدوء الكبير، ويا للكآبة العظيمة. لكنني ما زلت أكابر ولا أشغِّل شيئاً. ها هي، هذه التقنية الحديثة اللعينة، تنتصب تحت الطاولة! الحاكي يوتر أعصابي ويخرجني عن طوري، كالثور، بلونه الأحمر كأنه الراية الحمراء. ها أنا أُدخِل شوكة "الفيش" في ثقبي "الإبريز" الكهربائي بلا وعي وبلا تفكير... فتبدأ الأسطوانة المغبرة الموجودة على القرص منذ الربيع الماضي بالدوران. وبلا وعي أيضاً أنزِل عليها الذراع. الأصوات تملأ الجو المؤطر بالجدران، وأنا أقاوم، إلاّ أنها –هذه الأصوات– حيوية ونفاذة.

"فصول السنة" يغنيها ألكسي تشيركاسوف... طبعاً هذا هو، تشايكوفسكي، الذي كان يصدح في هذا البيت الريفي في الربيع وفي موسم حصاد الحشائش!

---

[5] *مدينة تيراسبول: في جمهورية مالدوفا. تقع على الضفة اليسرى لنهر دنيستر، وهي مركز منطقة بريدنيستروفيه– المترجم.*

الموسيقى تغمرني كما يغمرني دفء المدفأة: أطبقت عيني مستنداً إلى المدفأة[6]. جلست أصغي وكأنني أغفو، إذ ليس بالضرورة أن ينام المخلوق مستلقياً... الخيول والفيلة أيضاً تستطيع النوم واقفة. قال لي مرة صاحب أشجار الغبيراء البادية وراء النافذة: "لا تفكر كثيراً. دع الحصان يفكر، فرأسه أكبر".

أنا الآن، بحق، لا أفكر ولا أصغي إلى "أغنية الخريف". عيناي جافتان، إلاّ أنني أبكي... أتذكر الطفولة وما كان منذ نصف قرن. لم يزُل شيء ولم يمت شيء، حتى بقرتنا الصغيرة "بيريوزكا"[7] ذات القرن المكسور، "بيريوزكا" التي كنا نقتنيها مناصفة مع جيراننا. عندما انتقل نصف "بيريوزكا" الثاني ذات مرة لحوزتنا وجدنا أن الضريبة غير مقدور عليها. وأمنا تحكي لنا كيف قادت "بيريوزكا" مسافة أربعين كيلو متراً إلى محطة قطارات الطريق الحديدي الشمالي "بوندوغا" لإدخالها ضمن خطة إنتاج اللحم. جرَّت البقرة بحبل عبر طرق الغابات المتعرجة والقرى، وطوال الطريق كانت الدموع تنسكب على سحنة "بيريوزكا". أنا ما كنت لأصدق هذا لو كان الراوي إنسان آخر غير أمي.

أنا أعلم أن أمي ستموت قريباً، وهي تعرف هذا، حتى أنها تحاول أن تمزح، إلاّ أنني دائماً أقاطعها بتحفظ وأقول: "ماما، كل أترابي في القرية قد أصبحوا في القبور... و أصدقائي روبتسوف وشوكشين– أيضاً. روبتسوف كان أصغر مني سناً. جميعنا، شيوخ وشباب، سواسية أمام هذه المسألة. ولذلك لا تتحدثي بعد الآن عن الموت...". "لن أتحدث، لن أتحدث"– ويمر يوم أو يومان فتعود لتقول، وكأنها تمزح: "الحمد لله. لقد بدأت رجلاي بالتورم. لن أعيش طويلاً.

ذاكرتها ما تزال حادة لا ترحم، كالسابق؛ أما طيبتها الصادقة تجاه أبنائها وأحفادها وأبناء أحفادها فقد أصبحت أكثر إلحاحاً واتساعاً. تفهم كل شيء، فعقلها ليس أضعف من عقلي بشيء، ومع ذلك فموتها قريب. كلانا يعرف هذا، أنا وهي. لكنني أحاول دائماً ألاّ أفكر بموتها. شفقة عظيمة تغمرني.

اليأس يتسلل من كل أرجاء بيتنا الخشبي، لأن كل شيء في هذا المسكن

---

[6] المدفأة في البيوت الروسية الريفية هي حجرة مبينة من الآجر يوقد فيها الحطب. في الشتاء ينامون على ظهرها ليلاً، فلا غرابة في أن يستند المرء إليها– المترجم.

[7] بيريوزكا –شجرة البتولا الصغيرة. هكذا سميت هذه البقرة– المترجم.

مرتبط بأمي. ما أكبر الحزن الذي كانت تنظر به إلي أمس وأنا أغادر البيت إلى القرية تاركاً إياها في المدينة! "خذني معك!". لم أكن أسمح لها بالكلام عن الموت. كنت إما أنفجر أو أبرهن لها أن كل هذا ليس من شأننا. غير أنها تعرف أنه لم يبق لها أن تعيش إلاّ قليلاً، وأنا أعرف، لكنني أتهرب من هذه المعرفة كالطفل الصغير الذي يغطي عينيه عندما يلعب لعبة "التخباية".

في وقت من الأوقات كنت أتمنى أن أموت قبلها –إلى هذه الدرجة كانت مقيتة بالنسبة لي حقيقة حتمية موت أمي. وفيما بعد، وبمساعدة أمي نفسها، أدركت أخيراً أن الرغبة بالزوال أولاً، كي أتهرب من لوعة الفقدان، هي أيضاً خطيئة ومظهر من مظاهر الأنانية القصوى، يقترب من جريمة الانتحار. كذلك هو الأمر، ولكن يا للكآبة... أن تشعر، وأنت متحرر من أي وهن نفسي، وبكامل عقلك وتمام ذاكرتك، أن تشعر كيف يقترب منك بخطى حثيثة الفناء الأرضي، بشكل يجعل الفاصل بينك وبين هذا السر لا يمتد لسنوات، بل لمجرد أسابيع وربما لأيام. في هذه الحالة بالضبط بقيت هي في المدينة، وها أنا ثانية في القرية أستمتع بدفء المدفأة والهدوء المحببين. ماذا أفعل؟ أنا كنت أحضرتها إلى هنا لو كان هناك أسفلت. لو لم يكن "الإسعاف" على بعد ستين كيلومتراً من البيت، ولو... قريباً سينتهي كل شيء بالنسبة لها...

على الجدار، فوق منضدتي علقت نسخة مصورة عن لوحة الفنان فولكوف: بوشكين ينهض فوق الثلوج متغلباً على آلامه ليسدد مسدسه نحو مارق دولي يرتدي، على سبيل التمويه، معطف ضابط الحرس الروسي[8]. موسوعة بيتنر لا تسمي دانتيس ضابطاً، بل دبلوماسياً. لا يهم الإنسان الذي سيكون مالكاً لقصر فاخر أية جهة يخدم: أكانت هذه الجهة نيقولاي الأول أو الماسوني خائن فرنسا نابليون الثالث.

سيموت ألكساندر سير غييفيتش بوشكين. لم يبق له في الحياة إلاّ القليل القليل. العربة تنتظر والميقاتيون تجمدوا في صمتهم. وبوشكين يسدد ثانية إلى عدو وطنه. لقد ولدت بعد مضي تسعين عاماً، فقد انصرم قرن إلاّ القليل على ذلك الشتاء في بطرسبورغ– ولكن لماذا أبكي بلا دموع، ضاغطاً على أسناني النادرة في فمي؟..

---

[8] *لوحة المبارزة بين بوشكين وخصمه دانتيس التي جرح فيها بوشكين ومات متأثراً بجراحه– المترجم.*

أبكي على أمي وعلى بوشكين.

ربما أنت تشيخ وتصبح عاطفياً دامعاً؟ ربما... كله ممكن، أيها السادة الديمقراطيون!

حلمت أنني عجوز قديم،

جاف، خفيف، مثل دخان خريفي

لا يعرف لا الألم ولا المعاناة...

وهكذا لم تجد السطور، ولم تجد الكلمات التي يقولها عفريت الغابة، من أجل الجزء الثاني من حكاية "كوتشي الذي لا يموت"[9] تتماتها. منذ حوالي عشرة أعوام، عندما كنت ما أزال قادراً على القراءة بلا نظارات، كانت لدي رغبة جامحة في كتابة القسم الثاني من هذه الحكاية، غير أن أحد أصدقائي، وقد أصبح الآن راحلاً، أبدى موقفاً بارداً من حكايتي، فأهملتها. مازال الاهتمام بالشخصيات الوثنية قائماً. أو ربما تخيلت فقط أن يوري سيليزنيوف وقف من الحكاية موقفاً بارداً؟ هذا ممكن أيضاً. المهم أن الجزء الثاني لم يولد لسبب من الأسباب، ومضى الوقت. والآن أنا تابع وخاضع لهذه –ما أسمها؟– ديوبترية[10]. أسمع أصواتاً عظيمة، أصواتاً أبدية نفاذة. وهي تحملني على التفكير بأنه لا فرق بين الأحياء والأموات.فالروح خالدة لأنها فريدة ولا تشبه أحداً. "أغنية الخريف" لا تشبه أحداً. أليست هي –روح تشايكوفسكي– التي تحلق في بيتي؟ ربما يكون هذا تجديفاً، ولكن عندما أكون بمفردي لا أحس بفارق بين أصدقائي الأموات وأصدقائي الأحياء. كلهم بالنسبة لي أحياء على قدم المساواة، كما هي حية روح بيوتر إليتش تشايكوفسكي. "أغنية الخريف" تصدح، فأشم رائحة الفطر من سلة ثقيلة تصدر صريراً، وأرتعش من رطوبة الغابة ومن أوراق أشجار

[9] *"كوتشي الذي لا يموت" هو رجل هزيل طاعن في السن، واحد من شخصيات بعض الحكايات الخرافية الشعبية الروسية– المترجم.*

[10] *ديوبترية – كما في معجم اللغة الروسية المعاصرة– هي وحدة قياس قوة انكسار الضوء في العدسة أو المرآة الكروية. الكلمة يونانية الأصل وتعني المراقبة والقياس. في القاموس الروسي العربي نجد مقابل الكلمة الروسية كلمة "ديوبْتَر" بالعربية وإشارة إلى أن الكلمة تستخدم في علم البصريات. مجموعة المراجع تفيد أن ديوبترية هي وحدة قياس قوة عدسة أو مجموعات عدسات– المترجم.*

البتولا والحور المتساقطة، وأحس بكل ما يدور وراء البوابة.

"الآن أرتدي جزمتي وأخرج إلى الحقل الخريفي- أفكر بهذا وأنقل بنفسي ذراع الحاكي إلى مكان حصاد الحشائش- أو، الأحسن أن أصغي إلى كل هذا من البداية...".

ولكن أين هي، هذه البداية؟ هل يمكنني أن أعتبر ميلادي الشخصي، مثلاً، بداية لأي شيء؟ فقبل مجيئي بزمان كان يتدفأ قرب الكانون أبي وأمي، جدتاي وجداي، أمهات أجدادي الأربع وآباء أجدادي الأربعة. أربعة عشر شخصاً (أنا الخامس عشر). لدى كل إنسان جدود. لأجل الجميع كان الجمر يتنطط في المدافئ في الأماسي. كل واحد كان يسمع قصف الصقيع المدوي وراء الجدران. وهنا لا بداية ولا نهاية، كما لا وجود لهما في اللجة السماوية السوداء التي لا قعر لها، المهيمنة فيما بين نجوم الليل. كانت الأنوال تقعقع في البيوت الريفية. كانت تُخبز، كما كانت تُخبز لي، على جمر المساء المأكولات الحلوة. والنساء الفلاحات كن يصنعن من العيدان ما يصنعنه الآن، وكانت حكايات الجدات تحكى، كما حُكيت لي ذات يوم حكاية الباشق من فم أبي جدي ميخايل غريغوريفيتش. الآن أحاول العثور على التشابه الذي أفلت مني بينه وبين تشايكوفسكي، لكنني لا أستطيع، ولا بأي شكل، التقاط هذا التشابه أو التعبير عنه.

ما هو المشترك بين الجمرات الحمراء تحت المضطجع الدافئ المقام بجانب المدفأة الفلاحية الجبارة، ونيران الموقد في مدينة بطرسبورغ، النيران التي كان ينظر إليها متأملاً المعاصر العظيم لجدي؟ آه. كل شيء هنا مشترك مع أنه لا يشبه بعضه البعض! طبعاً لم يكن الصقيع يقصف وكأنه بندقية موسين[11] لا في جدران شقة من شقق بطرسبورغ، ولا في بيت فون ميك[12] النير، في ضواحي موسكو، حيث لم يكن الطباخون يسمون البطاطا العادية تفاحاً. إذن لماذا أسمع الآن جرس

---

[11] *موسين هو سيرغي إيفانوفيتش (1849- 1902) مصمم روسي لأسلحة الرمي، جنرال في الجيش الروسي، صنع في العام 1890 بندقية ذات مخزن للذخيرة عيار 7.62 مم ثلاثية الخطوط نموذج 1891- المترجم عن الموسوعة السوفييتية الكبرى.*

[12] *فون ميك، كارل فيودوروفيتش (1821- 1876) أحد الرأسماليين الروس كان مالكاً لقدر كبير من أسهم شركات الطرق الحديدية في روسيا. زوجته ناديجدا فيلاريتوفنا (1831- 1894) كانت تتولى رعاية تشايكوفسكي- المترجم عن الموسوعة السوفييتية الكبرى.*

جد أبي في فالداي[13]؟ ولماذا أسمع العدو الإيقاعي المنعش على الدرب الزلقة، وقهقهة الجمهور المحتفل بعيد "ماسلينيتسا"[14]، والدوران على لوح الدراسة، الذي طالما حدثتنا أمي عنه؟ –كل هذا يبدو وكأنه تجسد، ووسعته، دون انتقاص أي شيء منه، هذه الأصوات الخالدة. وهكذا يصبح واضحاً تماماً أن لا شيء يذهب بلا أثر، ولا شيء يضيع أو يحدث عبثاً. خفَّت الغصة في حنجرتي، ثم تلاشت المرارة، وها أنا أعود لأسمع من جديد فعلاً الرنين الصباحي للثلوج التي تجمدت في الليل. إنها تبهر بصري بانعكاسات الأشعة الصباحية الذهبية. البرد يلسعنا جميعاً نحن الجائعين منذ الصباح. إلاّ أننا نركض إلى المدرسة على قشرة الثلج المتجمدة... كم هو مفرح وسار اختصار الطريق الصباحي بالركض مباشرة عبر الحقل والدغلة الصغيرة، مفزعين الطيور الحانقة والمتوترة في مناداة إناثها، ومتفحصين كومة الثلج التي قفز منها ثعلب أحمر ذو صدر أبيض وكأنه يطير بأجنحة. إنه نفس ذلك الثعلب الذي حاول في المدينة استصدار تعليمات تمنع البواشق من الوقوف على الأشجار لكي "يجولوا هم على المروج الخضراء".

مازالت المروج الخضراء بعيدة عنا، نحن المسرورين والجائعين، ولكن ها هو أول زرزور أسود يحط على رقعة من الأرض ذاب عنها الثلج وها هي أول زهرة ثلج قد أخرجت رأسها من تحت الثلج لترى النور. أحس وأنا أصغي إلى الموسيقى بضعف وعجز هذا المخلوق الضئيل وكأنه طفل وليد. ولكن، يا لها من عظيمة، قوة الحياة شديدة الشكيمة، الأزلية وغير الخاضعة لأي سلطان! برْد الثلج الأبيض المبهر في كل مكان، بينما شقينا تمكن من الظهور في كل مكان. في الجوار طبقات من الثلوج البيضاء حجَّرها الصقيع، أما هنا في هذه الرقعة الصغيرة التي ذاب فيها الثلج، بعيداً عن الأنفاس القطبية وعلى بقعة شفافة من الماء بين الثلوج المتصلدة تذوب متقهقرة قطعة جليدية رقيقة لتحل محلها، قطرة إثر قطرة، أرض مجردة. أما هي– زهرة الثلج الوليدة، فلم تكد ترفع رأسها من الأرض حتى استعجلت إلى الإزهار...

"الحياة أقوى من الموت" –اندفعت إلى الورق هذه الجملة السخيفة، فتنازلت له

---

[13] *مدينة فالداي هي مركز ناحية في محافظة نوفغورود– المترجم.*

[14] *ماسلينيتسا هو الأسبوع الذي يسبق الصوم الكبير، وهو عيد للربيع اقتبسه السلافيون الأرثوذكس مما قبل الأرثوذكسية. تمارس في هذا العيد طقوس وثنية احتفاء بقدوم الربيع– المترجم.*

عنها، مع أنني أعرف أن المقارنة بين مفهومي الحياة والموت ليست مقارنة متكافئة. فالموت ما هو إلا جزء من الحياة. فلماذا أستسلم للإغواء وأساوي في الحقوق بين الكل والجزء؟ فلأشطبن هذه الجملة وانتهى الأمر!. "لقد كتبت الجملة وهي الآن حية بمعزل عنك- قال صوت كأنه خارج من الأنف، جاءني من بعيد- أمن العدل مكافحة ما هو حي بمعزل عنك؟ والجملة، على ما أظن، ليست جملتك. إنها مقتبسة". يا له من خبيث... دائماً يخرجك هذا الصوت الآتي من بعيد عن إيقاعك، ويضاعف ويوسع وعيك. يشاركك ويسيطر عليك. "الروح خالدة"- هكذا رحت أعزي نفسي، لكن الشك عاد ليلفني. القلب يتلهف إلى التجسيد المادي لهذا الخلود، وأنا لا أستطيع أن أستسلم، ولا بأي شكل من الأشكال. ليس المقصود هنا موتي الذاتي (فأنا أفكر به بكل هدوء- لست أدري لماذا)، بل المقصود هو موت أخي القادم القريب، أو موت أصدقائي الذي تحقق. أنا لا أستطيع تقبل الموت وفهمه. أنا أحتج! حتى مقتل آخر كلاب جارنا، الذي أطلقت النار عليه من أجل بيعه لصنع شابكا[15]، وشُرِب بثمنه على الفور، يثير في نفسي عدم التوافق. وماذا أقول عن موت ياشين وشوكشين وسيليزنيوف وروبتسوف وبيريدرييف[16]؟ مازلت حتى الآن لا أستطيع إجبار نفسي على الجلوس وكتابة ذكرياتي. أحاول التملص باستمرار، وأبحث عن طرق جديدة للتصالح مع هذا الواقع المؤسف. وها هي الآن قد خطرت لي فكرة لئيمة- أنْ لا فرق بين أصدقائك الراحلين وأولئك الأحياء الذين يعيشون بعيداً عنك. أفليس الأمر سواء: أليسا مثل بعضهما الصوت الصادر عن الحاكي (لإنسان ميت منذ زمان) والصوت الصادر عن سماعة الهاتف لإنسان حي يرزق الآن؟

إنها شيطانية... غواية عارضة، لكنها ليست عديمة الأذية. شيء مخجل. تناولت السترة القطنية المضربة وقبعة الرأس، ولففت كيفما اتفق "البورتيانكي"[17]، ثم احتذيت جزمة القماش العسكرية. أطفأت تشايكوفسكي في نيسان واندفعت خارجاً من البيت.

في الخارج كان يسود آب. ما يزال يتردد في أذني صوت قبرة بيوتر أيفانوفيتش

---

[15] الشابكا هي قبعة الرأس الروسية المصنوعة من الفراء- المترجم.

[16] أدباء سوفييت قضوا، وهم من أصدقاء المؤلف- المترجم.

[17] البورتيانكي هي شريحة من القماش يلفها الفلاحون الروس على الأرجل قبل ارتداء الجزمات الشتوية بقصد الحماية الإضافية من البرد- المترجم.

تشايكوفسكي النيسانية. لم تطر بعد، مع أنك –كما بدا– لم تكن تسمعها في لحظات التأمل الحزين. يقال أنه لم يُسمع في ضواحي موسكو صوت القبرات المرح منذ عدة سنوات، وهذا يعني أن تشايكوفسكي وألكسي تشيركاسوف قد خلصا روح طير الحقول الروسية الصغيرة هذا وخلداه عبر أصوات مدهشة. فعندما اختفت من الحياة هذه القبرة، مثلما اختفى بلبل ألابييف[18]، راحت تغني وترفرف في سماء الفن العالية الخالدة. بالمناسبة– تشايكوفسكي خلد أيضاً البلبل... ولكن من ذا الذي يتصيد ويخنق مغنيي الحقول والغابات، وكيف؟ في نواحينا، مازالوا يعيشون في بعض المناطق، ومازال من الممكن سماعهم في أماكن محددة في الربيع. ياله من انتصار للحياة، ويا لها من متعة تُسمع في أصوات القبرة المهذارة، عندما تروح تصعد عمودياً وكأنها ترتفع طبقة إثر طبقة في السماء حاملة معها أغنيتها الخاصة! ربما لن أسمع في الربيع القادم صوت قبرات ناحيتنا فولوغدا، إذ ستكون فخاخ التقدم الفولاذية قد سحقت حتى هؤلاء المغنين الذين لا حول لهم ولا قوة. أما ما هو التقدم– فأنا ألمسه هنا عند كل خطوة...

كأنها ليلة خريفية تركب عربة ذات سبع جياد، ففي الليل هبت عاصفة. أنا أعرف أن هذه العاصفة هي آخر عاصفة في هذه السنة، ولن يهب غيرها. كان علي أن أرتدي ثيابي وأخرج من البيت، إلاّ أنني تكاسلت حتى عن الاستيقاظ.

من خلال المنام، فقط، كنت أسمع خرير الرعد المخنوق. ربما تكون العاصفة كلها مجرد حلم؟ لا لقد كان صوت العاصفة حقيقياً. لم تكن تزمجر من الأعلى، بل من الجانب، كالجرارات التي تجوس الدروب قرب البيت، أيضاً، في الليل غالباً، لست أدري لماذا. كلما كان إشفاقي على سائقي الجرارات السكارى أكبر كانت معاندتهم لإشفاقي أعظم. إلاّ أنه لا يسعني أن أعتز بأبناء قريتي هؤلاء: أمس كان أحمق لا أعرفه قادماً على جراره من الدار المركزية، فأوقف الجرار وراء بيت

---

[18] ألابييف هو الكساندر ألابييف (1787– 1851) موسيقار روسي كان يكتب الألحان الغنائية الفولكلورية في بداية القرن التاسع عشر وكان يكتب الموسيقى الرومانسية للأغاني ذات المضمون الاجتماعي مثل "الشحاذة" و"البلبل". كان من أوائل من جسدوا موسيقياً أشعار بوشكين العاطفية. ألف أيضاً للأوبرا والباليه ولفرق الحجرة الموسيقية وغيرها– المترجم عن المعجم الموسوعي للغة الروسية.

تيمونيخا، جمع من الحقل بعض الحجارة وراح يغير على طير غريب كبير لا أحد يعلم من أين جاء، كان يقف على هرم من حشائش العام الفائت طيراً كبيراً ساكناً. خفت أنا أن أفزعه فأسرعت إلى البيت لأحضر المنظار المكبر. لم يحدث أبداً أن حطت مثل هذه الطيور وراء بيتي! ربما كان مالكاً الحزين، أو ربما كان لقلقاً جاء من ضفاف ديسنا الملوثة المسمومة بحثاً عن أرض صالحة. ولشدة اضطرابي لم أتمكن من تذكر لونه. اليوم لم أحمل معي المنظار، فالطير الذي كان على هرم الحشائش لم يعد موجوداً حتماً منذ زمن بعيد. إلى أين طار هذا الطير؟ وعموماً، هل ما يزال حياً؟ البط أيضاً على درجة من السذاجة والثقة تجعله يغط نفسه في الربيع في مستنقعات المياه المجاورة للطريق ويتمشى فيها متبختراً.

ومع أن البنادق ليست موجودة في كل بيت، كما هو الحال في كاراباخ[19]، إلاّ أنه توجد بعض البنادق. نعم توجد، وتوجد ذخيرة أيضاً. ليته ينعدم شيء من اثنين– إما البط أو الذخيرة. يقول لي محرضي الداخلي: "لا سلطة لك في هذا، فلماذا "تهز بدنك" "أنا أحاول ألاّ أصغي إليه... فأصرخ بنفسي بلا صوت: "لا أريد أن أكون اثنين. لا أريد... ولذلك لن أفكر لا بالذخيرة ولا بالبط". أعود من الحقل إلى القرية وأخلع حذائي على السلم، ثم أدخل البيت، وأضع ناقل الصوت على الليلة الحزيرانية البيضاء فتنفذ هذه الليلة بقوة وتغرق بيتي الخشبي الدافئ بنور صيفي شمالي، وتنفذ إلى كل جدرانه وسقوفه الكهرمانية. وعندما يختفي النور الفضي الشفاف وتبدأ السماء الوردية اللون الكبيرة بالبزوغ أعود لأتكئ إلى المدفأة وأطبق عيني... كان يكفي تشايكوفسكي أن يؤلف سلسلة "فصول السنة" أو "باركارولا" وحدها حتى يبقى وإلى الأبد خالداً في الفن الروسي. لقد أصبحت روحه خالدة. أنا الآن أشعر بكل كياني أن روح تشايكوفسكي خالدة. لقد اجتمع كل شيء في هذه الأصوات التي لا مثيل لها: تعدد ألوان أعشاب الحقل قبيل يوم إيفان[20]، والألوف المؤلفة من روائحها– الأصوات المنصبة كلها في عبير جماعي واحد، والشمس العالية في قبة السماء الرحيمة غير المكتملة، والأفق الذي تشوهه حزم السراب، وفرحة الظل في عز

---

[19] كاراباخ هي المنطقة المتنازع عليها بين أرمينيا وأذربيجان والتي دارت فيهامعارك مريرة بين سكانها من الطرفين في نهاية الثمانينات– المترجم.

[20] يوم إيفان هو عيد قديم لدى السلاف الشرقيين وهو يصادف يوم 24 حزيران حسب التقويم الشرقي القديم، أي 6 تموز حسب التقويم الميلادي المتبع– المترجم.

الظهيرة. مازال التعب الشتوي بعيداً، ومازال الدم الأخضر يتدفق في أشجار وأعشاب موطني. نهرنا مازال نقياً، مثلما هو ضميري، عندما أغوص، والأصح- عندما أسقط في صورة السماء المنعكسة على مائه. "متى كان هذا؟ "أتساءل وأحس بسخافة السؤال وبعدم تكافئه مع وضعي. ليس "كان"، بل موجود الآن! لم يختف شيء... ومع أنه لا يجوز أحياناً الشرب من النهر، والآن في أيام حصاد الحشائش لا أحد يشرب منه، فقد كنت أسمع أحياناً، وأسمع الآن أغنيةً، هي ليست أغنية حاصد واحد، بل أغنية فرقة كاملة عائدة إلى القرية في أمسية صيفية دافئة. لم يعودوا منذ زمن بعيد يزرعون الجودار خارج القرية، إلاّ أنني رأيته وأراه الآن. المنجل يلتمع في يد أمي لينصهر في لجة السماء الذهبية. أزحف متسللاً تحت سقيفة عالية من حزم السنابل أقيمت لتجفيفها، مختبئاً عن أترابي ونحن نلعب "التخباية". أبحث عند التخوم عن توت الأرض وأتنشق رائحته الإلهية بحق. منذ أسبوع جلبت في دلو فيه ماء صدفتين هما تماماً مثلما كانتا قبل نصف قرن مضى. وفرخ سمكة أخضر ما يزال يقف عند تجمع صغير للمياه الدافئة على ضفة النهر.

الصدفتان حيَّتان في دلوي، إلاّ أنني شربت كل الماء تقريباً. سأذهب وأطلقهما ثانية في النهر. ربما أشاهد فرخ السمك المعهود. لا شك أنه كبر خلال أربعة أسابيع من وجودي هنا، كما كبر خلال هذه الفترة مهر جارنا "ماليش" (الصغير). لقد ولد أدهم، ذا حافر أبيض. هل أصبح الآن أغبر؟ منذ زمن بعيد لم تعد الشمس شمساً صيفية، ففي بيتي ترن موسيقى "أغنية الخريف" الخالدة.

أشعر بعمق وعن وعي بحس السعادة. من أين هي السعادة إذاً... لا ضرورة للسؤال. ربما تحلق السعادة في طراوة الغابة الخريفية، أو أن كهرمان "موروشكا"[21] المستنقعات هو الذي ينشرها. أتناول ثمارها وأنا جالس في الطحالب، وكأنني على أرائك غجرية من الريش، أجمع حفنات ملء راحتي من هذا الثمر، ثم أزدرد هذا الجسم الكهرماني اللذيذ. يقال أن بوشكين طلب وهو على فراش الموت أن يسرعوا إلى أقرب دكان ويحضروا له موروشكا منقوعة. تذكرت هذا فلم تعد هذه الثمار البرية

[21] موروشكا هي نبتة معمرة من ذوات الأزهار الوردية اللون، تعيش بشكل رئيسي في مستنقعات التوندرا المخملية وفي مناطق الغابات. ثمار هذه النبتة قابلة للأكل- المترجم عن المعجم الموسوعي للغة الروسية.

ثماراً أصبحت حفنة من الدموع برتقالية اللون... حبوب الآس الأسود أزدردها في المستنقع أيضاً بالحفنات- أليست هذه سعادة؟ الآس الأسود بالحفنات... (شيء مضحك... لو تركت في المدينة مع نظارتي حتى أسناني الحديدية، الأميرية -كما يقول جاري- لما كنت سأضيع في مستنقعي الحبيب. كل الآس الأسود بالحفنات واسحق بلسانك هذه الثمرات الكبيرة الناضجة ضاغطاً إياها إلى سقف حلقك ولثتك، فلن تموت من الجوع). البعوض وحده هو الذي يفسد هذه السعادة العظيمة في هدوء الغابة المشمسة. أشفق على الأعزاء والأقرباء، فاخجل من ملء فمي بحفنات الآس الأسود، إذ أن هذه الإمكانية ليست متوفرة لهم الآن. إذن، إلى السلة، إلى السلة! أليست هذه سعادة؟ إذا ما خرجت من الغابة فتحدق بك البقرة بنظرة طيبة مستغربة، وكأنها تتساءل: مَن؟ ومن أين؟ ثم تتنهد بعمق وصخب مثل كير الحداد، ولا تفسح لك، من حماقتها، الطريق. كم هو لطيف ومفرح عناد البقرة هذا. وهناك في القرية، عند مدخل العنبر تقف امرأة بنفسية الفتاة العذراء، ناظرة باتجاهي منتظرة اقترابي منها. أنا أعرف ماذا تنتظر وإلى ماذا تنظر. إنها تتلهف لتعرف من هذا القادم على الدرب. عندما أقترب إلى المسافة اللازمة، وعندما تعرف أن هذا أنا تتوارى على الفور بخجل. أليس هذا فرحاً؛ أليس هذا سعادة؟ سعادة عظيمة أن يكون للمرء ولو أصدقاء. أما أنا فلي، إلى جانب هذه الموسيقى وهذا الوطن الأخضر، أم وزوجة وبنت وأخوات وأخوة. وإن كانوا بعيدين عني، فهم بجانبي، وأنا أسمعهم وأراهم جميعاً. بعد هذا المسير المتعِب سأوقد الحمام، كما وقد ثلاثة من جيراني حماماتهم. إني على قدر كبير من السعادة لأنني أميز بالرائحة دخان حطب الصنوبر عن دخان حطب البتولا وعن دخان حطب الحور الرومي...

أم أن هدوء الحقول قبيل الشتاء ينعشني؟ سرب من الإوز المهاجر يسرع مندفعاً نحو الجنوب. لقد اختفت الموروشكا الذهبية من الغابة منذ زمن بعيد. الغرانق التي تقضي ليلها في الحقل البارد تقرقر. وفي بيتي تصدح "أغنية الخريف" الخالدة. كم كان مديداً، سعيداً ومديداً ذلك اليوم، لو لم يتصاعد دخان بريدنيستروفيه...

❑❑❑

التنبل

قصة الكاتب الألماني: ألفريد أندرش

■ ت: عدنان حبّال ■

لمحة عن الكاتب:

- ولد ألفريد اندرش (Alfred Andersch) في 4 شباط 1914 في مدينة ميونيخ عاصمة بافاريا وكبرى مدن جنوب ألمانيا، وأمضى فيها طفولته وصدر شبابه حيث تعلم بعد حصوله على الثانوية مهنة إدارة المكتبات دون أن يجد في الأعوام 1928- 1930 أية مكتبة يعمل فيها. كان أبوه ضابطاً في الجيش مشاركاً في الحرب العالمية الأولى لكنه مات حزناً وقهراً بعد انتهاء هذه الحرب بهزيمة ألمانيا.. شارك ألفريد العاطل عن العمل في نشاطات الشبيبة الشيوعية حتى اعتقل مع بعضهم إبان العهد الهتلري وعمل بعد الإفراج عنه تحت المراقبة موظفاً صغيراً في ميونيخ ثم في هامبورغ حتى استدعي للخدمة الإلزامية عام 1940 واشترك في حملة غزو فرنسا ثم سُرّح بعد سنة وعاد إلى العمل المدني في فرانكفورت.

استدعاه الجيش النازي ثانية للخدمة العسكرية ودفع به عام 1943 مع أخرى إلى إيطاليا. لكن ألفريد سلّم نفسه هناك للأمريكيين وقرر مقاومة النازية بالكتابة والقلم بدلاً من السلاح التقليدي، وفور عودته من الأسر الأميريكي عند نهاية الحرب العالمية "الثانية"، اشترك مع زميله الأديب إيريش كستنر في تحرير "الجريدة الجديدة" (Die neue feitung). ثم أصدر مع هانس فيرنر ريشتر مجلة "النداء" (Ruf) التي ما لبثت السلطات العسكرية الأميريكية المحتلة أن منعت صدورها.

ألفريد آندرش أحد مؤسسي (الجماعة 47) وخرج إلى الشهرة العالمية بفضلها.

ظلّ يشارك بفعالية في الإذاعة والصحافة والمؤتمرات والندوات الأدبية حتى عام 1958، إذ أنه آثر الاعتكاف والإقامة في مدينة بيرتسونا السويسرية الجميلة وتوفي فيها عام 1980.

حصل على العديد من الجوائز الأدبية الهامة، وتُرجمت له في كتاب "غناء العناكب وقصص ألمانية أخرى" قصة اسمها: قصة لورد غلوستر ترجمها مجدي يوسف وصدرت في بيروت عن دار صادر للنشر عام 1967. لكنّ أهم أعماله هي: كتاب"كرز الحرية 1952" الذي يبحث في موضوع الهجرة بحثاً عن الحرية، ورواية "زنزيبا أو السبب الأخير" عام 1957- "الحمراء"، رواية 1960، "قصص"، 1971، ثم قصائد: "تمردوا فالسماء زرقاء"، عام 1977.

لعل أهم ما يميز أدب ألفريد اندرش هو الاهتمام بالإنسان المسكين الذي يتعرض لأهوال الحروب غير العادلة دون أن يكون له هدف يسعى إليه. هذا الإنسان الذي لم يشعر في ألمانيا بالهزيمة فحسب، بل شعر بالضياع وانعدام القيمة والجدوى من استمرار حياته أيضاً، ورفض التعويضات الاستهلاكية التافهة.

قصة "التافه" نموذج من معاناة شباب ألمانيا العائدين من الحرب النازية الخاسرة، وهي من مجموعته (قصص) الصادرة عام 1971..

انظروا هذه الكتلة الزجاجية العملاقة تدخل إليها القطارات عبر مغارات مضاءة داخل جبل الظلمة الرمادي الأزرق، تجدوا فيها زهوراً ومشروب الجعة وأحمر الشفاه والصحف اليومية وكذلك النقانق وبطاقات السفر وشطائر السلامي والمناديل والاستعلامات وحليب البقر ومتاع المسافرين، كما أنكم تجدون ماء الكولونيا ودورات المياه ودلاّلات البنات وإعلانات حفلات زفاف الأمراء مصوّرة بالألوان..

أما أنا فأنظر إلى يدي وهي تتسلّ من شعاع ضوء خافت وكأنها تخرج من بطن منجم سحيق وتمتدْ على طاولة بيضاء ناصعة مصنوعة من الفورمايكا وقائمة في صدر كشك المشروبات، ثم تقترب من الفنجان وهي تهتز كالعادة في رعشة لا تكاد العين تلحظها.

لقد بدأت يداي منذ ثلاث سنوات تقريباً ترتعشان، وصار الشيء المهم الوحيد

في حياتي هو هذه الارتعاشة في يديّ. كلّ ما عدا ذلك لا يهمّ أحداً ولا يهمني أيضاً. فلا يهمني مثلاً أنني أتاجر بالملابس المستعملة التي لا قيمة لها، ولا يهمني أن أعيش على حساب امرأة، كلما وجدت امرأة غبية تنفق عليّ، ولا يهمني أن أنام في غرفة خشبية على سطح بيت في الشارع المطلّ على نهر "الإلبه"، أو أنني أنام غالباً في النهار وأدفع لقاء ذلك خمسين ماركاً كلّ شهر، إنه مبلغ زهيد على كلّ حال..

لقد نهضت اليوم من نومي في وقت يُعتبر باكراً بالنسبة لي. وأنا لا أجازف بالسير في طريق الجريمة والتحوّل إلى مجرم بمعنى الكلمة. وهذا يكفي مبدئياً للكشف عن شخصيتي. إذ أنّ بعض المجرمين الحقيقيين يحاولون أحياناً أن يتكلموا معي في الحانات، لكنني أرفض دائماً وأتظاهر بأنني أعمل لحسابي الخاصّ. ليس من شكّ طبعاً في أنّ الأذكياء منهم يكتشفون أسراري ويسبرون أغواري، لكنهم يدعونني وشأني ويعرفون أنني لن أخبر الشرطة عنهم، فأنا لست مُخبراً عند أحد. مع أنّ رجال الشرطة يقتادونني أحياناً إلى مديرية الأمن الداخلي ويحققون معي، فلا أبوح لهم بشيء مما أعرف، بل أصنع أوراقي الشخصية أمامهم وأدسّ بينها تلك الوثيقة التي تتضمن حصولي على وسام التقدير العسكري، وهو الصليب الحديدي من الدرجة الأولى. وهنا يوجهّون إليّ فقط أسئلتهم الروتينية ويدعونني أنصرف.

ثمة كل يوم لحظة واحدة أحسّ فيها بنفسي على أفضل ما أكون. هذه اللحظة هي لحظة وصولي إلى منطقة الضوء الخافت داخل جبل الزجاج اللامع وقد خرجت للتوّ من كتلة الأضواء الساطعة المقرفة مسرعاً ومتخيّلاً أنها كانت كتلة من الصخور توشك أن تسقط على رأسي، وتدوم لحظة الخروج هذه ممتعةً حتى تذكّرني يدي اليمنى بأنها مازالت ترتعش. مع أنها في الواقع لا ترتعش بشدة مزعجة، وتكفّ عن ارتعاشها فوراً عندما أمسك بها فنجان القهوة أو أي شيء مشابه. وهي، أي هذه الرعشة في اليدين، عندما بدأت عندي قبل ثلاث سنوات ذهبت فوراً إلى الطبيب، فسألني عما إذا كنت أفرط في التدخين، وأجبته يومذاك بأنني أدّخن خمسين إلى ستين سيكارة كلّ يوم، فشهق مدهوشاً وأعلن أنّ رسم قلبي الكهربائي يظهر أنّ حالة قلبي تدعو للأسف مقارنةً مع سنوات عمري الخمس والثلاثين.

وأضاف أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلي مما دمت لا أشكو من أي شيء آخر غير الرعشة. وقال لي: قلّل من التدخين قبل كلّ شيء! "ثمّ وصف لي

أقراص ميوكاردون المهدئة. وظللت عاماً كاملاً لا أدخّن في اليوم أكثر من عشرين سيكارة فقط، ولكنّ الرعشة لم تختفِ أو تتوقف، ولذا عدت اليوم إلى التدخين تماماً كما كنت في السابق، دون أن ألاحظ أي زيادة في شدة الرعشة. لازلت أرتعش على النحو لا تلحظه العين العابرة، ومازالت رعشتي تجري على وتيرة واحدة.

إنني أشرب القهوة وآكل شريحة خبز عليها بعض الطعام ثمّ أفكر: ترى هل أرحل وأهاجر إلى مكان بعيد؛ وهذه الفكرة بالذات هي التي جعلتني أقضي معظم وقتي في محطّة قطارات السكّة الحديدية وأبقى حتى يحلّ الظلام وأنا أفكر بالسفر. لا سيما وأنه سبق لي أن سافرت عدة مرات إلى هامبورغ وكولونيا. وفي كل مكان أصل إليه أرى الشيء نفسه: محطة سكّة الحديد وخارجها إضاءة ساطعة مثيرة للقرف. وهكذا فقد كان من الأفضل لي أن أبقى في فرانكفورت إذ أنّ عندي أصحاباً أراهم ومكاناً أنام فيه، وهكذا أشتري جريدة وأقعد على كنبة في مكتب بريد المحطة كي أقرأها. الورق خفيف، إنه لا يزن شيئاً، ولهذا فإن يديّ لا تكفّان عن الارتعاش رغم إمساكي الجريدة وقراءتها.

وعلى كلّ حال، مادمت أستطيع القراءة فهذا دليل على أنّ يديّ لا ترتعشان إلا قليلاً. ذلك أنني عندما أقرأ أخبار حروب الجزائر والكونغو مثلاً، وانظر في الوقت نفسه إلى اليد التي أمسك بها الجريدة، أربط على الفور بين الصور المرتعشة التي ترسمها حروف أخبار الحرب في نفسي وبين يدي التي جعلت من صورة الحرب حركة دائمة تنسجم مع رعشتها فتسهّل عليّ القراءة، إلى أن تتحول الرعشة إلى هزّة عنيفة كتلك التي كانت تهزّ يديّ السليمتين سابقاً قبل ستّ عشرة سنة، وهما تدفعان حزام الذخيرة داخل المدفع الرشّاش.

ربما كان من الأفضل لي والحال هذه أن أكفّ عن قراءة الصحف. لكن هذا لا يجدي نفعاً، وسوف أجد آلاف الأسباب التي تذكّرني بأنني كنت في التاسعة عشرة من عمري أعمل وراء مدفع رشاش ضخم في كتيبة المظليين، وأنني كنت جندياً مقداماً وأحمل وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى...

دورات مياه الرجال في محطة فرانكفورت قديمة وواسعة الأرجاء، بل إنها متاهة فسيحة، سواء بحماماتها المرتفعة المكسوة ببلاط سيراميكي أبيض معكّر، أو بمراحيضها ومغاسلها الضخمة. ونحن نقف عادة في الفسحة المؤدّية إلى الأحواض أو عند المغاسل، حيث لا تكون الرائحة الكريهة على أشدها.. أشخاص يخرجون

ببطء وآخرون يدخلون بسرعة. لكنّ عددنا نحن الواقفين هنا يزيد في فترة ما بعد الظهر إلى أكثر من عشرة بقليل ويبقى هكذا حتى يحلّ الظلام. بيننا مجرمون حقيقيون، وكذلك أناس مثلي لا يشتغلون بالأشياء الخطيرة. أما الأنذال السفلة فنحن لا نرضى بوجودهم معنا أبداً، وإذا لاحظنا أنّ أحد الواقفين الجدد معنا نذل أو سافل طلبنا منه أن ينصرف عنا فوراً.. ويدور حديثنا أساساً حول الوسطاء الذين نأخذ منهم البضائع ونقوم بتصريفها، أو نتكلم عن السينما والنساء ومجالات الشغل في أماكن أو بلدان أخرى، نتحدث أيضاً عن فرق المرتزقة أو العمالة في الخارج، ويقف معنا أحياناً أشخاص داروا في أنحاء عديدة من الدنيا. أمّا أنا فقد كان قراري النهائي هو ألا أسافر خارج بلدي، ولا أحسّ حتى برغبة في مشاهدة البلاد الأجنبية..

نحن نسمّي أنفسنا الأصحاب. نعم هؤلاء هم أصحابي الآن، لو لم تَجْرِ إبادة السريّة الثالثة من وحدتي المقاتلة في الحرب لبقي لي أصحابي القدامى، ولما اضطررت للاعتماد على هؤلاء هنا، وكلهم مثلي صعاليك تافهون، لقد فقدت أصدقائي القدامى بعد أن فرغ آخر حزام ذخيرة كان معي ذلك الوقت قرب كاسينو وكان زميلي الذي وقف معي على المدفع يقاتل حتى الطلقة الأخيرة قد فارق الحياة مع وصول البولنديين إلينا الذين ألقوا عليّ القبض واقتادوني إلى مركز قيادتهم. حيث كان عليّ أن أنتظر طويلاً في دهليز التفّ فيه حولي بعض الصبية الطليان وقال لي أحدهم مراراً حتى استطعت فهمه: "إنهم سوف يقتلونك رمياً بالرصاص..!" وحدّقت في وجه الصبي وصمتّ. ثم جاء من أخذني إلى ضابط بولندي بادر قائلاً لي: "أنت قمت بتغطية عملية انسحاب كتيبتك، هيا اذكر لنا مواقع تجمعهم وسوف نعاملك كأسير حرب." ثم بسط أمامي خريطة حملقت فيها بادئ الأمر تماماً مثل أيّ أعمى.

في اليوم التالي سلّمني البولنديون إلى الأمريكان. وبالمناسبة فإن البولنديين لم يطلقوا النار قطّ على أحد من الأسرى، بل سلّموهم سالمين حسب الأصول إلى الأمريكان. المهم أنهم أخذوني إلى معسكر أسرى التقيت فيه بعد ذلك برجليْن من سريّتي كانا يظنّان أنني قُتلت، وكانا هما الوحيدين الباقيين من أفراد السريّة على قيد الحياة، ذلك لأنهما تعرضا للقصف من الجوّ قبل وصولهما إلى موقع التجمّع. وكنت قد شككت في أنها تأخرا عمداً كي ينجوا من الموت ويقعا في الأسر، لكني لم أقل لهما ذلك، وربما توضّح لي السبب في أنني فقدت رفاقي القدامى، أما الشيء الذي لم

يتضح لي ولا أستطيع حتى الآن تفسيره فهو لماذا بدأت يداي فجأة ترتعشان؟؟ كان اهتزازُهما في البداية عنفاً مع إطلاق حزام الذخيرة في المدفع، ثم جاءت فترة هدوء استمرت ثلاث عشرة سنة، عادت بعدها هذه الرعشة المزعجة القبيحة..

وها أنا ذا أغادر دورة المياه وأصعد الدرج إلى أعلى. لقد خيّم الظلام على الدنيا كلها في الخارج، وصار بإمكاني الابتعاد عن محطّة السكة الحديدية، فلقد أعطاني بعضهم في دورة المياه عنوان رجل يريد أن يبيع ساعتين من ساعات اليد الفخمة. العملية ستكون سريعة ومجزية، لكني سأتسكع بعض الوقت في أنحاء المحطة.

انظروا إلى شجرة عيد الميلاد التي مازالت أضواؤها موقدة في قاعة كوّات بيع تذاكر السفر، رغم انقضاء أيام عيد الميلاد، وانظروا جبل الظلمة يصطبغ هذه الأثناء بلون أسود مخلوط بالأزرق.. أما المغارات المضاءة فهي تتوهج بشرر متزايد بل تتلألأ. إيه، ليس هناك في العالم مكان بهذا الجمال!.. وكم أحسّ بالتردد كلّما توجّهت إلى بوابة الخروج....

❑❑❑

جريمة
شارع بلانشار الغامضة

تأليف: كاميلو خوسيه ثيلا[22]

■ ت: علي أشقر ■

خواكين بونوم الذي كان ذا ساقٍ خشبية من صنوبر ترشح صمغاً، صمغاً أصفر دبقاً وكأنه مايزال ينزّ من صنوبرة حيّة، أطبق الباب وراءه وقال:

–ألدينا شيء؟

–لا شيء لدينا.

وتملّك الغضب زوجه /منتشو أغرّ ثابالا/ التي كانت فظّة وذات عين من زجاج تنزّ منها قطيرة ماء صفراء دبقة وكأنّها ماتزال تنزّ من عينها الحيّة التي فقدتها في بوردو لمّا ضربها عليها أخوها الممثل فرمين من أثناء وباء الكوليرا.

تولوز مدينة حزينة قاتمة في الشتاء بمصابيحها الغازيّة الصغيرة التي توقد منذ الخامسة مساء، بأنغام أكورديوناتها البعيدة التي تنوح كرضّع مهجورين؛ بمقاهيها الصغيرة ذات الستائر المخرّمة حول النوافذ؛ بنسائها المنكرات لذواتهن، هؤلاء النساء

(22) *(1916...) روائي وقاص وشاعر وباحث لغوي إسباني. من رواياته: عائلة بسكوال دوارته – خلية النحل– ماثوركا على ميتين التي نال عنها الجائزة الوطنية في الآداب. حصل عام 1987 على جائزة أمير أستورياس عن مجمل أعماله –وجائزة نوبل للآداب عام 1989.*

المنكرات للذات اللاتي ينحرفن عن الطريق القويم ليوفرن ثمن أجهزة أعراسهن، أجهزة أعراس لن يحتجن إليها أبداً لأنهن لن يعدن إلى الصراط المستقيم. تولوز، كما قلت مدينة حزينة، وفي المدن الحزينة -كما هو معلوم- تكون الأفكار حزينة أيضاً وترهق الناس لشدة وطأتها.

خواكين بونوم كان عمل في كل شيء: كان عامل منجم، ورقيباً في سلاح المشاة، وعامل تجميل ومروّج مواد صيدلانية وبائعاً متجوّلاً، وموظفاً في مصرف ميدي، ومهرجاً وجابي ضرائب وحارساً في بلدّية أركاشون. من هذه المهن المتعددة التي مارسها وفّر بعض آلاف من الفرنكات وصمّم على الزواج. فكر في ذلك مليّاً قبل أن يقدم عليه، لأن الزواج مسألة خطيرة جداً. وطلب النصح إلى هؤلاء وأولئك خشية أن يتصرّف بوحي من تفكيره فقط، ثم انتهى -كما تقول العامة- إلى أن صام دهراً وأفطر على بصلة. وكانت منتشو -وما أقبحها!- طويلة، ضخمة الأنف، شبه صلعاء، ممصوصة، قرمزية اللون جدّ حقيرة حتى دُفع أخوها -وهو لم يكن ضبعاً- إلى أن يغضب ذات يوم أكثر مما ينبغي له، فقلع عينها.

كان أخوها فرمين هذا قد اضطّر إلى مغادرة آثيبيتيا لأن سكانها الذين كانوا سيئي الظنّ جداً أخذوا يقولون عنه إنه خنثى، وجعلوا عيشه محالاً. لما رحل كان في التاسعة عشرة من عمره، ولما قلع عين أخته بعد سنتين من ذلك، صار يقلّد نجوم مسرح الموزيت في بوردو. وكان يشرب فودكا، هذا المشروب الذي يُصنع من الكبريت؛ ويغنّي "الحب والربيع"، وينتف حاجبيه.

خواكين الذي لم يضطّر، خلال حياته الطويلة الملأى بالأخطار، إلى أن يشكو أي حادث، فَقَدَ ساقه بعيد زواجه بأغبى طريقة، ذلك لما صدمه قطار ذات يوم عند خروجه من بايونا. هو يقسم ويؤكد القسم إن زوجه دفعته، لكن الأقرب إلى الحقيقة هو أنه سقط من تلقاء ذاته متأثراً بكمية الكحول الكبيرة التي شربها. أما الشيء الواضح فهو أن الرجل ظلّ دون ساق، وبقي رهن البيت إلى أن صنعت له ساق من خشب الصنوبر. وكان يلقي بالمسؤولية على زوجه أمام الناس جميعاً، وماكان ليدهشني أن يسحقها ركلاً لو استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان يفكر كثيراً في مسألة الركل هذه وأكثر ماكان يسبب له الكرب هو أنه أصبح معوقاً. وكان يفكر.

-ماأتعس رجلاً يضطر إلى أن يستند إلى كرسيين كيما يركل زوجه في مؤخرتها!

وكانت منتشو تسخر في حضوره، من عرجه الدرامي. وكان خواكين ينسى آلام قدمه إذا همّ بلعنها. قدم، من يدري إن كان ألقي بها في القمامة حقاً. شيء ولا أغرب إن حدث!

وكان الرجل يجد المصير الذي حلّ بقدمه أمراً لايمكن التحقّق منه، وكأنه سر مستسرّ.

–أين يكون انتهى بها المطاف؟

ترك قطعة من الجسد ترحل على هذا الشكل في عربة القمامة شأن خطير. لكن فرنسا بلد متحضّر، ولعل الشرطة عثرت عليها، ونقلتها مصرورةً بمعطف كأنها طفل مريض إلى المخفر... ولعل رئيس المخفر ابتسم ببطء ابتسامة يعرف رؤساء المخافر وحدهم أن يبتسموها متى بلغوا ذروة خدمتهم. ولربما نزع عود الخلال من فمه، ومسّد شاربيه بعناية، ثم قد يخرج عدسة مكبّرة من درج مكتبه، وينظر إلى القدم. ولربما بدا شعرُ القدم كالخيطان إذا نظر إليه بالعدسة؛ وقد يقول للحرس، لهؤلاء الحرس العجائز كالقوارب، لكنهم فضوليون كالخادمات.

–هذا واضح، ياشبان، واضح!

وربما تبادل الحرس النظرات بمؤخر الطرف سعيدين بإحساسهم أنهم موضع سر السيد رئيس المخفر. شيء رهيب! بعض الأفكار مطواع ككلاب الحضن، وبعضها عنيدٌ يرهق الذهن كأنه العفاريت. فكرة القدم هذه هي من الأخيرة. يحسّ المرء بالقلق إذا ترك الخيال يدور حول هذه المسائل. نحن ننظر إلى رجال الشرطة بخوف، لأن رجال الشرطة ليسوا البابا ويمكنهم أن يخطئوا كما يخطئ الناس كافة، وفي ذلك يكون هلاكنا. فيجعلوننا نمثل أمام رئيس المخفر، ورئيس المخفر ليس هو الآخر معصوماً، وعلى الأرجح ينتهي بنا المطاف إلى الغويانا... وفي الغويانا ينتشر وباء الملاريا في كل ركن... مثلاً يحظر على الشرطة وجدانياً أن يطلبوا قبسةً من نار من المارّة في الشارع، لأنهم يعلمون أن قلوبنا ستضطرب في صدورنا. يحظر ذلك عليهم وجدانياً، لكنهم قلّما يأبهون بهذا الحظر: يقولون إن ذلك غير مكتوب في اللوائح، وبما أنه غير مكتوب...

أسوأ الشرور التي قد تصادف المرء أن تساوره القناعة شيئاً فشيئاً بأنه صار عاجزاً. إذا اقتنع بالقضيّة فجأة، فلا خطر في ذلك: فسوف ينساها أيضاً فجأة صباح

اليوم التالي. إنما السوء أن يتسرّب إليه الاقتناع ببطء وبكل حرص لأنه لن يجد حينئذٍ من ينزع هذه الفكرة من رأسه، ولسوف يصاب بالهزال بمرور الوقت، ويفقد حمرة وجهه ويعاني من الأرق، وهو المرض الذي يسمّم أبدان المجرمين أكثر من أي شيء آخر؛ وفي ذلك هلاكه الأبدي...

خواكين بونوم كان يريد أن يهدهد هذه الأفكار، بالأحرى كان يريد أن يهدهدها أحياناً، لأنه في أحيان أُخر كان يتسلّى بالنظر إلى ساقه الخشبية، وكأن ذلك أمر مسلّ جداً، ويلمسها بعد ذلك بحنان، أو يحفر حرفي اسمه الأولين J,B متعانقين ملتفين حول بعضهما.

–أعْجِبْ برجلٍ دون ساقين، يظلّ مع ذلك، رجلاً!

كان يقول دائماً وكأنما يريد أن يرى ذلك بوضوح أكبر، ثم كان يفكر:

–هاهو فرمين بساقيه كلتيهما، فماذا يعني؟

لم يشعر خواكين قطّ بودّ نحو الممثل. كان يجده –كما يقول– قليل الرجولة حتى يكون رجلاً، ونحيلاً جداً حتى يكون امرأة. وإذا ماجاء تولوز كان يعامله بجفاء بل ربما بشيء من القسوة أحياناً، وإن كان يجلبه دائماً إلى بيته في شارع بلانشار. وكان فرمين إذا أغلظ له صهره القول، بدت عليه علائم الخوف، وكان يبلع مايشاء أن يقول له. أما أخته منتشو فكانت تقول له عادة إن عينها قلعت بمعجزة، وإنها لاتكنّ لأخيها سوءاً. بل على العكس من ذلك كانت تعامله بحفاوة، فكانت تهرع كل ليلة لتتأمله من عند منضدتها وقت مجيئه من العمل في المدينة إن كان يعمل. وكانت تتباهى أمام جاراتها بفنّ أخيها. وعلى المائدة كانت تقدّم له بكل حنان صحوناً كبيرة من الفطر الذي كان معجباً به أيّما إعجاب.

–أرأيت، ياسيدة، الدور الذي قام به في مسرحية راكيل؟ أرأيت دوره في بُولُوَا؟ أرأيت دوره في مستنغيت؟ أرأيت ماقام به في مسرحية آرخنتينا؟

والجارات لم تكنّ رأين قطّ شيئاً من هذا. وأقبح بهنّ من جارات!

وكنّ ينظرن إليها ذاهلات بل حاسدات وكان يبدو عليهن أنهنّ يفكرن كالتالي:

–ما أحسن أن يكون للواحدة أخ فنّان!

ثم يعترفن بعد ذلك خجلى على شكل حميم:

–راؤول ماهو إلاّ إطفائي!... بيير هو مجرّد عامل في محل السيد لافينيستر...

إتيين قضى حياته وهو يداعب بمحسّة معدنية أكفال جياد دالاثا.. آه، أخ فنان....!

وكن يبتسمن حالماتٍ، وهنّ يتخيلن راؤول مؤدياً بالرقص دور المايسترو بدرو؛ أو بيير وهو يدور كالإعصار في باليه بتروشكا؛ أو إتيين سائراً على رؤوس أصابع قدميه كأنه تمٌّ محتضر... بعداً لهم ولتفاهتهم! وكانت الجارات تجيب أحياناً خشية يوصمن بالجهل، أن نعم شاهدن فرمين، /غارسون باسك كما كان/ يسمى في لوحات الإعلان –وفي ذلك ضياعهن، إذ تحاصرهنَّ منتشو بأسئلتها، وتحاصرهن بظنونها، ولاتكفّ حتى تراهنّ خانعاتٍ، مقتنعات، مستسلمات إعجاباً بفنّ أخيها.

خواكين على العكس منها، ماكان يحس بود كبير نحو غارسون باسك. ولطالما قال لأخته إن عهد إيواء الممثل في سقيفتهن في شارع بلانشار قد انتهى وانقضى.

–بيتي فقير –كان يقول– لكنه شريف. وجلب أخيك للنوم في البيت يستدعي كثيراً من الكلام. لاتنسي ذلك.

وكانت منتشو تلجّ في تعنّتها وتؤكد أن الناس لايهمهم أمر الجار في شيء؛ وتلحّ على أنها لاترى أدنى سوء في مجيء أخ للنوم في بيت أخته، وتخلص إلى الصياح بطريقة غير ملائمة، إن البيت كبير ويتوفر فيه مكان فائض لفرمين. وهذا كذب. لأن الحجرة ضيّقة جداً؛ لكن منتشو ماكانت تستجيب لحكم العقل، وماكانت تأبه بحجج زوجها الذي كان يبدي صبراً يفوق صبر القديسين. ومن يدري إن كان إلحاحها هذا إشفاقاً على أخيها أم لسبب آخر.

في الواقع، لاتوجد حجرة واحدة في شارعٍ بلانشار ذات اتساع كافٍ لإيواء شخص غريب. كان شارعاً قصيراً مزدحماً، ضيّقاً ووسخاً، ويعلو البيوت على الرصيفين هذا الزنجار الذي تضفيه وحدها السنون، والدم المراق تضفيه على الواجهات. كان البيت الذي يقطن في سقيفته خواكين بونوم وزوجه، يحمل الرقم 17 مرسوماً أحمر على مصراع الباب، وفيه ثلاثة طوابق موزّعة بين يسار ويمين، وملحق نصفه مخصّص للعفش والنصف الآخر يقي الزوجين المتنافرين، من عوامل الطقس. في الجانب الأيسر من الطابق الأول. يقطن السيد ليبينار موظف البريد المتقاعد وبناته الإحدى عشرة اللاتي لايتزوجن ولايدخلن الدير ليصبحن راهبات ولايهربن مع أحد، ولايعملن عملاً نافعاً. وفي الجانب الأيمن منه، السيد دوران وهو رجل سمين جداً وغامض ودون مهنة معروفة، ومدموازيل إيفيت التي كانت تبصق

دماً وتبتسم للجيران على الدرج؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثاني يعيش السيد فرواتان محاطاً بالقطط والببغاءات، والتي من يدري ولايدري من أين جاء بها؛ وفي الجانب الأيمن السيد غاستون أوليف –ليفي الذي له رائحة الكبريت الكريهة، ويتاجر بكل مايمكنه التجارة به، ويعلم اللّه إن كان يتاجر أيضاً بما لاتمكن التجارة به؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثالث، السيد جان لوي لوبيث أستاذ البيانو؛ وفي الجانب الأيمن من ذات الطابق، مدام بير جراك –مون سوري ذات الغطاء الدائم، والحديث الدائم عن زوجها الذي كان حسب زعمها مقدماً في سلاح المدفعية، وتشكو الزمن دائماً وقسوة الحياة وماتسرقه الخادمات منها.... وأخيراً، كان يعيش في الملحق –كما قلنا– منتشو وخواكين سيئا التوافق في حجرتهما العارية، طابخين في مطبخ صغير على النشارة التي تطلق دخاناً كثيفاً يلهب العيون. باب الحجرة منخفض الارتفاع بل هو أخفض من قامة رجل، ولابد لمن يدخل الحجرة من أن يحني رأسه قليلاً. وكان خواكين بونوم يقوم، بسبب عرجه بانحناءة جد ظريفة عند الدخول، وكان يبعث على الضحك رؤيته يفعل ذلك. إذاً، دخل، كما نعلم، أطبق الباب وراءه.

–ألدينا شيء؟

–لاشيء لدينا.

خواكين الرجل الذي عمل لما كان يتمتع بساقين من لحم وعظم في مجالات شتى، كان يجد نفسه اليوم لما صار بساق واحدة من لحم وعظم، وأمسى بأمسّ الحاجة إلى الساق الأخرى، دون عمل ما وعلى شفا أن يرمى به وبأغراضه القليلة وبزوجه إلى الشارع في يوم هو أقل الأيام توقّعاً له.

كان يخرج كل يوم بحثاً عن عمل. لكن دون جدوى. العمل الوحيد الذي عثر عليه منذ خمسة وعشرين يوماً كان بنقل بعض الكتب في محل برتلومي للتجارة بالمواد المستعملة. ولم يلبث فيه سوى ثمان وأربعين ساعة لأن صاحب المحل المحاط دائماً بالثياب التي لم يبدلها في حياته كلها، لم يشغل نفسه قط بقضايا الروح، فضبطه يكتب قصيدة وطرده.

ذلك اليوم، جاء مهزوماً محبطاً كالأيام الأخر، لكنه كان في مزاج أسوأ وصارت زوجه –كما تعلمون– كتلة من الغضب...

II

كان رئيس المخفر ضجراً كمحارة.

–في تولوز لايحدث شيء!

كان يقول وكأنه يتأسف... وهذا حق، في تولوز ماكان يحدث شيء. ماذا يعني –فبعد ست وثلاثين سنة من الخدمة أن يشغل نفسه، بمحفظة اختلست بزوجٍ من الدجاج سرق؟

–باه! –كان يقول– لايوجد حافز! في تولوز لايجري شيء!

ثم يستغرقه التفكير منطوياً على نفسه، راسماً زهوراً وعصافير صغيرة على ورق النشّاف ليعمل شيئاً ما.

خارج المخفر، كانت السماء تمطر ببطء وحزن على المدينة. وكان المطر يضفي على تولوز جوّاً كجوّ سهرة على ميت. في المدينة الحزينة تكون الأفكار –كما هو معلوم– حزينة أيضاً، وتنتهي إلى إرهاق الناس لشدة وطأتها.

أما الحراس فيروح ويجيء على شكل روتيني تحت معاطفهم المشمعية السوداء متمترسين وراء شواربهم العريضة حيث تركت قطرات المطر الناعمة كريات شفافة مرتعشة. أتى عليهم زمن لم يكن يقول لهم رئيسهم ضاحكاً:

–هذا واضح، ياشبان، هذا واضح

وهم العجائز كالقوارب، الفضوليون كالخادمات أمسوا منطفئين تقريباً حتى دون تلك الكلمات.

في المبنى ذي الرقم 17 في شارع بلانشار الكائن على بعد ناصيتي شارعين من المخفر –والعالم منديل– كان خواكين بونوم ذو الساق الخشبية، والرجل الذي طالما عمل في أشياء شتى خلال حياته، وهو الآن دون عمل، يتجادل وزوجه منتشو أغرّ ثابالا التي كانت جد فظة، وذات قبعة مهترئة وعين من زجاج. وكان فرمين أغرّ ثابالا ينظر إليهما يختصمان واضعاً لفافته الشرقية بين أصابعه.

–أنت تحس برعب من العمل، وأعلم ذلك. لذلك لاتجد شغلاً.

وكان خواكين يتحمّل هبوب العاصفة على خير مايطيق. وكانت زوجه تلجّ في

لومه مرة أخرى.

–وإذا وجدته لاتظل فيه يومين. أفي مثل سنك وبوضعك يضبطك صاحب المحل تكتب شعراً ويطردك من العمل كما يطرد الطلاب!

كان خواكين يلوذ بالصمت قاعدة ومنهجاً. فما كان يقول شيئاً قط بل كان يسكت كالأخرس. وإذا ضجر من السكوت، كان يستند إلى كرسيين ويلجأ إلى الركل بالقدم. وكان يسدد إلى زوجه الركلة بدقة وفي وقت ملائم. فيأخذ صوتها يهمد شيئاً فشيئاً إلى أن تنصرف مزمجرة في السرّ، باكية في أي ركن تجده.

وفكّر فرمين ذلك اليوم في أن يتدخل، ربما ليتجنب أن يلجأ صهره إلى الركل، لكنه قرّ عزمه على عدم التدخّل. وقد يكون بذلك أكثر حكمة.

أما أخته فكانت ماتزال ترغي وتزبد، ولم يكن خواكين بدأ بعد. وكانت هي مثارة كالوحش؛ وكانت قطيرة الماء الصفراء والدبقة التي ترشح من عينها الزجاجية وكأنها تقطّر من العين الحيّة التي فقدتها في بوردو أثناء موجة الكريب، تبدو بلون زهري، ومن يدري إن كانت اصطبغت بقطرة دم!... وأخذت منتشو تثور شيئاً فشيئاً وقد احمرّ وجهها من الغضب مطلقة ألسنة لهب من الحنق، ألسنة لهب لم يستطع إخمادها المطر الذي يتساقط ناقراً الزجاج بلطف، ذلك المطر الذي كان يهطل ببطء وحزن على المدينة.

كان فرمين يجلس على الصندوق خائفاً، ويرى تطور المشهد دون أن يقرر – بالنظر إلى مظهر منتشو– أن يتدخل. كان مرتجفاً شاحباً فزعاً، وكان يؤثر ذلك الوقت لو خسر كل شيء على أن يكون موجوداً في البيت. واللّه وحده يعلم إن كان المسكين يخمّن ماسوف يحدث، يخمّن ماسوف يصنع به بعد ذلك! وما كان أبعد السيد رئيس المخفر في ذلك الوقت عمّا سيظهر خلال دقائق معدودات من أمر خطير كفّ عن الظهور في تولوز! أمر طالما عني رئيس المخفر بأن يحدث! على الأرجح هو الآن يشرب الجعة، أو يلعب الشطرنج، أو يتحدث في السياسة والسيد الدكتور سان روسالي. ولعله ماكان يتوقع، بعد ستة وثلاثين عاماً من الخدمة أن يحدث حادث جديد به في تولوز حيث ماكان يحدث شيء، ولايوجد حافز ما إلى العمل.

كان خواكين قد تحمل فوق طاقته، فنهض وسار بخطا ذئب جريح تبعث على

الذعر رؤيته. قرّب كرسيين من بعضهما ليستند إليهما وتأرجح: ثاث! وأطلق الركلة على زوجه. كانت مسألة ثانية واحدة: منتشو لاذت بالحائط لتتجنب الرفسة... ونجم عن ذلك أن دخل كلاّب في عينها الزجاجية. من يدري! ربما كان اخترق حنجرتها لو أصيبت به.

وعلم أن خواكين ذعر مما حل بزوجه، وانزلق عن المقعد وزلّت قدمه فسقط على ظهره ودُقت عنقه.

كان غارسون باسك يجري من هذا الجانب إلى ذلك الجانب فريسة الذعر، ولما وجد الباب هبط الدرج مسرعاً كروحٍ يحملها الشيطان؛ ولما مر أمام الطابق الأول، ابتسمت له إيفيت بصوتها الرنان:

–إلى اللقاء، غارسون باسك!

وعند عبوره البوابة حيته بصوت واحد بنتا السيد ليبينار الصغريان اللتان لاتتزوجان ولاتصبحان راهبتين، ولاتهربان مع أحد، ولاتعملان شيئاً نافعاً.

–إلى اللقاء، غارسون باسك!

وكان غارسون باسك يركض لاهثاً دون أن يدري لماذا، ولا إلى أين، ودون اتجاه محدد. وكان المطر مايزال يسقط لما أوقفته الشرط، هؤلاء الشرطة الذين ليسوا البابا، ويمكن لهم أن يخطئوا كما يخطئ الناس جميعاً... ظهرت صحيفة بوست ديتولوز تلك الليلة بعنوان مثير، وكان البائعون يصيحون حتى أخذتهم البُحة:

–جريمة شارع بلانشار الغامضة!

أما السيد رئيس المخفر الذي ليس هو الآخر البابا، وقد يخطئ أيضاً مثلما يخطئ الناس كافة، فكان يبتسم.

–جريمة شارع بلانشار الغامضة! ياه! –كان يضيف– تباً لهؤلاء الصحفيّين!

وكان الحرس مبتهجين يشعون فرحاً، فقد قال لهم رئيس المخفر مرة أخرى:

–هذا واضح، ياشبان، هذا واضح! الويل لهؤلاء الممثلين! سأحبسهم جميعاً كإجراء احترازي كيلا تحدث هذه الأمور مرة أخرى.

***

الغويانـا موبـوءة بـالبعوض الـذي ينقـل الملاريـا. ولـم يسـتطع غارسـون باسـك التكيّف.

وكـان يرقـب، وهـو جـالس علـى صـندوقه، السـاعات تمـر والأيـام والأسـابيع والشهور... لكنه لم يظفر برؤية سنة واحدة تمر...

❑❑❑

الـحـبـــل

(قصة قصيرة)

الكاتبة الأمريكية: كاثرين آن بورتر

ت: إياد حسن جبير

بعد انتقالهم للريف بثلاثة أيام، أتى من القرية حاملاً سلة المشتريات ولفة حبل بطول أربع وعشرين ياردة، خرجت هي لملاقاته تمسح يدها بثوبها الواق. وقد تشعث شعرها، وأصبح أنفها قرمزياً بتأثير الشمس. فيما التصق قميصه الرمادي بجسمه واغبر حذاءه الثقيل. كان قد أخبرها أنها تشبه النساء الريفيات، وأكدت هي أنه يشبه شخصية الريفي في المسرحيات.

كانت تنتظر القهوة طوال النهار، لأنهما نسيا أن يوصيا عليها من المتجر في يومهما الأول هنا. هل جلب القهوة؟

يا الله، كلا، لم يجلبها، يارب، عليه أن يرجع الآن، نعم، عليه أن يرجع حتى وإن قتله ذلك. فكّر قليلاً، وإن كان قد جلب بقية الأشياء كلها. ذكرته أن سبب نسيانه القهوة كونه لايتناولها -فلو كان يتناول القهوة لتذكرها بسرعة- لنفترض إن السكائر نفذت عندهم؟ أكان سينسى أن يجلب السكائر؟ ثم رأت الحبل. لم جلب هذا الحبل؟ حسناً، ربما فكر أنه سيكون مفيداً لنشر الملابس أو أي شيء آخر، وبالطبع فقد سألته، إن كانوا سيفتحون مصبغة ملابس، فقد كان لديهم حبل بطول خمسين قدماً معلقاً أمام عينيه؟ لماذا لم يلاحظ ذلك؟ فقد كان الحبل يبدو كلطخة وسخ في ذلك المنظر الريفي الرائع.

اعتقد هو أن هناك الكثير من الأشياء التي يكون الحبل نافعاً فيها. وأرادت هي أن تعرف ماهي هذه الأشياء، في الحال -فكر لعدة دقائق، لكنه لم يجد شيئاً

يكون الحبل نافعاً فيه- بإمكانهما الانتظار لمعرفة ذلك، ألا يستطيعون الانتظار؟ فالمرء يحتاج إلى الكثير من الأشياء الغريبة لتساعده على العيش في الريف -قالت "نعم ذلك صحيح ولكن ليس في هذا الوقت الذي يحسب فيه حساب البنس الواحد، وشراء حبل آخر يجعل الأمر سخيفاً للغاية". هذا هو كل ما في الأمر -لم تعن بكلامها أي شيء آخر. لقد رأت للتو، وليس منذ البداية، لماذا شعر أن شراء الحبل ضروري.

هدر غاضباً. حسناً. لقد اشتراه لأنه أراد أن يشتريه وهذا هو كل مافي الأمر، واعتقدت أن هذا سبب كاف. وتساءلت، لماذا لم يقل ذلك منذ البداية. بدون شك فإن أربع وعشرين ياردة من الحبال ستكون مفيدة، أربع وعشرون ياردة. لقد كانت هناك مئات الأشياء التي لاتستطيع تذكرها الآن والتي ستكون نافعة، وبالطبع كما قال هو "كل الأشياء مفيدة في الريف".

أُصيبت بخيبة أمل لعدم جلبه القهوة، وأوه، انظر، انظر إلى البيض! أوه ياإلهي، إنها تسيل جميعاً! ماذا وضع فوقها؟ أ لايعلم أن البيض يجب ألاّ يعصر؟ لقد عصر البيض، من الذي عصره؟ أراد أن يعرف، ما أسخفه من قول، فقد جلبها في السلة مع بقية الحاجات، فإذا ماتكسر البيض فذلك ذنب البقال، فقد كان عليه أن لايضع الأشياء الثقيلة فوق البيض. اعتقدت أن سبب تكسر البيض هو الحبل، إنه أثقل شيء في الرزمة، لقد رأته بوضوح عندما جاء من الطريق. إن الحبل حمولة ثقيلة حتى وإن وضع فوق أي شيء آخر. وتمنى أن يشهد كل العالم إن ماتقوله ليست هي الحقيقة. فلقد حمل الحبل بيد والسلة باليد الأخرى. مافائدة عينيها إذا كانتا لاتريان؟ حسناً، على أية حال، فإن بإمكانها أن ترى شيئاً واحداً بوضوح. لابيض للفطور، وأن عليهم قليها الآن للعشاء، إنه أمر سيء جداً. لقد خططت أن تطهو اللحم للعشاء، ولايوجد ثلج لديهم، فلا يمكن حفظ اللحم. أراد أن يعرف لماذا لاتقوم هي بتكسير البيض وتضعه في قدر في مكان بارد.

مكان بارد! لو كان بإمكانه فقط أن يدلها على مكان بارد، فإنها ستحفظ البيض هناك بكل سرور. وفكر لو أنهما طبخا البيض واللحم في نفس الوقت وسيكون بإمكانهما تدفئة اللحم في الغد. وخنقتها الفكرة لحم يعاد تسخينه، بينما بإمكانهما أن يتناولاه طازجاً -والخيار الثاني أن تتناول أشياء أخرى بدلاً من اللحم!. دلّك كتفيها قليلاً، إن الأمر لايستحق هذا كله، ياعزيزتي، أيستحق؟ في بعض الأحيان عندما

يلهوان فإنه يدّلك ظهرها وهي تتمطى وتموء كقطعة، ولكن في هذه المرة فإنها تنهدت بازدراء وأظهرت مخالبها!- كان تيهيأ لأن يقول أنهم سيتدبرون الأمر بطريقة ما، عندما استدارت إليه وقالت أنه إذا ما أخبرها بأنهما سيتدبران الأمر بطريقة ما فإنها ستصفعه على وجهه.

ابتلع كلماتها وهو يتوهج غضباً، واشتعل وجهه غيظاً، التقط الحبل وشرع بوضعه على الرف العلوي. لكنها ماكانت لتضعه هناك، فالرف العلوي خاص بالجرار والعلب، ولن تجعل الفوضى تسوده بهذا الحبل- الطويل- لعد حلت من الفوضى التي كانت تتحملها في شقتها في المدينة، فعلى الأقل توجد هنا مسافة كافية، كما أنها تريد أن تكون أشياءها مرتبة.

حسناً، أراد أن يعرف في تلك الحالة ماذا تفعل المطرقة والمسامير على الرف نفسه؟ ولماذا وضعتهم هنا وهي تعلم جيداً أنه يحتاج تلك المطرقة وتلك المسامير ليصلح إطار النافذة في الطابق العلوي؟ ولكنها قامت بكل بساطة بتأخير كل الأعمال في المكان بعاداتها الجنونية في تغيير وإخفاء الأشياء هنا وهناك. لقد كانت متأكدة عندما طلبت إذنه في ذلك. ولو كان لديها أدنى سبب لتصدق أنه كان سيقوم بإصلاح إطار النافذة في هذا الصيف لكانت قد تركت المطرقة والمسامير حيث تركهما في وسط غرفة النوم حيث يمكن أن يدوسا عليها في الظلام. والآن فإن لم يقم هو بتنظيف كل هذه الفوضى التي سببها فإنها ستقوم بإلقاء كل شيء في البئر.

أوه، حسناً، حسناً- هل يضعهما في دورة المياه؟ بالطبع لا، فهناك المكانس وآنية جمع الغبار والمطهرات كلها في دورة المياه؟. لماذا لايستطيع أن يجد مكاناً لحبله خارج مطبخها؟ بحق الله، هل توقف عن ملاحظة وجود سبع غرف في المنزل، ومطبخ واحد فقط؟

أراد هو أن يعرف ماسبب كل مافعله؟ وهل أنها أدركت بأنها تجعل من نفسها حمقاء كلياً؟ لماذا تزوجته إذن؟ هل تزوجت غبياً عمره ثلاث سنوات؟ كل المشكلة تتلخص في أنها أرادت شخصاً ما أضعف منها لتتحداه وتطغي عليه. وتمنى على الله أن يكون لديهم طفلين فتفرغ عليهما سيطرتها وطغيانها ويرتاح هو.

تمعج وجهها عند سماعها هذا القول. وذكرته بأنه نسي القهوة واشترى حبلاً

تافهاً. وقد فكرت هي فعلاً بكل الأشياء التي يحتاجانها لجعل المكان لائقاً للسكن فيه، حسناً بإمكانها البقاء– هذا كل مافي الأمر وبدت هي بائسة جداً تائهة وقانطة، لم يصدق أن سبب المشكلة هو قطعة حبل، ماذا يحدث بحق السماء؟

أوه، رجاءً هل بإمكانه أن يصمت ويذهب عنها، ويبقى بعيداً، ولو لمدة خمس دقائق! بأي طريقة كانت.

نعم، سيذهب بالتأكيد وسيبقى بعيداً إذا مارغبت، يارب، نعم، لايوجد شيء أحب إليه من الذهاب وعدم العودة أبداً. لم تر طيلة حياتها ما الذي يبقيه، إذن، إنه وقت التبجح، لقد استقرت هنا، بعيداً عن السكة الحديدية بأميال عديدة، وبين يديها بيت شبه فارغ، ولا تملك بنساً واحداً، ولديها الكثير من الأعمال لتقوم بها– وبدت أنها اللحظة المناسبة التي أتاحها الله له لكي يتخلى عنها، وكانت مندهشة كيف أنه لم يبق في المدينة لحين إكمالها كل الأشياء، أليست هذه حيلته المعتادة؟

وتوضح له أن الأمر قد تجاوز حده، إنه الشيء المحظور مناقشته، وإذا ماسمحت له بالكلام، لماذا بحق الجحيم بقي في المدينة الصيف الماضي؟ طبعاً ليعمل العديد من الأعمال الإضافية ليجمع النقود التي يرسلها لها. هذا هو كل ما في الأمر، وهي تعلم جيداً بأنهما لن يستطيعا النجاح بطريقة أخرى، وقد وافقت هي على مساعدته في ذلك الوقت، وهي المرة الوحيدة التي تركها تفعل شيئاً بنفسها. أوه، بإمكانه إخبار جدته بذلك، فقد كان لها انطباع شخصي عن الذي أبقاه في المدينة. وفي الحقيقة فإنه أكثر من انطباع، إذا أراد أن يعرف، إذن، هل تريد إثارة كل ذلك الآن، هل تريد هي ذلك؟ حسناً بإمكانها أن تفكر بالطريقة التي ترضيها، فقد تعب هو من الشرح والتوضيح، ربما يبدو الأمر مضحكاً، ولكنه بقي هناك... هكذا، ببساطة. ماذا كان بإمكانه أن يفعل. فقد بدا مستحيلاً أن تأخذ هي الأمر على محمل الجد، نعم، نعم، فهي تعرف كيف يتصرف الرجل عندما يكون لوحده لدقيقة واحدة. فمن المؤكد أن امرأة ماستخطفه وبالطبع فإنه لايستطيع أن يجرح مشاعرها! حسناً، ماهو الأمر الذي يجعلها مهتاجة هكذا؟

هل نسيت هي عندما أخبرته أن الأسبوعين اللذان أمضتهما لوحدها في الريف كانا أسعد أسبوعين رأتهما خلال أربع سنوات؟ وكم مضى على زواجهما عندما قالت ذلك؟ حسناً، سأخرس! لو كانت لاتعتقد ذلك لما ظل ذلك في داخله.

لم تكن تعتقد أنها كانت سعيدة لأنها كانت بعيدة عنه، بل لأنها جعلت هذا

البيت اللعين لطيفاً وجاهزاً له، هذا هو ماقصدته، وانظر الآن! لقد تذكر شيئاً سبق أن قالته قبل سنة لكي يبرر لنفسه نسيانه جلب القهوة لها وتكسيره البيض وشراءه قطعة حبل رثة لايمكن تسديد ثمنها. واعتقدت أن الوقت قد حان حقاً لنسيان الموضوع وهي الآن تريد شيئين فقط من هذا العالم. إنها تريد منه أن يأخذ حبله من تحت أقدامها وأن يذهب للقرية ليجلب لها القهوة. وإذا كان باستطاعته التذكر فعليه أن يجلب قفازات اليد لتستخدمها لمسك المقلاة، وحبلين للستائر وكذلك إذا كانت هناك قفازات مطاطية في القرية لأن يديها أصبحتا خشنتين، وقنينة من مستحلب المغنسيوم من الصيدلية.

نظر إلى عصر اليوم بلونه الأزرق الغامق ينشر حرارته على المنحدرات ويمر على جبهته، سعل بقوة وقال، لو أنها تستطيع أن تصبر دقيقة على أي شيء تريده، فقد كان راجعاً للقرية، لقد قال أنه سيرجع، ألم يقل ذلك ثم اكتشفا أنه غفل عنها؟.

أوه، نعم، حسناً، حسناً، أسرع، فهي ستغسل النوافذ، فالريف جميل جداً! وشكّت هي في أنهما يمتلكان دقيقة واحدة ليتمتعا به. لقد أراد أن يذهب، ولكنه لايستطيع، وإن قال ذلك. فلو لم تكن هي مجنونة عديمة الفائدة لرأت أنه سيذهب، وأن هذه الأمور تحدث في الأيام الأولى لانتقالهم للريف فقط. ألا تستطيع هي أن تتذكر أي شيء مفرح عن فصول الصيف الأخرى؟ ألم يتمتعا سابقاً قط؟ لم تكن تملك الوقت الكافي لتتحدث عن ذلك، والآن ألا يمكنه أن يترك الحبل مرمياً هنا لتتعثر به، ثم إنه حمله عن المنضدة بطريقة ما، وخرج متأبطاً الحبل.

هل سيذهب هذه الدقيقة؟ بالتأكيد سيذهب، اعتقدت هي ذلك، ففي بعض الأوقات يبدو لها أن لديه وجهة نظر أخرى في اللحظة المناسبة تماماً التي يتركها فيها لوحدها. لقد أرادت أن تنشر الشراشف في الشمس فلو نشراها في هذه اللحظة لاحتاجا لثلاث ساعات على الأقل، ولابد أنه سمعها وهي تقول أنها ستنشرها في الخارج. لذلك فمؤكد أنه سيذهب ليتركها تفعل ذلك لوحدها، وافترضت أنه يعتقد أن قليلاً من التمارين ستفيدها.

حسناً، إنه ذاهب وهو مرتاح ليجلب لها القهوة، فمن السخف السير أربعة أميال من أجل باوندين من القهوة، لكنه مستعد لأداء المهمة تماماً. فالعادة تجعل منها حطاماً، ولكن إن أرادت أن تجعل من نفسها حطاماً فإنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً.

إذا كان يعتقد أن القهوة هي التي تجعل منها حطاماً، فإنها تهنيه فإنه يملك ضميراً نقياً.

ضمير أو لاضمير، إنه لايعرف لماذا لا تستطيع الشراشف أن تنتظر حتى الغد، على أية حال هل إنهما سيسكنان المنزل أم سيجعلانه يقتلهما بأعماله؟ وبهتت هي عند هذه الجملة، وأصبح وجهها مزرقاً حول فمها، لقد بدت خطرة للغاية، وذكرته أن أعمال البيت ليست من مسؤوليتها فقط من الآن فصاعداً، وعليه أن يشترك في أعمال البيت أيضاً، فلديها عمل أيضاً وعليها إنجازه فمتى باعتقاده ستجد هي الوقت الكافي لإنجاز كل هذه الأعمال.

هل ستبدأ من جديد؟ إنها تعلم جيداً كما يعلم هو أن عمله يؤمن الدخل الكافي للعائلة أما عملها فعرضي، فلو اعتمد على ماتحصل عليه، لكان عليها أن تترك هذا السؤال إلى الأبد. هذا ليس تفسيراً إيجابياً للسؤال، فالسؤال هو لو أن كل منهما اشتغل في وقته الخاص فهل سيكون هناك توزيع لأعمال المنزل بينهما، أم لا؟ إنها تريد أن تعرف فعليها أن تنظم وقتها. لماذا! فلقد اعتقد أن كل هذا قد نظم سابقاً. لقد فهم أنه سيساعد في أعمال المنزل فقط. ألا يساعدها في الصيف؟ ألا يساعدها؟ أوه، ألا يساعدها؟ متى وأين وماذا يفعل؟ يارب، يالها من نكتة قوية!.

لقد كانت نكتة قوية فعلاً فقد أصبح وجهها أرجوانياً، وصرخت ضاحكة، لقد ضحكت بقوة جعلتها تضطر للجلوس، وانفجرت الدموع من عينيها وسالت على زوايا فمها، واندفع هو نحوها ورفعها ليجعلها تقف على قدميها وحاول أن يصب الماء على رأسها، قطع الخيط الذي علقت به المغرفة إلى الحائط.

وحاول أن ينضح الماء عليها بإحدى يديه فيما كانت الأخرى تمسك بها. تخلى عن محاولة صب الماء وبدلاً من ذلك فقد هزها بقوة.

انتزعت نفسها منه بقوة، وهي تصرخ عليه لكي يأخذ حبله ويذهب إلى الجحيم، لقد ملت منه ولا تريده، وركضت وسمع وقع خفها ذي الكعب العالي يقرقع على الدرج.

خرج من البيت ووصل إلى الممر الخارجي، شعر فجأة بوجود قرحة صغيرة في كاحله، وشعر كما لو أن النار قد شبت بقميصه. إن الأشياء تحدث بسرعة والمرء لايعرف أين أصبح وسطها. كما أنها تستطيع أن تندفع غاضبة دون سبب، يالها من

مزعجة، اللعنة، إنها لاتملك سبباً وجيهاً لذلك، وعندما تتحدث معها فكأنك تتحدث مع منخل، خصوصاً في فورة غضبها. اللعنة، لقد أمضى حياته يداري مزاجها! حسناً. ماذا سأفعل الآن. بإمكانه أن يأخذ حبله ويبادله بأي شيء آخر، الأشياء تتراكم، الأشياء تتضخم، حتى أنك لاتستطيع أن تنقلها أو أن تفرزها، أو حتى أن تتخلص منها.

ستظل الأشياء مرمية هنا وهناك حتى تتعفن، بإمكانه إعادة الحبل، اللعنة، ولكن لماذا عليه إعادته ها؟ لقد أراد هذا الحبل. وماتأثير قطعة الحبل على أية حال، قطعة حبل. تصور شخصاً ما يهتم بقطعة حبل أكثر من اهتمامه بمشاعر إنسان. أي حق تمتلكه هي لتقول كلمة واحدة؟ وتذكر كل الأشياء العديمة الفائدة والعديمة المعنى التي اشترتها لنفسها، لماذا؟ لأنني أريده هذا هو السبب! توقف واختار صخرة كبيرة بجانب الطريق، بإمكانه وضع الحبل خلفها، سيضعه في صندوق الأدوات عند عودته. لقد سمع الكثير بسببه، الكثير الذي سيظل يتذكره مدى حياته.

عندما عاد كانت تتكئ على صندوق البريد بجانب الممر الخارجي، تنتظر. لقد كان الوقت متأخراً، ورائحة اللحم المشوي تطفو عالياً في الهواء البارد، وبدا وجهها أكثر شباباً ونعومة وحيوية. وقد مشطت شعرها الأسود على جهة واحدة، لوّحت له من على بعد، أسرع هو. نادته أن العشاء جاهز بانتظاره، ألا يتضور جوعاً؟ بإمكانها أن تراهن على أنه جائع، وهاهي القهوة، ولوح لها بالقهوة، ونظرت إلى يده الأخرى، ماهذا الذي يحمله؟

حسناً، إنه الحبل ثانية، توقف للحظة. لقد أراد أن يبدله ولكنه نسي. وأرادت هي أن تعرف لماذا عليه أن يبدله، إذا كان يريد هذا الحبل حقاً. أليس الهواء لطيف الآن، أليس جميلاً أن نكون هنا معاً؟ سارت إلى جانبه وقد علقت إحدى يديها بحزامه الجلدي، وسحبته باتجاهها أثناء سيرها معه وتحككت به، ومالت عليه، ووضع هو ذراعه حول جسدها وربت على بطنها، وتبادلا ابتسامة قلقة.

قهوة، قهوة، للجميلة المدللة! وشعر وكأنه قد جلب لها هدية جميلة.

ياله من محبوب جداً، هذا ما اعتقدته مؤخراً -ولو كانت قد تناولت قهوتها في الصباح لما تصرفت بحماقة كانت هناك بعض العصافير تعود، تخيل حتى خارج موسم التزاوج، فهو ينادي وقد جلس على شجرة التفاح البري لوحده، ربما ينتظر

فتاته، ربما فعلت ذلك، تمنت أن تسمعه مرة ثانية، لقد أحبت العصافير.. إنه يعرف طباعها، ألا يعرف؟ بالطبع فإنه يعرف طباع زوجته جيداً..

❑❑❑

الأســــير

قصة من تأليف: راديارد كيبلينغ

(1902)

ترجمة: توفيق الأسدي

ولد راديارد كيبلينغ ابن جون لوكوود كيبلينغ مؤلف "الحيوان والإنسان في الهند" في بومباي في عام (1865). تلقى تعليمه في كلية يونايتد سيرفيسيز، ويستوورد هول وقد انخرط في العمل الصحفي في الهند من عام 1882 إلى عام 1889. وترتكز شهرته جوهرياً على قصصه القصيرة التي تعالج مواضيع كالهند والبحر والغابة وحيواناتها، والجيش والبحرية، وعدداً كبيراً من المواضيع الأخرى. أما شعره المتنوع من حيث الموضوع كما هو نثره فقد تمتع أيضاً بشعبية كبيرة. ومن بين منشوراته الأكثر شعبية "حكاية بسيطة من الجبال"، (1888)، و"معوق مدى الحياة"، (1891)، و"أغاني غرفة الثكنة"، (1892)، و"كيم"، (1901).

نال كيبلينغ جائزة نوبل للآداب في عام (1907)، وتوفي في عام (1936).

"من يؤمن لن يسرع" . إشعيا .

قبع زورق الحراسة عبر مدخل المسبح وراح أفراد طاقمه يصفعون الماء بكسل بمجاذيفهم. جلس جندي من الميليشيا بمعطف أحمر، وبندقيته في يده، عند مقدم الزورق كما جلس ضابط صف عند مؤخره. بين مركب المؤن ثلجي البياض والصخور، مسطحة الرأس عسلية اللون على الشاطئ راح أسرى حرب بأجساد لها لون قرنفلي كالقريدس ويستحمون معكرين المياه الخضراء.خلف مخيمهم الصفيحي المنتظم وأعمدة الإنارة الكهربائية برزت تلك الدعائم المبقعة بالحجارة التي ترمي بالحرارة على سايمونزتاون. إلى الأسفل من ذلك كانت السفينة الصغيرة "باراكوتا" تومئ إلى [سفينة]، "جبل طارق"، الضخمة و[سفينة]، "بينيلوبه" العجوز التي كانت

خلال عشر سنوات نادياً للعزاب ومتحفاً للتاريخ الطبيعي وروضة أطفال وسجناً، متجذرة ومثبتة بحبال مرساتها. إلى البعيد كانت ناقلة أطلسية ذات مداخن ثلاث لها مقدم ضيق ومؤخر يتهادى من البحر العميق.

قال الخفير الواثق من حسن نية الزائر: "تحدث إليهم. تستطيع التحدث إلى أي واحد منهم يتكلم الإنكليزية. ستجد الكثيرين منهم يتكلمونها".

بين هنا وهناك كانت مجموعة جدية تتجمع من حول قساوسة الكنيسة البروتستانتية الهولندية الذين كانوا يعظون دون شك حول الوفاق، إلا أن الأكثرية فضلت الاستحمام. لقد جعل "الرب" الذي يهتم بالأشياء الصغيرة"، الزائر في ذلك اليوم يتلقى بريداً متأخراً منذ أسبوعين في طرد واحد من ساعي بريد عرضي، وكانت الرزمة الثقيلة كلها من الصحف المربوطة بشريط ومدلاة من يده كالطعم. عند حافة الشاطئ جلس رجل بني الشعر نحيل بساقين متصالبتين عارياً إلا من قميصه السماوي اللون يحرس دزينة من أكوام الملابس. راحت عيناه تلاحقان السفينة الأطلسية القادمة.

قال دون أن يلتفت (وكشفت لهجته جنسيته): "عذراً أيها السيد. هل لك أن تبتعد عن هذه الملابس؟ لقد انتخبت حاجباً: بالاقتراع الهولندي".

انتقل الزائر مقابل حاجز الأسلاك الشائكة وجلس ليقرأ بريده.. ولدى سماعه حفيف أغلفة الصحف التفت الرجل بني الشعر بسرعة، وقد بدا في عينيه الرماديتين الحديديتين المتقاربتين جوع المحروم من الصحافة.

قال الزائر: "هل لك حاجة إلى الصحف؟".

"هل لي حاجة؟"، كانت سبابة سريعة ملتوية قد سبق لها وراحت تبعث بالأغلفة الخارجية. "عجباً! هذه سمة بريد نيويورك! أعطني الإعلانات في آخر صفحة من "هاربرز" و"م كلورز"، وسأكون على صلة ببلد الرب مجدداً! هل تعرف كم كنت تواقاً إلى صحف؟"..

روي الزائر حكاية ساعي البريد العرضي.

قال ذو الشعر البني المتحمس ككلب الصيد في إنجاز مهمته: "عناية إلهية! من حيث الوقت والموضوع. أجل!..."المجلة العلمية الأمريكية"، مرة أخرى! أوه، هذا جيد! هذا جيدا!"، انهار صوته وهو يضغط بأنفه الأشبه بمنقار الصقر على

مواصفات براءة الاختراع المطبوعة بحبر داكن". هل أستطيع الاحتفاظ بها؟ شكراً. شكراً! عجباً، عجباً، حسناً، حسناً!، "مجلة أمريكان تايلر"، بين كل الأشياء التي خُلقت! هل أنت مشترك فيها؟!"

قال الزائر وهو يومئ برأسه: "أنا على اللائحة المجانية".

مدّ يداً مصبوغة بالأزرق وذلك بسيماء تلك الرحابة "الشرقية" التي تميز الأمريكي المولد في أمريكا، وصافح يد الزائر بخبرة. "كل ما أستطيع قوله هو أنك عاملتني كأخ (أجل سآخذ كل واحدة تستطيع الاستغناء عنها)، وإذا حدث... "راح يمسك بصدر قميصه:" هاه! لقد نسيت أني لا أحمل بطاقة زيارة، ولكن اسمي هو زيغلر . لافتون أو. زيغلر. أمريكي؟ إن كانت أوهايو لا تزال ضمن الاتحاد، فأنا أمريكي ياسيدي. ولكني لست من المتطرفين المطالبين بحقوق الولايات. لقد استخدمت كل بلدي الأصلي وبضعة بلدان قليلة أخرى حين وجدت الفرص، والآن أنا أسير قوسكم ورمحكم. لا أعترض على ذلك. لست أجنبياً مكرهاً، ولا سائس بغال تكساسي، ولا مغامراً على خطة الأقساط. لا أطارد قنصلنا حين يأتي متوقعاً من النسر الأمريكي أن ينشلني بعيداً عن هذا من حزام بنطالي. لا ياسيدي! لو دخل بريطاني "المناطق الهندية" [في الولايات المتحدة الأمريكية] وأطلق النار على ما حوله بمسدس كولت آلي (ليس أن هذا أي نوع من السلاح، ولكن أورده كمثال توضيحي)، فسوف يشنق على نحو أسرع، من ذوبان رقاقة ثلج في الجحيم. لن يكون في وسع أي سفير من سفرائكم إنقاذه. أراهن بعنقي على هذه اللعبة على أي حال. هكذا أنظر إلى الاقتراح.

"هل حاربت البريطانيين بمدافعي؟ إلى حد ما. أفترض أنك لم تسمع قط بمدفع الميدان الآلي عيار بوصتين المسمى "لافتون زيغلر"، ذاك الذي له جهاز تلقيم ذاتي التغذية وارتداد فردي وأسطوانة زيتية ومسننات ذات محامل كروية بالكامل؟ أو هل سمعت بـ"لافتايت"، تلك المتفجرة الجديدة، المتسقة على نحو مطلق من حيث التأثير والتي لها حجم يعادل تُسع حجم أي شحنة عقيمة حالية. رقائقية، مدفعية، كوردايت 1-، ترويسدورف، سيلولوز، كاكاو، فتيل أو موشور . لا يهمني ماهو. "لافتايت" متفجرة هائلة، وكذلك مدفع زيغلر الآلي. إنه أنا. إنه خمسة عشر عاماً من حياتي. ألستَ خبيراً في المدافع؟ آسف كان بإمكاني مفاجأتك. لولا مدفعي لكانت حكايتي

غير ذات قيمة. أشكرك، ولكني لا أستخدم أي تبغ قد يكون في حوزتك..."بول دير هام"؟ بول ديرهام! أتراجع عن كل ما قلته: كل كلمة أخيرة. بول دير هام . هنا! لو حصل وزرت آكرون في أوهايو حين تنتهي حرب الحمقى هذه، فتذكر أن لافتون أو. زيغلر في جيب صدارك. بما فيه مدينة آكرون. لدينا ناد صغير هناك.. ياللجحيم! مامعنى التحدث عن آكرون دون بنطال؟

"مدفعي؟... لقاء سنتين اثنين كنت سأشحنه إلى الفيلبين خاصتنا. كدت أفعل ذلك تقريباً، ولكن ممّا قرأته في الصحف، لا تستطيع أن تثق بجمهرة "أغوينالدو"2– فيما يخص القضايا العلمية؟ لماذا لا أعرضه على جيشنا؟ حسناً، لديكم أرستقراطية عاجزة تدير جيشكم، ولدينا حشد من السياسيين. والنتائج متطابقة عملياً. لا أقبل بأي جيش أمريكي ضمن جيشي الخاص.

"ذهبت إلى أمستردام مع مدفعي . إلى تلك الطغمة العسكرية الهولندية التي يفترض أنها تدير الحرب. لم أنشأ على حب البريطانيين من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أعرف أنه لو أن مدفعي كان سيؤدي عمله الجميل، لكنت أكثر حظاً في استلام تقرير غير متحيّز من حشد من الضباط البريطانيين الحمقى الملاعين من أن أستلمه من حفنة من أبناء أخوة رجال السياسة الذين يؤدون مهمتهم كمفوضين وخبراء مدفعية. وكما قلت فقد وضعت الرجل الأسمر خارج المسألة. هكذا نظرت إلى الاقتراح.

"الهولنديون في هولندا لا يساوون صفاً من الدبابيس. ربما أخطأت في الحكم عليهم. ربما تعرضوا للغش مرات عديدة من قبل مغامرين أنانيين حتى أضحوا لا يعرفون الشخص المتحمس حين يرونه. وعلى أي حال فإنهم أبطأ من "غضب الرب"،. ولكن حول الأوهام المتعلقة بانتصارهم في يوم الخميس من الأسبوع القادم الساعة 9.00 صباحاً، فإنهم بريطانيون تماماً إن كان يحق لي قول ذلك.

"سأحكي لك شيئاً غريباً أيضاً. لقد حاربتهم عشرة أيام قبل أن أستطيع تدبير الجانب المالي من لعبتي حسب ما أريد. عرفت أنهم لم يثقوا بالزيغلر، ولكن لم يكن لديهم مبرر ليكونوا مجانين بخلاء. لقد تدبرت الأمر: مرور حر وشحن لي وللمدفع من خليج ديلاغوا وإلى ما وراءه بالباخرة والسكة الحديد. ثم صعدت إلى متن السفينة لأرى المدفع يوضع في صناديق، وهناك صافحت كل الزملاء من الركاب: كلهم طفيليون مثلي. حسناً ياسيدي، عدت أدراجي وأمطرت مكتب البطاقات بالأسئلة،

وقلت: "أنظر إلى هنا يا فان دنك. أدفع لقاء مروري ولقاء مكان للمدفع في عنبر السفينة، أجل لقاء كل قدم مربع ومكعب". أعتقد أنه خفض الأجرة بنفسه. ولكني دفعت. دفعت. لم أكن لأتطفل مع ذلك الحشد من نفايات عيد العنصرة. كان من شأن ذلك أن يجلب الحظ العاثر لمدفعي. هكذا نظرت إلى الاقتراح، لا يا سيدي، لم يكونوا رفقة طيبة.

"حين وصلنا بريتوريا عانيت الكثير محاولاً أن أجلب اهتمام الهولنديين إلى مدفعي وإمكانياته. كان كروغر 3- يتسول قليلاً ويسرق قليلاً، والهولنديون يغنون: "إن لم يكن لديك المال فلا حاجة بك إلى الحضور". لم يكن هناك من ينفق دراهمه على أي شيء باستثناء البطاقات إلى أوربا. كنا مهملين نحن الاثنين إلى حد كبير. حين أفكر الآن كيف اعتدت أن أقدم عروضاً في الشوارع العامة بطلقات زائفة، فأملأ جهاز التلقيم وأدير المقبض حتى أتصبب عرقاً، وأحمر خجلاً يا سيدي. لقد جعلت المدفع يعرض أفعاله المثيرة أمام الكفيريين 4-، . أولاد حام العراة . في "شارع المفوض"، محاولاً الحصول على موضع قدم في مكان ما.

"هل تكلمت؟ أحتقر المبالغة . ليست لا أمريكية ولا علمية . ولكن جولة تيدي روزفلت 5- كانت تنهيدة فتاة عذراء بالمقارنة مع عملي في الدعاية، وهذا الأمر صحيح صحة جلوسي هنا مثل سعدان البابون أزرق المؤخرة في واد صغير ضيق شديد الانحدار.

"بعد فترة طويلة من بداية الربيع أنقذني الكومندان المسمى "فان زيل": رجل ضخم بدين برجل عرجاء. لو استثنيت شعره ومسدسه لكان حرياً بأن يكون صاحب حانة من الصنف الأول في شنكتادي6-. لقد وجدني ومدفع الزيغلر على مرج ذي أشجار متناثرة (لم تكن بريتوريا مأمونة في ذلك الحين)، وقد ألحقني بأسلوب أشبه بمن يسير في نومه. كان ضد الحرب بقوة منذ البداية، ولكن كونه هولندياً جعله يحارب على نحو أفضل بكثير من بقية جماعة "الله والماوزر". أدريان فان زيل. كان هذا ينام نوماً ثقيلاً في النهار . ولم يكن يحب الزنوج. أنا أحببته. كنت الأجنبي الوحيد بين فدائييه. أما البقية فكانوا من جورجيا وبنسلفانيا من أصل هولندي، مع محام نشيط من فيلادلفيا. أستطيع أن أحكي لك عنهم أموراً ستدهشك، ولكني أعتقد أن أفكارهم عن الجغرافيا هي الأشد جنوناً. أعتقد أن هذا نوع من التعويض الآلي. لم

تكن هناك تلة نمل لعينة في منطقتهم لم يكونوا يعرفونها ويستخدمونها، ولكن العالم كان مسطحاً كما يقولون، وكانت إنكلترا على مسافة يوم من كيب تاون.

"كانوا يقاتلون بطريقتهم الخاصة ولا تنس ذلك. ولكني أعتقد أنك لن تنسى. لقد قاتلوا ليقتلوا، وممّا عرفته، فإن البريطانيين قاتلوا ليُقتلوا. لذلك أدى الطرفان الخدمة الواحد للآخر.

"أنا أسير قوسك ورمحك ياسيدي. للمنصب التزاماته:"على كلا الجانبين. لا يمكنك أن تكون عدوانياً تجاهي وموالياً لي في آن معاً. لا يمكنني للسبب نفسه أن أكون عدوانياً تجاهك. لذلك، لن أقول لك آرائي حول كيفية تصريفكم لأمور الحرب.

" بعد رحلة دامت ثلاثة أشهر، فإن العجوز فان زيل كان قد جهز فدائييه جيداً وتفوق على البريطانيين، وقد اعتقد أن عليه أن يزور جنرالاً بريطانياً من معارفه كان يقوم بتجارته ضمن دائرة بين ستومبسنيوك، جاكهالبوتس، فريليغان وأودندالشتروم، فيعمل سنة ويرتاح سنة، كان هو من الملامح الدائمة لذلك القطاع.

"يقول فان زيل": إنه رجل طيب جداً وصديق لي. لقد أرسل لي طبيباً جيداً حين جرحت وأراد طبيبنا الهولندي أن يبتر ساقي. أجل، أعتقد أننا سنبقى معه". وحتى ذلك التاريخ، عشنا أنا وزيغلري [مدفعي] في حال من البطالة الحميدة بسبب بقايا صغيرة في نقطة عطالة. كيف كنت سأعرف بحق الرعد أنه لم يكن في البلاد كلها ولا حتى شبح لطريق؟ ولكن الجلد المدبوغ رخيص ويدوم. أعتقد أني سأجعل مدفعي القادم أثقل بألف باوند على أي حال.

"حسناً ياسيدي، لقد ضربنا الجنرال وهو يسلك طريقه المعتاد . كان ذلك في فرليغن . وافتتح حشدنا التحيات المعتادة من مسافة ألفي يارد. هزَّ فان زيل نفسه في سرجه المشحّم وقال:"والآن سأكون سعيداً تماماً ياسيد زيغلر. لا مزيد من الجر بالثيران. اثنا عشر ميلاً فحسب في اليوم الواحد حتى ينضج المشمش".

"ثم تقدمنا نحو قواعده الأمامية ورقبائه من الحرس والفرسان القوزاق أو مهما تكن تسميتهم، وقد تجولنا من حول المرج ذي الأشجار المتناثرة وذراعي في ذراعه كأننا أخوان.

"والطريقة التي عملنا بها كانت كما يلي: "كان الجنرال يتناول إفطاره في الساعة 8.45 صباحاً بالضبط. كان من شأنه أن يكون قطار لونغ آيلند [لشدة دقته].

في الساعة 8.42 صباحاً كنت أهبط إلى عبارة الشارع الثالث والأربعين لمقابلته . أعني كنت أجعل الزيغلر يتمركز عند النقطة 2000 (كنت بدأت بـ 3000 ولكنها كانت باردة وبعيدة) . ورميت به حمولة جهازي تلقيم كاملين . ثماني عشرة طلقة . وذلك بالضبط حين كانوا يجلبون له القهوة. لو كان حشده مشغولاً بالاحتفال بالذكرى السنوية لواترلو 8- أو بعيد ميلاد آخر طفل للعائلة المالكة، لكانوا سيردون عليّ بمدفعين (سأحكي لك عن ذلك لاحقاً)، ولكن لو كانوا منسحبين من المعركة، لكانوا ثبتوا جميعاً على صهوات جيادهم وراكموا الخردوات والفلكات والآلات الكاتبة وطعاماً يكفي لخمسة أيام، وخلال نصف ساعة كان من شأنهم أن يطاردوني وبقية فتيان فان زيل. كنا نمكث في أماكننا ونتابع إطلاق النار حتى 11.45 الساعة صباحاً أو منتصف النهار. ثم كنا ننتقل من الكدح إلى تناول وجبة خفيفة، ونعود لنستأنف في الساعة 2.00 بعد الظهر، ونتقاتل حتى موعد شرب الشاي.

كان يوم الثلاثاء والجمعة هما يوما التحرك لدى الجنرال.كان يتحرك ببطء مسافة عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً. وكنا نتسكع من حول جناحيه ونجعل أفراسنا تتريض قليلاً، أحياناً كان يعلق في مسيل ما . يتوقف وهو يعبر مكاناً ضيقاً . وكنا نشن عمليات اختطاف عابثة لعرباته. وحين حدث ذلك لأول مرة وجهت الزيغلر بحرية وبآمال كبيرة ياسيدي، ولكن الرجل العجوز كان في وضع جيد في المؤخرة مع مدفع، وكان عليّ أن أدفعه بثلاثة بغال بدلاً من ستة. كنت مجنوناً تماماً. لم أكن أتطلع إلى أي خبراء خلف المدفعية الملكية البريطانية، وإلاّ فإن اللعبة كانت في معظمها عادلة. كان يصرع ثلاثة أو أربعة من فدائيينا بضربة صاعقة وكنا نقتل أربعة أو خمسة من جنوده مرة في الأسبوع أو نحو ذلك. في إحدى المرات، كما أذكر، قبل الغسق بفترة طويلة، رأيناهم يدفنون خمسة من فتيانهم.وقفوا محتشدين من حول القبور. لم نكن نبعد عنهم مسافة تزيد عن ألف وخمسمائة ياردة، ولكن فان زيل العجوز رفض إطلاق النار.رفع قبعته في الوقت الملائم. قال لو قتلت إنساناً وهو يصلّي فسيكون عليك أن تحمل حظه السيء لتواجه به "العرش" وحظك السيء أيضاً. وهكذا مرت الأسابيع بالتسكع. إن خبيراً حربياً كان من شأنه أن يحكم عليها بأنها حرب لطيفة، ولكنها كانت ملائمة لمخترع شأن لافتون أو. زيغلر يحتاج إلى تدريب في يوم وسلام في اليوم التالي ليدقق في نظرياته.

"وإنها حرب ودية؟ ليست الودية بالكلمة الملائمة. كنا رفاق سلاح.

"عجباً، كنت أعرف مدفعي "المدفعية البريطانية الملكية"، كما أعرف الشارع الخامس. كان يمكنهما أن يكونا أخوين أيضاً.

"كانا يرتجّان خلال الإطلاق، ويتهزهزان وينزلقان ويسعلان ويتحركان إلى الخلف مجدداً خلال ساعات المعركة الدموية حتى كنت أستطيع البكاء ياسيدي، من مشهد الرجال البيض المعاصرين المقيدين إلى تلك الآلات القديمة الحاصدة التي تدار باليد، عتيقة الطراز، المصنوعة من الصوان والفولاذ. أحدهما . وقد أسميته "الأصلع"، . كانت له ندبة بيضاء طويلة على امتداد سبطانته . كنت قد تأكدت منه عشرين مرة. كنت أعرف طاقمه بالنظر، ولكنه كان يخرج متمايلاً مترنحاً من غبار قذائفي مثل . مثل دجاجة من تحت عربة . ثم كان يسقط في أخدود، ولا تراه إلاّ وهو قد عاد ليحشر أنفه العتيق من فوق الحافة يتشمم بحثاً عنا. كان للمدفع الآخر رفيق الأول بغلان رماديان في المقدمة، ودولاب من خشب طبيعي أعيد طلاؤه، ومجموعة كاملة من الحبال تتعقبه. هل سبق لك ورأيت "توم ريد"9– وقد خلع صدارته وهو يقود الكونغرس خلال موجة من الحر؟ لقد سبق لي وزرت واشنطن مرات عديدة . عديدة جداً . لأسجل براءات اختراعي. لقد أسميت ذلك المدفع، "توم ريد" كنا نحن الثلاثة نلعب لعبة "القطة التي تبحث عن زاوية"، حول كل المراكز المتقدمة في أيام الراحة . جولات مرور عبر نباتات المريمية وعلى امتداد "الميزاس" حتى تعيقنا الوديان. أوه، كان الأمر رائعاً بالنسبة إليَّ وإلى "الأصلع"، و"توم ريد"!، لا أعرف لأننا أهملنا المصالح الشرعية لفدائيينا ذوي الصلة لقاء هذه اللعبة بالكرة. أنا أعرف أني فعلت ذلك.

"قبل الخريف بوقت طويل أصبحت"، المدفعية الملكية البريطانية" خجولة . علقت في مؤخرة السبطانة . وأصبحت نيرانها بعيدة جداً عن الهدف. لاحظت أنهم لم يكونوا يغامرون، رغم أني كنت أعمل تحت موقعهم مباشرة.

"ذكرت ذلك لفان زيل، لأني ظننت أني قد ضربت روحهم المعنوية الملكية البريطانية بالطول والعرض.

"لا"، يقول وهو يهز نفسه كالعادة فوق صهوة فرسه."والكابتن مانكلتاو خاصتي مريض. هذا كل مافي الأمر.".

"قلت له: "إذن هي مدافع الكابتن مانكلتاو خاصتك، ولكني سأجعله أكثر مرضاً قبل أن يتعافى.".

"يقول فان زيل: "لا، لقد أصيب بالحمى التيفية قليلاً. والآن هو في حال أفضل، وقد أخرج من المستشفى في جاكهالبوتس. آه، مانكلتاو ذاك! إنه يجعلني أضحك كثيراً وعلى الدوام. كنت قد قلت له . قبل زمن طويل . في كولسبرغ، إنه كان لديّ منزل صغير له في نوينغيداخت. ولكنه رفض أن يأتي: لا! لقد كان مريضاً، وأنا آسف!".

"قلت: كيف تعرف ذلك؟".

"عجباً، اليوم فحسب أرسل تحياته جواباً على تحياتي بواسطة يوهانا فان دير ميرفه التي تذهب إلى طبيبهم بسبب عيني طفلها المريضتين. وهو يرسل تحياته، مانكلتاو ذاك، ويقول لها أن تخبرني بأن لديه حديقة صغيرة من الزهور جاهزة من أجلي في الهند الهولندية: في أومبالات. إنه مضحك جداً، كابتن مانكلتاو خاصتي".

"على الهولنديين والإنكليز أن يتآخوا ياسيدي. لديهم روح الفكاهة نفسها على ما أظن.

"قال فان زيل: حين يتعافى عليك بالحذر أيها السيد الأمريكي، فسيعود هو إلى مدافعه يوم الثلاثاء القادم. ومن ثم سيطلق النار على نحو أفضل".

"لم أكن مطلعاً على المدفعية الملكية البريطانية بمثل ماكان العجوز فان زيل.عرفت هذا الكابتن مانكلتاو بالنظر، طبعاً، وبما أنه كان ذلك النوع من الرجال فقد ظننت أنه قد فعل ماهو صحيح ضد مدفعي الزيغلر. ولكن لم يجر شيء يشكل عهداً جديداً من التاريخ.

"في صباح اليوم التالي وفي الساعة المعتادة انتظرت الجنرال وجاء فانزيل العجوز مع بعض الشبان. لم يكن فان زيل يتسكع من حول مدفع الزيغلر كثيراً في العادة، ولكن هكذا كان حظه في ذلك اليوم.

"كان يحدق عبر منظاره إلى المعسكر، وكنت أساعد في رش البهار على لحم الخنزير المملح لأجل الجنرال . كالعادة . حين التفت إليَّ بسرعة وقال: "ياللرب! كم أن هؤلاء الإنكليز كذابون كلهم! لا يمكنك الثقة في أي واحد منهم"، هذا ما قاله. "يقول

الكابتن مانكلتاو ليوهانا إنه لن يعود حتى الثلاثاء، واليوم هو الجمعة وهاهو قد عاد! يااللرب! الإنكليز كلهم مثل تشامبرلين!10-.

"لو لم يتوقف الرجل العجوز ليلقي خطاباته، لكان سيتناول عشاءه في معسكر دفاعي يحميه سياج من عربات على ما أعتقد. كنت مشغولاً بالاهتمام بـ"توم ريد" عند النقطة 2000 حين بدأ "الأصلع" عمله الجيد ضدّي. شاهدت صفيحة من اللهب الأبيض ملتفة من حول جهاز التلقيم، وفي وسط ذلك كله كان أحد بغالي قد وقف منتصباً. لا شيء يدعو للاستغراب في بغل يقف منتصباً، ولكن هذا البغل كان دون رأس. أتذكر الآن أن الأمر بدا لي متناقضاً في ذلك الحين، وحين حسبت الأمر كله وجدتني أقوم بما قام به سانتوس دومونت 11- بدون أي بالون ومحركي دون ناقل حركة. ثم بدأت أفكر في سانتوس دومونت وكيف أن طريقتي الجديدة أفضل بكثير. ثم فكرت بالبروفسور لانغلي12- والسيموثيان13-، وتمنيت لو أني لم أكذب إلى ذلك الحد المبالغ فيه حول مواصفاتي في واشنطن. ثم تخليت عن التفكير فترة من الزمن، وحين استأنفت سلسلة أفكاري كنت عارياً، ياسيدي، في نقالة مهترئة وفمي مليء بالتراب الدقيق المنكّه باللافتايت.

"وقد سعلت ذلك التراب".

"يقول رجل يمشي إلى جانبي:"مرحباً، لقد تكلمت في الوقت الملائم تقريباً، هل تريد شراباً؟"..

"أنا لا أحب الروم عادة ولكني رضيت به آنذاك، لأني كنت في حاجة إليه".

"سألت: ما الذي أصابنا؟!"..

"قال: أنا. لقد أصبتك في جهاز التلقيم بالضبط وأنت تخرج من تلك الدونغا، ولكني آسف إذ أقول إن كل طلقة في جهاز التلقيم قد انفجرت ومدفعك في حالة تدعو إلى الصدمة. أنا معجب بمدفعك يا سيدي"..

"قلت: أأنت الكابتن مانكلتاو؟"

"قال: نعم. أعتقد أنك السيد زيغلر. لقد حكى لي عنك قائدك".

"قلت: هل أسرتم فان زيل العجوز؟"

"قال بثبات: الكومندان فان زيل قد جرح لسوء الحظ الشديد، ولكن يسعدني القول إن جراحه ليست خطرة، آمل أن يتمكن من تناول العشاء معنا الليلة. وأنا واثق

من أن الجنرال سيسعد بمشاهدتك أيضاً رغم أنه لم يكن يتوقع ذلك. ولا أحد آخر وحق جوبيتر..!، ثم احمر وجهه كما هو شأن البريطانيين حين يحرجون"..

"رأيته، يحشر كتاب صلاة أسقفية بروتستانتية في كمه، وحين نظرت من فوق حافة النقالة كان هناك نصف دزينة من المجندين قد انتهوا للتو من الحفر وقد وقفا في وضع الاستعداد قرب مجارفهم. وأعتقد أنه كان على حق في أن الجنرال لم يكن يتوقعني على العشاء، ولكن كان الأمر كله متفقاً مع الطريقة البريطانية غير المتقنة في أداء الأعمال. كانوا يحدثون كل تلك الجلبة والهراء ليدفنوا رجلاً واحداً، ودون بذل أونصة واحدة من الاهتمام في ذلك الأمر للتأكد من أن الشخص قد مات حقاً. وأنا . على أي حال ." أبرشاني مستقل"!..

"حسناً، ياسيدي، كانت تلك طريقة تقديمي إلى الجيش البريطاني. سأكتب كتاباً حول ذلك إن كان هناك من سيصدقه. هذا الكابتن مانكلتاو، من المدفعية الملكية البريطانية، جعل الطبيب يعتني بي (أستطيع تأليف كتاب آخر عنه) وأعطاني بذلة من بذلاته، وأطعمني لحم العجل المعلب مع البسكويت، وأعطاني سيجاراً من نوع "هنري كلاي"، مع ويسكي وسباركلت. كان رجلاً أبيض.

"أجل، وحق جوبيتر!"، قال وهو يجر كلماته كأنه يلعق الدبس، "نحن معجبون جميعاً بمدفعك وأسلوبك في تشغيله، لقد راهن البعض منا على أنك بريطاني فار. وقد ربحت جنيهاً ذهبياً من مراهنتي عليك مع أحد المساعدين. وبالمناسبة لقد خيبت أمل سائس خيلي إلى حد كبير".

"قلت: ولماذا سائس خيلك؟"..

"قال: هو المساعد الذي ذكرت، إنه سائس فقير جداً، هذا ماقاله الكابتن". ولكنه في الوطن محام متدرب. كان يعدو في أنحاء المعسكر ولسانه ممدود إلى الخارج، منتظراً فرصة الدفاع عنك في المحكمة الميدانية".

"قلت: أي محكمة ميدانية؟".

".. أوه، محاكمتك كفارّ من سلاح المدفعية. كنت ستتلقى عائداً جيداً لقاء أموالك. وعلى أي حال ما كنت لتشنق بعد أن لوحظت طريقتك في إدارة مدفعك، ولو كنت فاراً من الخدمة عشر مرات. كنت سأتدبر أمر إعدامك بالرصاص كجنتلمان".

"حسناً ياسيدي، لقد أصبت في فم معدتي، لديّ إحساس بالغثيان، إحساس جارح بأن وضعي يحتاج إلى تنظيم إلى حد كبير. كان عليّ أن أكون مواطناً ذا مرتبة سنوية. ولكن أوهايو هي ولايتي ولن أتخلى عنها في سبيل مجموعة من الهولنديين الفارين. هذا بالإضافة إلى أن حماستي كمخترع قد قادتني إلى الأزمة الحالية. ولكني ماكنت أتوقع من هذا الكابتن مانكلتاو أن يفهم اقتراحي على هذا النحو. وقد جلست هنا: أسوأ نوع من المواطنين الأمريكان المتمسكين بعناد بالمبادئ البالية، وقد أسر متلبساً بالجريمة وهو يرمي بالجحيم على الجيش البريطاني لشهور بحالها. أقول لك ياسيدي إني تمنيت لو كنت من مواطني ولاية سينسيناتي في ذلك المساء الصيفي، عندها كنت سأصل إلى تسوية حول بروكلين.

"ما الذي تفعلونه بالأجانب؟!".. قلت هذا والتراب الذي سعلته يبدو وكأنه قد عاد إلى لساني مجدداً؟.

"قال: أوه، لا نفعل شيئاً يذكر. إنهم الرفقة الوحيدة التي لدينا. وأنا من مؤيدي البوير قليلاً. ولكن بيني وبينك. البويري العادي ليس ذكياً جداً، أنت أول أمريكي نقابله. ولكنك من سكان المدن بالطبع".

"كان علي أن أكون كذلك لو كان لديّ إحساس بالمؤشر الشائع، ولكن الطريقة التي كان يتشدق بها أصابتني بالجنون".

"قلت: لست كذلك بالطبع، هل ترضى أن تكون بويرياً متجنساً؟".

"قال: أنا أحاربهم"، ثم أشعل سيجارة. "ولكنها كلها مسألة رأي".

"قلت: حسناً، تستطيع أن تحمل أي رأي مسؤول تختاره، ولكني رجل أبيض ونيتي الحالية هي الموت بذلك اللون".

"ضحك واحدة من تلك الضحكات الكبيرة ذات النهايات السميكة التي يضحكها البريطانيون ولا تؤدي إلى أي مكان، وأطلق نوعاً من الإطراء لأمريكا جعلني أكثر جنوناً.

"أنا أسير رمحك وقوسك ياسيدي، ولكني لا أفهم النكتة البريطانية المزعومة. إنها تؤدي بي إلى الكآبة

لقد جرى تقديمي إلى خمسة أو ستة ضباط في ذلك المساء وكل واحد لعين منهم ضحك وسألني عن سبب عدم وجودي في الفيليبين لقمع حربنا هناك! وكانت

تلك هي روح الدعابة البريطانية! كان على الجميع أن يتخلصوا من ذلك العبء الذي في صدورهم قبل أن ينطق بكلام ذي مغزى. ولكنهم كانوا عقلانيين فيما يتعلق بمدفع زيغلر. لقد أعجبوا جميعاً به. ولقد اخترعت حكاية خرافية عن نفسي على أني مرهق من الحرب وأني كنت أدفع بالمدفع تجاههم في الأشهر الثلاثة الأخيرة على أمل أن يأسروه ويدعوني أعود إلى الوطن. وقد دغدغهم ذلك حتى الموت. لقد جعلوني أكررها ثلاث مرات وضحكوا كالأطفال في كل مرة. ولكن نصف البريطانيين أطفال وخاصة الأكبر سناً بينهم. كان الكاتبن مانكلتاو أقل طفولية من الآخرين إذ كان يتحدث عن مدفع الزيغلر كعاشق، ياسيدي، وقد رسمت له رسوماً تخطيطية لجهاز التلقيم وأسطوانة الارتداد في دفتر ملاحظاته. وقد سأل السؤال البريطاني الوحيد الذي كنت أنتظره: "ألم أكن قد جعلت القطع العملياتية خفيفة جداً؟"، يظن البريطانيون أن الثقل قوة.

"وأخيراً... كنت أخجل من فتح الموضوع سابقاً.. أخيراً قلت: "أيها السادة، أنتم هيئة المحكمة الحيادية التي كنت أنشدها. أعتقد أنكم غير مهتمين بأي معمل آخر للمدافع كما أن السياسة لا تهمكم. كيف كان الأمر من وجهة نظركم؟ ما الذي فعله مدفعي على أي حال؟"..

"قال الكابتن مانكلتاو: "أكره أن أخيب أملك لأني أعرف كيف تشعر كمخترع". لم أكن أشعر كمخترع في ذلك الحين، كنت أشعر شعوراً ودياً، ولكن البريطانيين ليس لديهم أكثر مما تستطيع التقاطه بسكين من صحن من الحساء".

"قال: الحقيقة الصادقة هي أنك جرحت حوالي عشرة منا بطريقة ما أو بأخرى وقتلت حصاني بطارية مدفعية وأربعة بغال، وأوه، أجل، لقد اصطدت خمسة "كفيريين". ولكننا كدنا نصاب جميعاً. أنظر إلى سروالي".

"كان سرواله قد رتق عند المقعد بكيس دقيق من صنع مينيابوليس. استطعت رؤية الكتابة.

"قال: "لست مخادعاً.أجلب مرتجعات المستشفى يا دكتور".

"يجلبها الطبيب ويقرأها حسب التواريخ الصحيحة. كان ذلك الطبيب يستحق سعر رسم الدخول."

"سررت تماماً لأني لم أقتل أياً من أولئك الأطفال المرحين. ولكني لم أستطع مغالبة التفكير في أنه لو قتل عدد قليل إضافي من "الكفيريين"، لكان من شأن ذلك أن يخدم أغراضي الدعائية شأن القتلى من الرجال البيض. لا ياسيدي. مهما تكن الطريقة التي تنظر فيها إلى الاقتراح فإن واحداً وعشرين إصابة بعد شهور من الصداقة الوثيقة شأن صداقتنا... أمر رديء.

"قالوا: إن مدفعي جيد كالتوفي [حلوى قاسية دبقة إنكليزية]، فالبريطانيون يستخدمون التوفي حيث نستخدم السكر. إنه أرخص وله المفعول نفسه. جلسوا من حولي وبرهنوا لي أن مدفعي كان جيداً جداً إذ يطلق النار بدقة شأن بندقية مانليشر.

"قال أحد الشبان وكان يمضغ بعض الأعشاب:"لقد أحصيت ثماني قذائف من قذائفك ياسيدي انفجرت ضمن نصف قطر قدره عشرة أقدام. كان من شأنها كلها أن تخترق غطاء عربة واحدة. وكان ذلك جميلاً. كان جيداً جداً."

"لن أستغرب لو كان الشاب على حق. كانت قذيفة اللفتايت خاصتي شديدة الاتساق رياضياً من حيث قوة الدفع. أجل. كانت جيدة جداً لهذا الأحمق العنيد. كان جهاز نقل الحركة الخاص بالتوجيه قد انكسر وكان علينا أن نديره على المحور بواسطة أخمص الحاضن [الطرف الأدنى من عربة المدفع]. ولكني سأصنع مدفعي التالي من طراز زيغلر أثقل بألف وخمسمائة باوند. وقد يدور بمحرك بنزين تحت المحاور. عليّ التفكير في ذلك.

"قلت: حسناً أيها السادة. سأكره أن أكون السبب في موت أي منكم. وإذا ما استطاع أسير أن يتنازل عن ممتلكاته، أودّ أن أقدم إلى الكابتن هنا ما يرى أنه ملائم أن يتركه من مدفعي الزيغلر".

"قال الكابتن: شكراً جزيلاً. أرغب في ذلك جداً. سيبدو المدفع رائعاً في مطعم الضباط في وولويتش، هذا إن لم يكن لديك اعتراض ياسيد زيغلر".

"قلت: هيا، لقد خرجت سليماً من كل الفوضى التي تعرضت لها، ولكن المدفع سينشر النور بين أفراد سلاح الملكية البريطانية".

"أقول لك ياسيدي، إنه لا يوجد خطأ في سلاح المدفعية الملكية البريطانية، إنهم رجال أذكياء يعانون من نظام عاجز هو. عندما تمسك به. إنكلترا برمتها. في بعض الأحيان أشعر أني أخاطب مواطنين أحياء حقيقيين، وأحياناً أشعر أني

أخاطب آكلي لحم العجل في "البرج".

"كيف؟ حسناً على هذا النحو. كنت أحكي للكابتن مانكلتاو عما قاله فان زيل حول أن البريطانيين جميعهم عبارة عن تشامبرلين [رئيس وزراء بريطانيا] وذلك حين رآه ذلك العجوز وهو عائد من المستشفى قبل أربعة أيام من الموعد المقرر.

"أوه، اللعنة على ذلك كله!"... يقول وهو رزين كقاضٍ في المحكمة العليا. يقول: "أوه، الأمر سيء جداً. لابد أن يوهانا قد أساءت فهمي، أو أني استخدمت العبارة الهولندية غير الصحيحة عن تلك الأيام اللعينة من أيام الأسبوع. لقد قلت ليوهانا إني سأخرج يوم الجمعة. تلك المرأة حمقاء. أوه، اللعنة على ذلك كله! ماكنت لأبيع فان زيل العجوز جرواً بهذا الأسلوب. سألحق به لأعتذر منه.

"لا بد أنه تدبر الأمر جيداً، لأنه حين أبحرنا لنتناول العشاء مع الجنرال فإن الكابتن مانكلتاو قدم إلى فان زيل الكثير من شراب الشيري والبيتر [شراب مسكر]، حتى أصبح سعيداً كالبطلينوس. ناداه الشبان كلهم بـ"أدريان" وعاملوه كأنه أب سخيّ. كان قد أصيب في عظم الترقوة، وكانت ذراعه مربوطة.

"ولكن الجنرال كان الشخص المحبوب. أعتقد أنك تعرف ذلك النوع المعتاد من الجنرالات البريطانيين، ولكن كان هذا أول جنرال أتعرف عليه. جلست إلى يساره وتحدث مثل "صحيفة بيت السيدات"، ألم يسبق لك أن قرأت تلك الصحيفة؟ إنها منمقة ياسيدي وغير ضارة ومليئة بعواطف مصفحة بالنيكل مكفولة من حيث تحسين الذهن. كان هو كذلك بدأ بحديث من القلب إلى القلب من طراز "ليديا بينكهام"، حول صحتي، وآمل في أن يكون الشباب قد عاملوني جيداً وأني كنت أستمتع بوجودي بينهم. ثم شكرني على الدروس الممتعة والقيمة التي أعطيتها لجماعته . وخاصة حول تركيز المدفعية والهجمات من المؤخرة. كان يمسح على شاربه الطويل النحيل بين كؤوس الشراب . مستخدماً عصير الليمون المر والماء . ويثغو قائلاً: "آه، ثم يغرف المزيد من التوفي لي وللعجوز فان زيل على يمينه حكيت له كيف خطر لي أول وحي من مبادئ مدفع الزيغلر حين كنت أعمل كمدير للبريد من الدرجة الرابعة على طريق النجوم في أركنسو. حكيت له كيف خططت للأمر كله بالتقسيط حين كنت أعمل ميكانيكياً في روتربي من حيث تأتي ساعات اليد التي ثمن الواحدة منها دولار واحد. كان يلبس واحدة منها في معصمه. حكيت له كيف قابلت زالينسكي (لم

يكن قد سمع بزالينسكي!)، حين كنت أعمل كاتباً إضافياً في مكتب الإنشاء البحري في واشنطن. حكيت له كيف أن عمي الذي كان مزارع خضار في نيوجيرزي (كان يقرض المال على أساس الرهن أيضاً، فعشرة آكرات لا تكفي الآن في نيو جيرزي)، وكيف كان سيقدم لي ربع مليون دولار لأنـي كنت الوحيد بين أقربائنا الذين كان يوبخه حين يأتي إلى البيت وقد انتشى من شرب عصير التفاح المخمر ويتقيأ على بنات أخيه. حكيت له كيف أنفقت كل سنت أحمر على مدفع الزيغلر، وعن السيرك الذي تشكل لدى خروجي مع المدفع، وهكذا دواليك. وكان يمسح على شاربه كل أربعين ثانية ويثغو قائلاً:"كم هذا ممتع. أحدث هذا حقاً؟ كم هذا ممتع".

"كان الأمر أشبه بما يحدث في كتاب إنكليزي قديم، مثل كتاب "بريسبريدج هول". ولكن مؤلف هذا الكتاب كان أمريكياً! بقيت محدقاً باحثاً عن "رأس الخنزير"، و"روزماري"، و"ماغدا تشارتا"، و"الكركيت على الموقد"، وبقية الطاقم. ثم اندفع فان زيل. لم يكن منتشياً من الخمرة إنما تخلى عن تحفظه: تخلى عن تحفظه ياسيدي بين أصدقاء. بدأوا يناقشون الاشتباكات السابقة حسب طريقة الرجل العجوز. وكان هناك ستون منهم. وكذلك عروضاً جانبية مع جنرالات آخرين وطوابير أخرى. حكى له فان زيل عن ضربة كبيرة خطط لها على أساس طابور في الأسبوع قبل أن أنضم إليه. وقد أوضح استراتيجيته بواسطة شوكات الطعام على المائدة.

"قال الجنرال حين انتهى: "حسناً! هذا يثبت وجهة نظري تماماً. ربما كنت مؤيداً إلى حد قليل للبوير، ولكني ألتزم برأيي: أي أنه بوجود ضباط ملائمين مع الاعتبار الصحيح للآراء المسبقة في عنصرهم، فإن البوير هم أفضل مشاة راكبة في الامبراطورية يا أدريان. لقد بخسوك حقك. كان يجب أن تكون في كلية الأركان مع (دي فيت).

"عليك أن تمسك دي فيت وسأحضر أنا إلى كلية الأركان خاصتك، مارأيك؟"، هذا مايقوله أدريان وهو يضحك". ولكنك بطيء جداً أيها الجنرال. لم أنت بطيء جداً؟ لفترة شهر كنت تؤدي جيداً وكنت قوياً،حتى أننا قلنا إننا سنستسلم ونعود إلى مزارعنا. ثم ترسل إلى إنكلترا طلباً لتحضر لنا هدية من مائتين، ثلاثمائة، ستمائة شاب مع البنادق والعربات وشراب الروم والتبغ والكثير من الطلقات، حتى أن شبابنا يتشجعون ويبدأون من جديد، لو أمسكت بثور من قرونه وضربته على مؤخرته فسوف يدور في مكانه. إنه لا يذهب إلى أي مكان. وهكذا تدور هذه الحرب. وأنت

تعرف ذلك يا جنرال".

"يقـول الجنـرال: "صـحيح تمامـاً يـا أدريـان، ولكـن عليـك أن تصـدق كتابـك المقدس".

"يقول أدريان وهو يمد يده إلى الويسكي:"هوه"، لم يسبق لي أن عرفت هولندياً يعترف بأنه ملحد، ولكن القلة منهم أصبحوا "لا أدريين"14-، منذ أن قبع البريطـانيون فـي بريتوريـا. لقد حكـى لـي العجـوز فـان زيـل أنـه غضـب مـن الـدين بعـد استسـلام بلويمفونتين. لقد كان من المطالبين بدولة حرة على أي حال.

"يقول الجنرال: من يؤمن لن يسرع. هذا مذكور فـي سفر إشـعيا. ونعتقد أننـا سنربح، ولذلك لانسرع. فيما يتعلق بي أود لو تدوم هذه الحرب خمس سنوات. سيكون لدينا جيش آنئذ. بهذه الطريقة فحسب يا سيد زيغلر فإن شعبنا مترع بالوطنية، ولكنهم ولدوا وترعرعوا بين المنازل، وليست إنكلترا كبيرة لتدربهم جميعاً، ليس إن كنت تتوقع أن تحافظ عليها".

"أقول: لا، على المباراة. وهذا يذكرني أيها السادة بأننا لم نشرب نخب الملك وصيد الثعالب".

"وهكذا شربوا نخـب الملـك وصـيد الثعالـب. وقد شـربت نخـب الملـك لأنـه كـان هناك شيء ما يخص [الملك] يدغدغني (إنـه بريطـاني إلـى حد لعين). ولكنـي أفضـل عدم شرب نخب صيد الثعالب. لقد قتلت الكثير من الذئاب في بلاد البقر، وكنت أشعر بالحاجة إلى الشراب بشدة بعد ذلك، ولكن لم يخطر لي أبداً أن أشرب نخب ذلك، أعني وراثياً".

"لا.. كما كنت أقول ياسيد زيغلر"، ويتابع قائلاً: "علينا أن ندرب رجالنا على إطلاق النار والركوب. أسمح بستة أشهر لمثل هذا التدريب. ولكن الكثير من قادة الطوابير . لا يعني ذلك أني سأقول كلمة ضدهم فهم أفضل الناس وكثير منهم أصدقاء أعزاء عليّ. يبدون وكأنهم يفكرون أنه لو كان لديهم الرجال والجياد والمدافع لاستطاعوا تناول الشاي مع البوير. والمسألة عادة تجري بالعكس، أليس كذلك ياسيد زيغلر؟"..

"قلت: إلى حد ما ياسيدي".

"قال: أنا سعيد جداً أنك توافقني الرأي. أعتبر قيادتي هنا كمحطة تدريب، وأنت، لو سمحت لي بقول ذلك، كنت واحداً من أفضل المدربين عندي، أنا أنضج رجالي ببطء، ولكن على نحو شامل. أولاً أضعهم في المدينة التي من المحتمل أن تتعرض للهجوم ليلاً، حيث يستطيعون الدوام على معهد الفروسية في النهار. ثم استخدمهم مع قافلة، وأخيراً أضعهم في طابور. وهذا يستغرق وقتاً، ولكني أطري على نفسي بأن رأي رجال عملوا تحت إمرتي هم على الأقل مؤسسين جيداً فيما يتعلق بمبادئ مهنتهم. يا أدريان، هل كان هناك خطأ ما في الرجال الذين قلبوا عربة تفاح، "فان بسترز"، في الشهر الماضي حين كان يحاول عبور الخط للانضمام إلى (بايير) مع تلك الجياد التي سرقها من (الغابيتاس).؟"

"قال فان زيل: لا أيها الجنرال. لقد استعاد رجالك الجياد وأحد عشر قتيلاً. أما فان بسترز فقد هرب إلى ديلاري بقميصه. لقد كانوا جيدين جداً أولئك الرجال. وهم يطلقون النار بقوة".

"مسرور جداً بسماع ذلك منك. لقد زرعتهم في بداية القرن، إنهم نتاج عام (1900). أتتذكرهم يا مانكلتاو؟ مروضو الخيل من سنترال ميدلسكس برونشتو: كتبة وناظرو البيع في متاجر على الأغلب". ثم مسح على شاربيه. "كان الأمر هو نفسه مع القافزين من فوق ظهر الثيران من ليفربول، ولكن كان هؤلاء أخصائيين في تحميل السفن وتفريغها. فلننظر إلى الأمر: كانوا من قرعة القرن الماضي، أليس كذلك؟ لقد أبلوا بلاء حسناً بعد تسعة أشهر. أتعرفهم يا فان زيل؟ ألم تستطع أن تغيرهم كثيراً في بوتفونتاين؟"..

"يقول فان زيل: "أبداً في بوتفونتاين فقدت ابني أندريز".

قال الجنرال: "أرجو عفوك أيها الكومندان". ثم راح الباقون يتحدثون بتودد نوعاً ما إلى أدريان.

يقول أدريان: عذراً. كان الأمر على مايرام. كان أولئك رجالاً جيدين، ولكن الأمر كما قلت. البعض جيدون جداً حتى أننا نريد أن نستسلم لهم، والبعض سيئون إلى درجة أننا نقول: (لنأخذ الفيركلور إلى كيب تاون). ليس الأمر عادلاً من جانبكم أيها الجنرال. ليس عادلاً على الإطلاق. لا أعتقد أنكم تريدون لهذه الحرب أن تنتهي أبداً".

"يقـول الجنـرال: إنهـا اسـتعراض ملابـس مـن الصـنف الأول لأجـل هـر مجدون15-. ومـع تـوفر الحظ، علينا أن نجعل نصف مليون جندي يمرون عبر المطحنـة. عجباً، وقد نتمكن من منح الفرصة إلى جيشنا المحلي ليلقي نظرة. أوه، ليس هنا طبعاً، يا أدريان، ولكن هناك في (المستعمرة). فلننقل معسكر تدريب في ورسستر. ليس عليك أن تكون متحاملاً يا أدريان. لقد كنت قائد منطقة في الهند، وأعطيك عهداً مني بأن القوات المحلية مؤلفة من رجال رائعين".

يقول أدريان: أوه، ليس عليَّ أن أقلق منهم إن كانوا في وورسستر. سأبيعك مؤونة من أجلهم في ورسستر. أجل، وفي بارل وستلنبوش. ولكن ياللرب! هل عليَّ أن أبقى مع (كروني) حتى تكون قد دربت نصف مليون من هؤلاء الشبان الأغبياء على ركوب الخيل؟سأكون قد أصبحت رجلاً عجوزاً في ذلك الحين".

"حسناً ياسيدي، هكذا بدأا بالتجادل حول ما إذا كانت سانت هيلينا تلائم أدريان وبعض الأماكن الأخرى التي كانا يعرفانها، وراحا يحضران رسائل التعارف إلى الدوقات واللوردات الذين يعرفانهم، وحتى يتم الاعتناء بفان زيل جيداً، لدينا عقارات واسعة . في أمريكا . ولكن ما يجعلني أشعر بالغثيان هو سماعي هذا الحشد يمارس التملق حول الأطلس (أوه، أجل، كان معهما أطلس)، وراحا يختاران قارات تائهة لأدريان حتى يشرب قهوته فيها. وقد اعترف الرجل العجوز بأنه بم يكن راغباً في البقاء مع (كروني)، لأن أحد أقرباء كروني هذا كان قد استولى على إحدى مزارعه بعد باردبيرغ. لقد نسيت تفاصيل القضية ولكنها كانت مثيرة. وقد قررا اختيار مكان يدعى أومبالا في الهند لأن طبيباً من الدرجة الأولى كان موجوداً هناك.

"وهكذا كان أدريان مصمماً على شرب نخب الملك وصيد الثعالب وكذلك على دراسة الجيش المحلي في الهند (أود رؤيته شخصياً)، حتى يكون الجنرال البريطاني قد علّم الفروسية لمواطني بريطانيا العظمى من البيض الذكور. لا تسيء فهمي ياسيدي، لقد أحببت ذلك الجنرال. بعد عشرة دقائق أحببته وأردت أن أضحك عليه، ولكن في الوقت نفسه فإن الجلوس هناك والاستماع إليه يتحدث عن القرون قد أخافني يا سيدي كما أقول لك. لقد أخافني حتى القشعريرة! لقد أقر بكل شيء. أقر بالقمع قبل أن تتكلم أنت . كان مسروراً بأن يسمع أن رجاله قد استخدموا في تنظيف المرج ذي الأشجار المتناثرة أكثر من سروره حين قتلت حصانيّ توم ريد . وقد استند

في كرسيه ونفخ الدخان عبر أنفه وراح ينضج رجاله كالسيجار . وتحدث عن القرون الخالدة!..

"ذهبت إلى الفراش أقرب إلى الانهيار العصبي من أي وقت مضى. في صباح اليوم التالي رتبنا أنا والكابتن منكلتاو أمر نقل ما أبقت شظايا قذيفته من مدفعي الزيغلر إلى السكة الحديد. وقد مضى إلىهناك علىعجلاته، وقد كتبت عليه بالاستنسل: "مطعم سلاح المدفعية الملكي، وولويتش، وذلك على الماسورة، وقال هو إنه سيكون ممتناً لو اعتنيت بالمدفع حتى كيب تاون، وسلمته إلى رجل في سلاح المدفعية هناك. ثم قال أخيراً: "كيف هو وضعك المالي؟ ستحتاج إلى بعض النقود في طريق عودتك إلى الوطن".

"قلت: أولاً أيها الكابتن لست بالرجل الفقير وثانياً لن أذهب إلى الوطن. أنا أسير قوسك ورمحك.أرفض التخلي عن هذا المنصب".

"قال: سكيتلز !16- (كانت هذه واحدة من عباراته العظيمة). ستنال العفو وتعود إلى أمريكا وتخترع مدفع زيغلر آخر بقطع عملية أثقل قليلاً. لدينا من الأسرى أكثر مما نعرف مانفعله بهم. ستكون مجرد نفقة إضافية بالنسبة لي كدافع ضرائب. فكر بالجدول (د) وخذ العفو".

"قلت: لا أعرف شيئاً عن تعرفاتكم، ولكن حين أصل إلىكيب تاون سأرسل إلى الوطن طلباً بالنقود، ثم سأدفع كل سنت أنفقه بلدكم على إقامتي وذلك إلى أي إدارة يعود تأسيسها حقاً إلى القرن العاشر إن كان مرسوماً أن تفرضها منذ وصول ويليام الفاتح17-.

"قال: ولكن اللعنة عليك من بغل سميك الذهن. هذه الحرب قد بدأت للتو! هل تعني أنك تريد لعب دور الأسير حتى نهايتها؟!"..

"قلت: تقريباً. هذه هي القصة ومافيها لو استطاع إنكليزي وأمريكي أن يتفاهما..".

"قال: وهو جالس على كومة فوق تل نمل: "ولكن وحق اسم السماء المقدس، لماذا؟..

"قلت: حسن أيها الكابتن لا أدعي أني أتبع طرق تفكيرك، ولا أرى لماذا تسيء استخدام منصبك لتلاحق أسير حرب مسكين ليتخلى عن منصبه!"..

"يا صديقي العزيز". هكذا بدأ يقول وهو يرفع يديه ويحمر وجهه، سأعتذر".

"قلت: ولكن إن كنت تلحّ فهناك أمر ونصف في هذا العالم لا أستطيع القيام بهما. النصف لا قيمة له هنا. ولكن أن أنال العفو وأعود إلى الوطن، وأتعرض إلى إجراء مقابلات مع الناس، وألقي محاضرات حول حملتي أنا وحدي ضد الأعداء الوراثيين لبلدي المحبوب هو الشيء الذي لا أستطيع، فلندع الأمور كما هي أيها الكابتن!"..

قال: "ولكن ستمل حتى الموت"، لقد لاحظت أن البريطانيين يخافون من المال أكثر من خوفهم من الموت".

"قلت: سأبقى على قيد الحياة. لست بريطانياً، أستطيع التفكير".

"قال: يا إلهي، ويقترب مني ويمد يد الصداقة اليمنى إليَّ."لابد أنك إنكليزي يازيغلر!".

"ليس أمراً جيداً أن يجنَّ المرء من مثل تلك المجاملة، كل الإنكليز يفعلون ذلك. إنهم جنس مجنون. حين لا يعرفونك يتجمدون حتى يصبحوا أكثر قسوة من سانت لورنس.وحين يعرفونك يذوبون مثل الثلج في نيسان. وحين غادرنا نحن الأسرى . أربعة أيام . حكى لي الكابتن مانكلتاو الكثير حول نفسه: عن أمه وأخوته وعن أخيه الرديء الذي كان فارساً في جيش استعماري ما، وكيف أن أباه لم يكن علىوفاق معه. أجل، وكل شيء كما قلت لك. إنهم غير مولعين بالحياة المنزلية أو العائلية هؤلاء البريطانيون بالمقارنة معنا. فهم يتحدثون عن شؤون أسرهم وكأنها أسرة شخص آخر. ليس الأمر أنهم لا يعرفون الخجل. ولكن يبدو الأمر كذلك. أعتقد أنهم ينطقون عالياً بما نفكر نحن به وننطق نحن عالياً بما يفكرون هم به.

"لقد أحببت الكابتن مانكلتاو خاصتي. أحببته أكثر من أي رجل تعرفت عليه. كان بريئاً طاهراً. أعطاني دورق الشراب الفضي خاصته وأعطيته صيغة متفجرة "لفتايت". أي مائة وخمسون ألف دولار دسستها في جيب صداره، على أقل تقدير، لو كانت لديه المعرفة الكافية لاستخدامها، لا، لم أقل له كم هي قيمتها نقداً، كان إنكليزياً.وكان من شأنه أن يرسل خادمه ليتأكد من الموضوع.

"حسناً، أنا وأدريان وحشد من الهولنديين الملاعين أرسلنا على طريق كيب تاون

فـي عربـات مـن الدرجـة الأولـى تحـت الحراسـة.(ماكان رأيـي فـي مجنـديكم؟ إنهـم مختلفون كثيراً عن مجندينا ياسيدي: كثيراً جداً). كما قلت، فقد انزلقنا جنوباً بينما راح أدريان يتطلع من نافذة العربة ويبكي. يبكي الهولنديون بسهولة كبيرة بالمقارنة مع بأسهم في القتال. ولكني لاأفهم قط كيف يمكن للهولندي أن يشتم حتى عبرنا إلى مستعمرة دولة أورانج الحرة، وقد رفع يده وشتم ستاين عشر دقائق بحالها. ثم دخلنا المستعمرة، ووصل المتمردون. قساوسة على الأغلب ومعلمو مدارس. وهم يحملون الفواكه والمعاطف والنصوص. حادثهم فان زيل بالهولندية، وكان هناك رجل ضخم أحمر اللحية في بوفورت ويست، على ما أذكر، وقد راح يذوي هناك على الرصيف.

"قال فان زيل وهو يرمي عنقوداً من العنب: احتفظ بصلواتك لنفسك. ستكون في حاجة إليها وإلى الفاكهة أيضاً، وذلك حين تصل الحرب إلى هنا. لقد فعلت ذلك أنت وكنيستك الأكثر موتاً من جياد كرونجه النافقة! لقد جاء البريطانيون وهزمناهم، وقد جلستم لا تحركون ساكناً ورحتم تصلّون. لقد أمرتمونا أن نثابر وقد ثابرنا وأحرقت مزارعنا. وقد جلستم لا تحركون ساكناً..

"ثم حملته عائداً به إلى العربة. ظننت أنه أصيب بنوبة. ولكن الحياة أمر غريب. ومفاجئ. ومختلط. لم يعد لديّ أي استخدام آخر للمتمرد أكثر من فان زيل، وكنت أعرف شيئاً ما عن الأكاذيب التي كانوا يغذوننا بها من المستعمرة مدة عام ونيّف. لقد قلت للقسيس أن ينسحب من الموضوع وتابعت تناول غدائي. وحين وصل رجل آخر وصافح فان زيل. كان قد عرفه عن كثب خلال حصار كيمبرلي. كان فان زيل معروفاً على نحو جيد من قبل جيرانه على ما أظن. وما إن فتح هذا الرجل الآخر فمه قلت: "أنت من كنتاكي، أليس كذلك؟!"، قال: "أجل، ومن أين أنت؟"فقلت له على الفور إذ كنت مسروراً بسماع لهجة أمريكية جيدة من فم أي رجل. ولكنه فرك يديه خلف ظهره، وقال: "لا أعرف أي رجل يقاتل لأجل هولندي تاماني18-. ولكني أعتقد أنك تلقيت أجراً طيباً، أنت أيها اليانكي اللعين المهرب للأسلحة والذخائر".

"حسناً ياسيدي، لم أكن أنتظر ذلك، وكانت المفاجأة صاعقة، بينما بدأ فان زيل العجوز يشرح الأمر".

قال الرجل: لا تتعب نفسك بالشرح يا سيد فان زيل. أعرف هذا الصنف من الناس. الجنوب مليء بهم".ثم التفت نحوي وقال: أنظر إليّ هنا أنت أيها اليانكي. لا شيء صغير هنا أو هناك مثل ملك، ولكن مافعلته أنت هو أن تعود إلى الرجل

الأبيض في ستة أماكن مرة واحدة نصفي الكرة الأرضية وأربع قارات . أمريكا وإنكلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا. لا تفتح عقلك. تعرف جيداً أنهم لو أمسكوا بك تلعب هذه اللعبة في بلدنا لكنت تتهزهز الآن عالياً من أنشوطة قبل أن تبرز أوراق جنسيتك. تابع واجمع المال، وسوف تنتهي إلى القتال في سبيل الزنوج، كما فعل الشمال"، ثم رمى لي نصف كراون من النقد الإنكليزي.

"سيدي، لا أنظر إلى الاقتراح على هذا النحو، ولكني أظن أني كنت قد تعرضت إلى صدمة . نوعاً ما . بسبب الانفجار . لقد قالوا لي في كيب تاون إن أحد أضلاعي قد اخترق رئتيّ. لا أورد هذا كعذر، ولكن الحقيقة الإلهية الباردة للقضية هي... أن النقود التي على الأرض فعلت ذلك... لقداستسلمت وبكيت. وضعت رأسي أرضاً وبكيت.

"أحلم بهذا حتى الآن أحياناً. لم يكن يعرف الظروف، ولكني أحلم بذلك. وهذا جحيم!

"كيف ترى الاقتراح... كمواطن؟ لو كنت قد اخترعت مدفعك الخاص وأنفقت سبعة وخمسين ألف دولار عليه... ودفعت نفقاتك من كلمة "اذهب؟ يحق للمواطن الأمريكي أن يختار الجانب الذي يريد وذلك في الأمور الكريهة، ولم يكن فان زيل من أتباع كروجر 19–... وقد خاطرت بجلدي على نفقتي. لقد حصلت على عنوان ذلك الرجل من فان زيل. إنه رجل مناجم من كيمبرلي، وقد كتبت الحقائق. أرسلتها إليه. ولكنه لم يرد قط. أعتقد أنه حسبني أكذب... ياله من متمرد جنوبي لعين!...

هيَّا قل لي:هل ذكرت لك أن الكابتن خاصتي قد أعطاني رسالة إلى لورد إنكليزي في كيب تاون، وقد رتب الأمور حتى أستطيع أن أمكث قليلاً في منزله؟ لقد كنت مريضاً جداً وكنت أتقيأ الدم من حيث اخترق الضلع الرئة هنا. وهذا اللورد كان مهووساً بالمدافع، وقد اهتم بمدفع الزيغلر. كان ينتقد النظام البريطاني كأي أمريكي. قال إنه يريد الثورة وليس الإصلاح في جيشكم. قال إن الجندي البريطاني قد فشل في كل شيء عدا الشجاعة. قال إن إنكلترا في حاجة إلى "مذهب مونرو"20–. أكثر من أمريكا... في حاجة إلى مذهب جديد يسود القارة كلها، فتكرس نفسها بصرامة لتطوير مستعمراتها. قال إنه سيلغي نصف وزارة الخارجية ويخرج منها كل الأسر القديمة المتوارثة، لأنهم كما قال، قد وطنوا أنفسهم على خداع الدبلوماسيين القاريين،

واحتقار المستعمرات. لم يكن عمر أسرته يزيد عن ستمائة سنة. كان رجلاً شديد الذكاء ومواطناً صالحاً. وقد تحدثنا في السياسة والاختراعات حين كان الألم في رئتي يخف قليلاً.

"هل كان يعرف جنرالي؟ أجل، كان يعرفهم جميعاً. كانوا جميعاً من الصفوة، كلهم من أعز أصدقائه. ولكنه أسرّ لي بأنه لم يكن أي منهم ملائماً لقيادة طابور في الميدان. قال إنهم شديدو الولع بالدعاية. لا يبدو أن الجنرالات يختلفون كثيراًعن الممثلين أو الأطباء أو . أجل ياسيدي . المخترعين.

"لقد رتب لي أموري على نحو جميل في سايمونزتاون. كان له نفوذ كبير... حتى بالنسبة إلى لورد مثله. في البداية عاملوني كمجنون غير مؤذ. ولكن بعد مدة من الزمن جعلتهم يسمحون لي بالاحتفاظ ببعض سجلاتهم. لو كنت قد تركت وحدي في هذا العالم مع النظام البريطاني في مسك الدفاتر، لكنت سأعيد بناء الامبراطورية البريطانية كلها.. بدءاً من الجيش. أجل، أنا واحد من أكثر محاسبيهم ثقة، وهم يدفعون لي أجراً مقابل ذلك يصل إلى دولار واحد في اليوم. وأنا أحتفظ بذلك. لقد كسبته، وأنا أحسمه من كلفة طعامي. حين تنتهي الحرب سأدفع الباقي إلى الحكومة البريطانية، أجل ياسيدي، هكذا أنظر إلى الاقتراح.

"أدريان؟، أوه، لقد غادر إلى أومبالا قبل أربعة أشهر. قال لي إنه سيقدم طلباً للانضمام إلى "الكشافة الوطنيين"، إن لم تضع الحرب أوزارها هذا العام. ليس أمراً طبيعياً أن يطلق هولندي النار على هولندي آخر، ولكن لو كان أدريان سيلتقي بستاين، فسيكون هناك خروج على القاعدة. أجل، حين تنتهي الحرب سيكون على الجيش البريطاني أن يحمي ستاين من مواطنيه. ولكن الحرب لن تنتهي قريباً. ومن يؤمن لا يسرع كما يقول الإيرلنديون. إن القساوسة ومعلمي المدارس والمتمردين ستكون لهم حربهم بعد فترة طويلة من الهدوء الذي عم الشمال.

"أنا مسرور من هذا البلد.. إنه كبير. ليس هناك بشر كثيرون كما في أمريكا. هناك ازدهار قادم دون شك، لقد تحدثت عن ذلك مع أدريان، وأعتقد أني سأشتري مزرعة في مكان قريب من بلومفونتاين وأبدأ بتربية البقر. إنها كبيرة وهادئة.. مزرعة تبلغ مساحتها عشرة آلاف هكتار. وهناك أستطيع متابعة اختراعاتي. سأبيع مدفعي الزيغلر على ما أعتقد. سأعرض براءة الاختراع على الحكومة البريطانية. وإن قالوا: (حقاً كم هذا مثير للاهتمام). فسوف أبيعه إلى الكابتن مانكلتاو وصديقه اللورد.

سرعان ما سيجدان واحداً باسم "غاسي" أو "تيدي" أو "ألجي" يستطيع أن يقبله في المكان الصحيح. لقد تعلمت الدرس.

"والآن سأذهب للسباحة وأقرأ الصحف بعدالغداء. لم أتمتع بوقت طيب كهذا منذ مات ويلي.".

خلع القميص الأزرق من فوق رأسه حين عاد السباحون إلى أكوام ملابسهم. قال وهو يتحدث من تحت ملابسه:

"ولكن لو أردت أن تحول أملاكك إلى نقد، عليك أن تؤجر الاقتراح كله إلى أمريكا لمدة تسعة وتسعين عاماً".

❒❒

■ حواشي المترجم:

1 . كورودايت: متفجر لا دخان له يصنع على شكل حبال.

2 . أغوينالدو، إميليو: قائد فيليبيني قاد العصيان المسلح خلال الحرب الإسبانية . الأمريكية. كما قاد الثورة (1899 . 1901)، ضد القوات الأمريكية المحتلة حتى تم أسره.

3 . كروغر (1825 . 1904): سياسي جنوب أفريقي لعب دوراً هاماً في تاريخ ترانسفال. أصبح رئيساً للبلاد بين (1883 . 1900).

4 . كفيريون: أعضاء في مجموعة الشعوب الناطقة بلغة البانتو في جنوب أفريقيا.

5 . تيدي روزفلت: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1900-1909).

6 . شنكتادي: مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية.

7 . غروفر كليفلاند: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (1885-1889).

8 . واترلو: المعركة الأخيرة التي هزم فيها نابليون عام (1812) على يد الجيوش البريطانية والحليفة.

9 . توم ريد: (1839-1902)، مشرّع أمريكي ورئيس مجلس النواب (1889-1891). و(1895-1899).

10 . جوزيف تشامبرلين: (1836-1914). سياسي امبريالي بريطاني.

11 . دومونت: (1873-1932). طيار برازيلي كان من أوائل من صمم طائرة تعمل بمحرك بنزين وطار بها.

12 . ساموبل لانغلي: (1834-1906). عالم أمريكي من أوائل من درس الطيران الميكانيكي.

13 . سيموثيان: معهد بحوث أمريكي.

14 . لا أدريين: من يعتقدون أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها.

15 . هرمجدون: الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر.

16 . سكيتلز: لعبة القاني الخشبية.

17 . ويليام الفاتح: (1028-1087). ملك إنكلترا (1066-1078). قاد الحملة النورمندية على إنكلترا وفتحا (1066).

18 . تاماني: ينزع إلى المتعة بالسلطة السياسية بطرائق تكون مشبوهة أو فاسدة.

19 . يوهانس كروجر: (1825-1904) سياسي جنوب أفريقي كان رئيساً للبلاد (1883-1900).

20 . مذهب مونرو: أعلنه الرئيس الأمريكي مونرو في عام 1823 وقوامه أن الولايات المتحدة الأمريكية تعارض كل تدخل أوروبي في شؤون نصف الكرة الغربي.

❑❑❑

النزهـــــة القصـــــيرة للسيد لوفداي

قصة: إيفيلن واو*

ترجمة: أسعد الصالح

-1

بينما كانت السيارة تلج أبواب مشفى الإقليم للأمراض العقلية أبدت السيدة موبنغ ملاحظة بقولها: "لن تجدي عظيم تغيير قد طرأ على والدك".

فسألتها أنجيلا قائلة: "هل سيكون مرتدياً بزة رسمية؟

أجابت الأم: "كلا ياعزيزتي، بالطبع لا، فهو يلقى أفضل العناية والاهتمام".

هذه الزيارة هي الأولى من نوعها لأنجيلا وقد تمت بناءً على اقتراح منها.

هاقد مضت عشر سنوات على ذلك اليوم الممطر أواخر الصيف حيث تم أخذ اللورد موبنغ إلى حيث مقره الآن إنه يوم من الذكريات المشوشة بل المريرة للسيدة موبنغ. لقد شهد يوم حفلة الحديقة السنوية التي تقيمها السيدة موبنغ –والمليء بالمرارة دائماً– اضطراباً سببه تقلب الجو. ذلك الجو الذي ظل صافياً متألقاً ومبشراً إلى أن وصل الرعيل الأول من الضيوف، فانقلب فجأة إلى سحب لفت اليوم بالظلام وأشبعته بالمطر. متسارعة الخُطا نحو حاجب يقي من المطر وانقلب السرادق المقام في الهواء الطلق رأساً على عقب وحُملت الكراسي والوسائد بطريقة لم تخل من الذعر، وكان الهواء قد رفع غطاء إحدى طاولات الطعام إلى أغصان شجرة صنوبر حيث

أصبح يرفرف مع المطر. أما الضيوف فكانوا -في الفترة التي يصفوا فيها الجو- يخرجون على حذر إلى المروج المخضلة بماء المطر، ثم تأتي عاصفة أخرى تليها عشرون دقيقة فيها تشرق الشمس مرة أخرى ويظهر ضوءها.

لقد كان عصر ذلك اليوم بغيضاً كريهاً، وكانت الطامة الكبرى فيه عند الساعة السادسة مساءً عندما حاول والدها الانتحار.

كان من عادة السيد موبنغ التهديد بأن ينتحر بمناسبة حفلة الحديقة في تلك السنة وبينما كان بعض الجيران يبحثون عن ملجأ يقيهم المطر وجدوه وقد اسود وجهه إذ كان معلقاً على هيئة المشنوق بحمالات بنطاله في بيت البرتقال البلاستيكي. قام الجيران بإعادة قدميه إلى الأرض مرة أخرى وقبل العشاء طُلبت له سيارة مقفلة (لتأخذه إلى حيث مقره الآن).

منذ ذلك الحين ومن موسم إلى موسم كانت للسيدة موبنغ زيارات لمشفى الأمراض العقلية حيث تعود عند وقت تناول الشاي والكتمان يلف مالقيت هناك.

كان العديد من جيرانها يميلون إلى نقد مقر إقامة اللورد موبنغ الذي بكل تأكيد لم يكن نزيلاً عادياً. لقد كان مقيماً في جناح منفصل من أجنحة المشفى مخصص لعزل المجانين الأثرياء فهم الأوفر حظاً والذين يتم إعطاؤهم مراعاة كاملة بحسب نقاط ضعفهم، فهم قادرون على اختيار ألبستهم الخاصة (يطلق الكثير منهم العنان لأخيلة مفعمة بالحياة) ويمكن أن يدخنوا سجائراً من أغلى الماركات، وكذلك، في الذكريات السنوية لشهاداتهم، يمكن أن يستضيفوا أياً من النزلاء الآخرين، الذين كانت بينهم صلة، على حفلات عشاء خاصة.

على كل حال فإن الحقيقة تظل أن هذا المشفى كان بعيداً عن كونه أغلى أنواع المعاهد حيث أن ذلك العنوان الثابت "مأوى الإقليم للمختلين عقلياً" المختوم على ورق كتابة الرسائل، والمرسوم على البزة النظامية لكل خادم فيه، والمكتوب بالدهان حتى على لوحة بارزة عند المدخل الرئيسي يشير إلى أكثر الاتحادات رخصاً ووضاعة. وبين فترة وأخرى وبلباقة تزيد حيناً وتنقص حيناً آخر يلفت أصدقاء السيدة موبنغ نظرها إلى عينات من منازل التمريض الساحلية حيث "أطباء مؤهلون مع مساحات خاصة وكبيرة تتناسب مع مهمة العناية بالحالات الصعبة".

لكنها كانت لاتلقي بالاً يذكر. عندما يبلغ ابنها سن الرشد يمكن أن يقوم بما

يراه مناسباً أما في هذه الأثناء فإنها لاتميل إلى تخفيف نظامها الاقتصادي. لقد خدعها زوجها في اليوم الذي تطلعت فيه دون بقية أيام السنة إلى مساندة مخلصة وهو في وضع أفضل مما يستحقه.

كان هناك القليل من الأشخاص المنفردين ممن يلبسون معاطفاً ثقيلة يمشون بتثاقل وبخطوات واسعة حول المنتزه.

"أولئك هم مجانين الطبقة الوسطى" علقت الأم "هناك حديقة أزهار جميلة جداً وصغيرة لأناس كأبيك. لقد أرسلت لهم بعض الشتلات السنة الماضية".

مرت سيارتهما بواجهة المبنى ذات القرميد الأصفر والخالية من المنافذ عندما اتجهت إلى مدخل الطبيب الخاص حيث استقبلهم الطبيب في "غرفة الزوار" المعدة لمقابلات من هذا النوع.

كانت نافذة الغرفة محمية من الداخل بتشابكٍ من القضبان والأسلاك. لم يكن هناك موقد نار وعندما حاولت أنجيلا أن تزيد من المسافة الفاصلة بين كرسيها والشوفاج أدركت أن كرسيها تم تثبيته بالأرض بواسطة المسامير والبراغي.

قال الطبيب: "اللورد موبنغ على أهبة الاستعداد لرؤيتك"

فكان السؤال: "كيف حاله".

"أوه، بخير، يسرني أن أقول إنه فعلاً بخير كثير. صحيح أنه أصيب بزكام كريه جداً فيما مضى من الوقت لكنه عدا ذلك في حالة ممتازة حتى أنه يمضي كثيراً من وقته في الكتابة".

ترامى إلى سمعهم صوت خطوات متثاقلة ووثّابة قادمة عبر الممر المرصوف بالبلاط الحجري. كان الصوت خارج الباب لشخص ذي مزاج سيء لايمكن إرضاؤه، وقد عرفت أنجيلا أنه لوالدها إذ قال: "ليس لدي الوقت، أقول لك. دعهم يرجعون إلى هنا فيما بعد".

فجاء الرد من شخص ذي نغمة لطيفة ذات نبرة ريفية لا تكاد تذكر "عليك أن تأتي معي الآن. إنه جمهور رسمي بكل معنى الكلمة. ثم أنه ليس عليك أن تمكث أكثر مما يطيب لك".

ثم فتح الباب مدفوعاً (ليس فيه قفل، أو مايثبته) ودخل اللورد موبنغ بصحبة

رجل كهل صغير الجسم يغطي البياض كامل شعره وينم وجهه عن مقدار عظيم من اللطافة.

"هذا هو السيد لوفداي مرافق اللورد موبنغ".

"بل سكرتيري" قال اللورد موبنغ ثم اندفع يمشي الهوينا وصافح زوجته.

"هذه أنجيلا تتذكرها، أليس كذلك؟"

"لا. يصعب علي القول بأني أتذكرها. ما الذي تريده؟"

لقد أتينا لرؤيتك.

"حسناً، لاتثريب عليكما غير أنكما جئتما في وقت غير مناسب إلى أبعد الحدود، فأنا مشغول جداً. هل قمت بطباعة تلك الرسالة الموجهة إلى البابا يالوفداي؟"

"لا، ياسيدي. إن كنت تذكر فقد طلبت مني أن أبحث عن الأرقام المتعلقة بمصائد سمك نيوفاوندلاند قبل كل شيء".

"وهكذا فعلت، هذا من حسن الحظ حيث يجب إعادة كتابة مسودتها كاملة إذ ظهر مقدار عظيم من المعلومات منذ وقت الغداء. مقدار عظيم.. أترين ياعزيزتي إنني مشغول تماماً".

ثم صرف عينيه القلقتين والمضحكتين إلى أنجيلا قائلاً:

"أعتقد أنك جئت من قرب الدانوب حسناً يجب أن تعيدي الكرة وتأتي لاحقاً. أخبريهم أنها ستكون على مايرام، على مايرام بشكل تام، غير أني لم أجد وقتاً لإعطائها اهتمامي الكامل، أخبريهم ذلك".

"حسناً جداً يا أبتاه".

"على كل حال" قال اللورد موبنغ بمزاج يظهر سوء الطبع "إنها مسألة الأهمية الثانوية. هناك مايجب أن يُتعامل معه قبل كل شيء مثل الألب والأمازون والتايغزر. أليس كذلك يا لوفداي؟.. دانوب حقاً. نهر صغير كريه. سوف لن أسميه إلا جدولاً مائياً. حسناً، لايمكن التوقف. كان لطفاً منكما المجيء. كنت سأعمل لكما المزيد لو استطعت لكن ترون بأم أعينكم كيف أني ثابت. اكتبوا لي عنها. هذا كل شيء. ضعوها بالأبيض والأسود" قال ذلك وغادر الغرفة.

قال الطبيب: "أترون إنه في حالة ممتازة، إن وزنه يزداد ويأكل وينام ويؤدي كل هذا بشكل ممتاز. في الحقيقة، إن الاتجاه العام لنظامه ينأى عن اللوم" .

فُتح الباب من جديد وعاد لوفداي ثانية قائلاً "سيدي، التمس المعذرة لعودتي، لكنني كنت أخشى أنه ربما يصيب القلق صدر الفتاة لأن سيارته لم يعرفها. يجب أن لا تؤاخذيه. يا آنسة. المرة القادمة سيكون من دواعي سروره أن يراك. هو منزعج هذا اليوم فقط لأنه مقصرٌ في عمله. كما ترى ياسيدي فقد مر هذا الأسبوع كله وأنا أقوم بتقديم المساعدة في المكتبة، ولم يكن هناك متسع لأن أطبع كل تقارير سيادته.

لقد أصابه الارتباك في فهرس بطاقاته. هذا كل مافي الأمر ولم يكن ينوي ضرراً أو ضراراً".

"ياله من رجل لطيف" قالت أنجيلا عندما رجع لوفداي إلى العمل الموكل به. فرد عليها الطبيب قائلاً "حقاً، فأنا لا أعرف ماذا كان ينبغي أن نفعل لو لم يكن بيننا لوفداي الكهل. الكل يكن له المحبة سواء أفراد الإدارة أو المرضى". قالت السيدة موبنغ: "أتذكره جيداً. إنه من المريح أن تعرف أنه باستطاعتك الحصول على سجّانين جيدين كهؤلاء. الناس الذين لايعلمون يقولون مثل هذه الأشياء السخيفة عن مشافي الأمراض العقلية" فقال الطبيب: "أوه، لكن لوفداي ليس سجّاناً" فقالت أنجيلا: "لاأظنك تريد أن تقول أنه مجنون أيضاً" فرد عليها مصححاً: "إنه أحد نزلاء المشفى. إنها إلى حد بعيد حالة مثيرة للاهتمام لقد مضى عليه خمس وثلاثون سنة وهو هنا" قالت أنجيلا: "لكنني لم أرَ أحداً أعقل منه" فقال الطبيب "بلا شك هو يملك في الظاهر هذا الإيحاء. وفي العشرين عاماً الماضية كنا نعامله على هذا الأساس. إنه روح هذا المكان وحياته. وهو بالطبع ليس من مرضى القسم الخاص لكننا نسمح له أن يختلط بهم بحرية. فهو يلعب البلياردو بشكل رائع ويقوم بالألعاب السحرية في الحفلات الموسيقية ويصلح أجهزة الحاكي (الفونوغراف) التي يملكونها ويقوم بخدمتهم ويساعدهم في حل الكلمات المتقاطعة والألغاز وفي هوايات متعددة. ونحن بدورنا نسمح لهم أن يقدموا له بعض المال إكراماً لجهوده على الخدمات التي يقوم بها ولابد أن يكون الآن في حوزته ثروة صغيرة. وهو لديه طريقة خاصة في التعامل حتى مع أكثرهم إزعاجاً فهو لايقدر بثمن في نطاق هذا المكان.

"هذا حسنٌ، ولكن لم هو هنا".

"حسناً، إنه أمر محزن إلى حد بعيد، فعندما كان في ذروة شبابه قام بقتل شخص ما– أو فتاة لايعرف عنها شيء على الإطلاق حيث قام بطرحها أرضاً بعد أن كانت على دراجتها ومن ثم كتم أنفاسها ليقضي عليها. بعد هذا مباشرة سلم نفسه وجاء إلى هذا المكان منذ ذلك الحادث".

"لكنه وبكل تأكيد غير مؤذ الآن. لم لا يُترك وشأنه ليخرج من هنا؟".

"لم لا، أفترض لو أن هذا الأمر كان يهم أي أحد إذاً لحدث ماتتحدثين عنه. فهو لاقريب له سوى أخت غير شقيقة تعيش في بليماوث كان من عادتها أن تزوره من وقت لآخر لكنها لم تعده منذ سنوات. وكونه في منتهى السعادة عندنا فأنا أؤكد لك أننا غير عازمين على أن نباشر بالإجراءات الأولى لإخراجه، فضلاً عن كونه عظيم الفائدة لنا".

فقالت أنجيلا: "لكن هذا لايبدو عدلاً".

"انظري إلى والدك، إنه ضائع تماماً لولا أن لوفداي يعمل على أنه سكرتيره".

"لكن هذا لايبدو عدلاً".

-2

غادرت أنجيلا المشفى يرافقها إحساس بظلم شديد الوطأة أما أمها فلم تظهر أي تعاطف.

"فكري في أن أحداً ما قد أُقفل عليه في صندوق من الجنون طوال حياته" فأجابتها أمها: "لقد حاول شنق نفسه في بيت البرتقال البلاستيكي أمام عائلة تشتير مارتن".

"لا أقصد والدي بالحديث إنما أقصد السيد لوفداي"

"لا أظن أني أعرفه" أجابت الأم. فردت عليها أنجيلا: "بلى، ذلك المعتوه الذي جعلوه يقوم برعاية أبي".

"سكرتير والدك. الذي يتصف بأعلى درجات التهذيب حسب ظني والمناسب بصورة فائقة في عمله".

في هذه الأثناء تركت أنجيلا هذه المسألة غير أنها عادت إليها اليوم التالي عند وقت الغداء. "أمي، ما الذي ينبغي القيام به لإخراج الناس من الصندوق

(المشفى)؟".

"الصندوق؟ سبحان الله أيتها الطفلة. آمل أن لاتتوقعي رجوع أبيك إلى هنا" فردت أنجيلا: "لا، لا بل السيد لوفداي".

"تبدين مرتبكة لي تماماً يا أنجيلا. أرى أنه كان من الخطأ أن آخذك معي في زيارتنا القصيرة يوم أمس".

بعد الغداء اختفت أنجيلا لتظهر في المكتبة حيث غاصت مباشرة في قراءة القوانين المتعلقة بالجنون والمعروضة في الموسوعة. ولم تعد تفتح هذا الموضوع مع أمها، ولكن بعد أسبوعين وعندما ظهرت مسألة أخذ بعض طيور التَّدْرُج إلى والدها بمناسبة حفلة شهادته الحادية عشر أظهرت أنجيلا رغبة غير عادية لتشاركهم في زيارته. أما أمها فلم تلاحظ شيئاً مريباً لانشغالها باهتمامات أخرى.

قادت أنجيلا سيارتها الصغيرة متوجهة إلى المشفى وبعد أن سلمت الطيور التي تم اصطيادها سألت عن السيد لوفداي الذي كان مشغولاً في تلك الأثناء بصنع تاج لأحد أصحابه إذ من المتوقع في كل ساعة أن يُمسح بالزيت على أنه امبراطور البرازيل. لكن لوفداي ترك عمله ليستمتع بعدة دقائق من الحديث مع أنجيلا حيث تحدثوا عن صحة الأب ومعنوياته. ثم بعد برهة من الوقت، وجهت أنجيلا ملاحظة قائلة: "ألا تريد في وقت ما أن تذهب بعيداً من هنا" نظر السيد لوفداي إليها بعينين يجمعان لطافة وزرقة رمادية وقال: "لقد اعتدت على هذه الحياة، ياآنسة. وأنا مغرم بالناس المساكين هنا وأظن أن العديد منهم يبادلوني الشعور نفسه. على الأقل أظن أنهم سيفتقدوني إذا ذهبت بعيداً عنهم".

"لكن ألم يحدث مرة أن فكرت بعودة حريتك إليك مرة أخرى".

"أوه، نعم ياآنسة فكرت بذلك -أكاد أفكر بذلك الوقت كله".

"ماذا ستفعل إن خرجت؟ يجب أن يكون هناك شيء ما لتفعله عند خروجك لا أن تبقى هنا". فتململ الرجل الكهل مظهراً عدم الارتياح وقال "حسناً يا آنسة، بالرغم من أنه يبدو نكراناً للجميل فإنني لا أستطيع أن أنكر ضرورة ترحيبي بنزهة قصير أقوم بها مرة واحدة قبل أن أكون أكبر سناً من أن أستمتع بها. أتوقع أنه لكلٍ منا طموحاته السرية، وهناك شيء واحد أتمنى دائماً لو استطعت تنفيذه: يجب أن

لاتسأليني ما هو لن تستغرق وقتاً طويلاً. لكنني حقاً أشعر أنني لو فعلتها، فقط ليوم ما أو حتى عصر يوم ما إذاً سأموت قرير العين. سأتمكن من الاستقرار مرة أخرى بشكل مريح أكثر وسأكرس نفسي لأولئك المجانين المساكين بقلب أكثر انشراحاً. نعم، إنني أشعر بذلك".

في عصر ذلك اليوم ذرفت عينا أنجيلا الدموع وهي تغادر بسيارتها بعيداً وكان قولها: "يجب أن ينال نزهته القصيرة، بارك الله فيه".

-3

منذ ذلك اليوم ولمدة عدة أسابيع كان لأنجيلا هدف جديد في الحياة. لقد أحدثت تغييراً في ما اعتادت عليه من روتين منزلها مع ملامح توحي بشرود الذهن وتأدب متحفظ وغير مألوف مما أصاب السيدة موبنغ بحيرة شديدة "أعتقد أن البنت عاشقة. أسأل الله فقط أن لايكون ابن ايغبرستون الفظ".

كانت أنجيلا تقرأ في المكتبة كثيراً واستجوبت كل الضيوف الذين زعموا أن لديهم معرفة قانونية أو طبية وأظهرت حسن نية فائقة للسير الطاعن في السن رودرك لانغسكوت عضو البرلمان الممثل لهم. إن أسماء مثل "طبيب الأمراض العقلية" و"المحامي" و "موظفي الحكومة" كان لها في هذه الأثناء وقع الفتنة على أنجيلا الفتنة التي كانت من قبل من نصيب ممثلي الأفلام والمصارعين المحترفين كانت امرأة تحمل قضية وقبل نهاية موسم الصيد، انتصرت في قضيتها. لقد نال السيد لوفداي حريته.

كان طبيب المشفى قد أبدى نفوراً لكنه لم يظهر معارضة حقيقية.

وقد قام السير رودرك بالكتابة إلى وزارة الداخلية، وتم توقيع الأوراق الضرورية، وأخيراً جاء اليوم الذي نال فيه السيد لوفداي موافقة لمغادرة المأوى الذي قضى فيه هذه السنوات الطوال والمليئة بالفائدة.

شهدت مغادرة لوفداي بعض مظاهر الاحتفال حيث كانت أنجيلا والسير رودرك يجلسان مع الأطباء على منصة الألعاب الرياضية وخلفهم اجتمع من المعهد كل من ظُنّ أنه في قوى عقلية مستقرة بشكل يكفي لجعله يتحمل الإثارة.

مع القليل من التعابير المناسبة في تعبيرها عن الأسف وبالنيابة عن المجانين

الأكثر ثراءً قدم اللورد موبنغ للسيد لوفداي علبة سجائر ذهبية. أما أولئك الذين افترضوا كونهم أباطرة فقد غمروه بالنياشين وألقاب الشرف. وأهداه السجانون ساعة يد فضية بينما لم يجد النزلاء الذين لايدفعون مالاً سوى الدموع التي انهمرت من العديد منهم يوم التقديم.

كانت الكلمة الرئيسية في عصر ذلك اليوم للطبيب الذي تكلم قائلاً: "تذكر أنك لن تترك وراءك إلا أحرَّ أمنياتنا الطيبة. إن روابطاً تربطك بنا لن يأتيها النسيان والوقت سوف يعمق شعورنا بأننا مدينون لك. وإن حدث فيما تستقبل من أيام وشعرت بأن حياتك سترهقك في هذا العالم فسوف يكون ترحيب بك دائم هنا.

سيكون الباب مفتوحاً لعملك هنا".

وفي أثناء سيره إلى الطريق الرئيسية كان مايقارب الاثني عشر مجنوناً ذوي عاهات مختلفة يتبعونه بخطوات وثّابة إلى أن فتحت البوابات الحديدية ليخطو السيد لوفداي في طريق الحرية. كانت حقيبته الصغيرة قد وصلت إلى المحطة من قبل، لذا اختار أن يمضي ماشياً. كان ملازماً للصمت فيما يتعلق بخططه أما المال فكان مزوداً بنصيب وافر منه، وكان الانطباع العام أنه متجه إلى لندن حيث ينال قسطاً من المتعة قبل أن يزور أخته غير الشقيقة المقيمة في مدينة بليماوث ومما فاجأ الجميع هو عودته ضمن ساعتين من نيله لحريته وكانت لا تفارقه ابتسامة غريبة الأطوار، ابتسامة فيها الرقة واحترام الذات عند تذكر حدثٍ قد مضى. وقد بين للطبيب قائلاً:

"لقد عدت من حيث ذهبت، وأظن أني الآن باق هنا إلى الأبد".

"لكن يالوفداي ماهذه الإجازة القصيرة. أخشى أنك لم تكد تمتع نفسك على الإطلاق".

"أوه، نعم ياسيدي. شكراً لك ياسيدي. لقد نلت الكثير جداً من المتعة. لقد كنت أمني النفس بلذة قصيرة لامثيل لها. صحيح أنها كانت قصيرة ياسيدي لكنها كانت أكثر إقناعاً. الآن سيكون في مقدوري الاستقرار ثانية في عملي دون أي أسف على شيء".

وفي أعلى الطريق وعلى بعد نصف ميل من بوابات مشفى الأمراض العقلية

اكتشفوا فيما بعد دراجة مهجورة. كانت هذه الدراجة ذات طابع أثري ملكاً لسيدة. كان يرقد في الخندق القريب من الدراجة تماماً جسد مخنوق لفتاة شابة اتفق -وهي تسير بدراجتها إلى بيتها لتناول وجبة الشاي- أن جاوزت السيد لوفداي الذي كان وهو يمشي بخطىً واسعة يتأمل في هذه الفرص السانحة له.

-تمت-

❑❑

***ايفيلن واو** (Evelyn Waugh) *(1903-1966) روائي إنكليزي ولد في لندن ودرس في اكسفورد ولانسنغ. أمضى فترة الحرب العالمية الثانية في خدمة علم المملكة المتحدة مما أكسبه خبرة أصيلة لتصوير الحرب في أعماله التي من أشهرها ثلاثية (الرجال والسلاح) و (الضباط والنبلاء) و (استسلام غير مشروط). كتاباته فيها سخرية لاذعة للمجتمع الذي لاينال الفرد فيه فرصة التعبير عن القيم والأخلاق.*

-العنوان الأصلي للقصة: *Mr. Loveday's Little Outing من كتاب The Penguin Book of Short Stories.*

❑❑❑

Foreign Literature Quarterly
Year Twenty Fifth, Summer.
No.103 - 2000.

Contents

1. Nature's Law by Jack london. Tr. By Ratib Mustafa Raslan.
2. The obese Man by Raymond Karver. Tr. By Muhssin al khifajy.
3. The Eterual Soul by Vasili Bilou. Tr. By Atif kamil Abo Jamra.
4. The Idiot by Alfred Arndrish. Tr. By Adnan Habal.
5. The mysterious crime of Blanchar street , by kamilo khousseh Thella, tr. By Ali Ashkar.
6. The Robe. By Catherine Ann porter, tr. By Iad hassan jabier.
7. Prisoner of War. Radyard Kipliug. Tr. By twfiq al Asadi .
8. Mr . Loveday's Little Outing, by Evelyn Waugh tr. By Asa'd Al Saleh.

Poetry

1. The poets of demise, by Bithnel Alexander, tr . by rifat Atfeh.
2. near the Railway stabion. By Evor Shkiliasviski. Tr. By youssif Damrah.

❐❐

الآداب الأجنبية، العدد 103، صيف 2000

السنة الخامسة والعشرون

المحتـــويات :